

# فهم الطبيعة البشرية



ألفرد أدلر

# فهم الطبيعة البشرية

ألفرد أدلر

دار مدار الفكر للنشر والتوزيع

2025م



## مقدمة

### مصير الإنسان يكمن في روحه

لا ينبغي التعامل مع علم الطبيعة البشرية بغطرسة أو تعالٍ، على العكس من ذلك، فإن من يدرسونه يتسمون عادةً بالتواضع، لأن فهم الطبيعة البشرية يمثل واحدة من أعقد المشكلات التي حاولت ثقافتنا منذ أقدم العصور أن تجد لها حلاً. وهذا العلم ليس حكراً على فئة صغيرة من المتخصصين؛ بل غايته الأساسية أن يمكن كل إنسان من فهم الطبيعة البشرية. وهنا يثور خلاف مع بعض الأكاديميين الذين يعتبرون أبحاثهم ملكاً خاصاً لا يجوز لغير الخبراء الاطلاع عليها.

لكننا - وبسبب انعزالنا - لا يعرف معظمنا إلا القليل عن الطبيعة البشرية، في الأزمنة الماضية لم يكن ممكناً للبشر أن يعيشوا حياة منعزلة كما نفع اليوم، فمنذ الطفولة الأولى، تكون صلاتنا بالإنسانية محدودة، الأسرة تفصلنا عن بقية المجتمع، وأسلوب حياتنا بأكمله يعيق ذلك الاحتكاك المباشر الضروري مع إخوتنا البشر، وهو شرط أساسي لتطور علم وفن فهم الطبيعة البشرية، فقلة الاتصال بالآخرين تباعد بيننا وبينهم، ولذلك يكون سلوكنا تجاههم مضللاً، وأحكامنا عليهم خاطئة في كثير من الأحيان.

ومن الحقائق التي لا يختلف عليها أحد أن الناس يلتقون ويتحدثون دون أن يتواصلوا فعلاً، يتعاملون مع بعضهم كغرباء، ليس في المجتمع الكبير فحسب، بل حتى داخل الأسرة الصغيرة. فكثير من الآباء يشكون - بين الحين والآخر - من أنهم لا يستطيعون فهم أبنائهم، وكثير من الأبناء يرون أن والديهم يسيئون فهمهم، ولأن موقفنا من الآخرين يتحدد بمدى فهمنا لهم، يصبح هذا الفهم حجر الأساس لأي علاقة إنسانية، ولو كان

لدى البشر معرفة أعمق بالطبيعة البشرية، لعاشوا في انسجام أكبر، ولتحسنت علاقاتهم الاجتماعية، فجميعنا يعلم أن أغلب النزاعات تنشأ من سوء الفهم، وأن فشلنا في إدراك حقيقة بعضنا بعضًا يقود إلى أخطاء في التفسير أو إلى الانخداع بالمظاهر التي يتصنعها الآخرون.

لهذا السبب نشرع الآن في تناول مسألة الطبيعة البشرية من منظور علمي طبي، بغية إرساء قواعد راسخة لعلم جديد في هذا الميدان الذي ظل حتى الآن غامضًا وغير محدد. وسنحاول أن نوضح المقدمات التي يقوم عليها هذا العلم، والمشكلات التي يسعى إلى حلها، والنتائج التي يمكن توقعها منه.

أولاً، الطب النفسي مجال لا بد فيه من معرفة دقيقة بالطبيعة البشرية، فالمعالج النفسي مطالب بأن ينفذ إلى عقل المريض المضطرب بسرعة وعمق، وفي هذا المجال لا يمكن لأي طبيب أن يشخص أو يعالج أو يصف علاجًا ناجعًا إلا إذا كان متأكدًا تمامًا مما يجري في نفس المريض، ولا مجال هنا للسطحية، فأخطاء التشخيص تظهر بوضوح، بينما يقود الفهم الصحيح إلى العلاج الناجع، وبذلك تصبح معرفتنا بالطبيعة البشرية موضع اختبار دقيق.

أما في الحياة اليومية، فإن أخطاءنا في الحكم على الآخرين لا تؤدي عادة إلى نتائج مباشرة، لأن العواقب تظهر بعد وقت طويل، فلا يمكن ربط السبب بالنتيجة بسهولة، غير أننا كثيرًا ما نُفاجأ بمصائب خطيرة تحدث بعد سنوات من سوء فهمنا لإنسان آخر، وهكذا تعلمنا هذه التجارب المؤلمة أن من واجب كل فرد أن يكتسب معرفة عملية بالطبيعة البشرية.

وقد أظهرت لنا دراستنا للأمراض العصبية أن الأعراض والعقد والأوهام التي نصادفها عند المرضى لا تختلف في جوهرها عن السلوك العادي للأشخاص الأسوياء، إنها من العناصر نفسها، ولها المقدمات ذاتها، وتخضع لنفس التطورات، الفرق الوحيد أنها أكثر وضوحًا لدى المريض، وأسهل في الملاحظة، وهذه ميزة عظيمة، لأنها تمكّننا من التعلم من الحالات المرضية لفهم من خلالها النفس السليمة، والأمر كله يتوقف على التدريب، والاهتمام، والصبر الذي يتطلبه أي تخصص مهني.

وكان أول الاكتشافات الكبيرة أن الأسس التي تقوم عليها النفس البشرية تتشكل في السنوات الأولى من الطفولة، وليس هذا الاكتشاف في ذاته جديدًا، فقد سبق أن توصلت عقول عظيمة إلى نتائج مشابهة، بيد أن ما يميز معرفتنا الحديثة هو قدرتنا على الربط بين خبرات الطفولة المبكرة وانطباعاتها ومواقفها، وبين الظواهر النفسية اللاحقة التي نراها في حياة الفرد، ضمن نمط واحد متصل لا يقبل الانفصال، وهذا يعني أننا أصبحنا قادرين على المقارنة بين تجارب الطفولة وتجارب البلوغ، لنرى أن العلاقة بينهما وثيقة للغاية. وهنا يبرز اكتشاف مهم: لا يجوز النظر إلى المظاهر الجزئية للنفس بوصفها كيانات مستقلة؛ بل لا تفهم إلا باعتبارها أجزاءً من كلٍ واحد هو "أسلوب الحياة".

وبهذا المنهج عرفنا أنه لا يمكن تقييم أي سلوك أو خاصية إلا في موقعها داخل السياق العام لحياة الفرد وعالمه العقلي كله. وعندما فعلنا ذلك، اتضح أن الأهداف الخفية في الطفولة تتفق تمامًا مع سلوكيات مرحلة النضج. وباختصار مدهش، ظهر لنا أن النمو النفسي لا يغيّر في الغالب جوهر الإنسان، فقد تختلف الأفعال والكلمات التي يعبر بها عن مقاصده، لكن دوافعه وأهدافه الأساسية تبقى على حالها.

خذ مثلاً مريضاً بالغاً يعاني من قلق مزمن، تملأ عقله الشكوك، ويسعى إلى الانسحاب من المجتمع. إننا نجد لديه السمات نفسها التي كانت واضحة في عاميه الثالث والرابع، الفرق فقط أن هذه السمات أوضح وأسهل تفسيراً في الطفولة، لأن الطفل لم يتعلم بعد كيف يخفي مشاعره الحقيقية. ومن هنا ركزنا معظم بحوثنا على سنوات الطفولة الأولى لمرضانا، فاستطعنا - في كثير من الأحيان - أن نستنتج طبيعة شخصية البالغ الذي نعرف تاريخه المبكر قبل أن يخبرنا به، فالسلوكيات التي نلاحظها عند الراشدين ليست سوى استمرار مباشر لتجارب الطفولة.

ومن خلال الإصغاء إلى ذكريات الطفولة الأكثر وضوحاً لدى المرضى، ومعرفة كيفية تفسيرها تفسيراً صحيحاً، أصبح بإمكاننا أن نعيد رسم ملامح شخصياتهم الراهنة بدقة، واتضح لنا أن من الصعب جداً على الإنسان أن يغيّر الأنماط التي اكتسبها في طفولته، حتى عندما يواجه في حياته الراشدة أوضاعاً مختلفة كلياً، فمجرد تغير الموقف لا يعني تغير نمط السلوك. لأن الشخصية في جوهرها لا تتبدل؛ فالإنسان يحتفظ بالميول نفسها في الطفولة والنضج، وهذا يقود إلى الاستنتاج بأن هدفه في الحياة لا يتغير بدوره.

وهناك سبب آخر يجعل من الضروري التركيز على الطفولة إذا أردنا التأثير في سلوك الراشدين، فالتغيرات التي تطرأ على التجارب والانطباعات في الكبر لا قيمة لها ما لم نفهم الأنماط الأساسية التي تشكلت منذ البداية، وبمجرد أن نحدد هذه الأنماط نستطيع أن ندرك جوهر الشخصية ونشخص الاضطراب تشخيصاً صحيحاً. ولذلك صارت دراسة نفسية الطفل أساساً لهذا العلم، وبُذلت جهود ضخمة لتقصي السنوات الأولى من العمر، حيث توجد مادة غنية لم تُستثمر بعد، وتحمل إمكانية اكتشافات ذات قيمة عظيمة لفهم الطبيعة البشرية.

ومع هذا التوجه نحو الوقاية من تكوّن السمات السلبية، كان لا بد أن تمتد أبحاثنا إلى مجال التربية والتعليم، وهو ميدان طالما اهتم به علماء النفس، فالتربية تمثل تطبيقًا مباشرًا لعلم الطبيعة البشرية، وينبغي أن يكون منهجنا فيها قائمًا على التماهي مع التجربة الإنسانية بكل تفاصيلها، وعلى المشاركة في آلام الناس وآمالهم، كما يفعل رسام البورتريه حين يسعى أن يرسم الإنسان وشخصيته معًا.

إن معظم البشر يعتقدون أنهم بارعون في فهم الطبيعة البشرية، وسرعان ما يشعرون بالإهانة إذا شكك في كفاءتهم، ومع ذلك، فإن الذين يرغبون حقًا في فهم الإنسان يلجؤون إلى التعاطف الصادق، إما لأنهم خبروا أزمات مماثلة في حياتهم، أو لأنهم استطاعوا أن يتعلموا من ملاحظة تجارب الآخرين. ولذلك يمكن اعتبار دراسة الطبيعة البشرية فنًا متعدد الأدوات، له صلة وثيقة بكل الفنون، ولا سيما الأدب والشعر، لأنه يوسّع مداركنا بالإنسان ويقربنا منه، وغايته النهائية أن يعيننا على أن نصبح بشرًا أفضل وأكثر كمالًا.

وهنا يُطرح السؤال: كيف يمكن تطبيق هذه المعرفة؟ أخطر ما يمكن أن يحدث هو أن يُستخدم هذا العلم بفضاظة أو تهور، كأن يحاول المرء أن يستعرض قدرته على تحليل شخصية جاره في جلسة عابرة، أو أن يطبّق مبادئه تطبيقًا آليًا كما لو كانت قوانين صارمة، فمثل هذا الاستخدام لا يسيء فقط للعلم، بل يجرح الآخرين ويعطي انطباعًا سيئًا عن الباحث نفسه. من أجل ذلك ينبغي أن يظل هذا العلم مرتبطًا بالتواضع والحذر الشديد.

ولهذا ننصح دارسي النفس البشرية أن يبدؤوا أولًا بأنفسهم، عليهم أن يحذروا من فرض نتائجهم على الآخرين في غير محلها، وإلا كانوا سببًا في ضرر جديد لعلم ما زال في طور التكوين، فالأخطاء التي يرتكبها الحماس المتهور للشباب تُحسب على العلم كله،

ومن الحكمة أن نتذكر أن الصورة الكاملة يجب أن تكون أمامنا قبل أن نصدر حكمًا مبنياً على أجزاء منها، ولا ينبغي الكشف عن الاستنتاجات إلا حين يكون ذلك لمصلحة الشخص المعني، وفي اللحظة المناسبة. فحتى الحكم الصحيح إذا أُلقي في وقت خاطئ قد يسبب ضرراً بالغاً.

وقبل أن ندخل في التفاصيل، لا بد من الإشارة إلى اعتراض يتبادر إلى أذهان الكثيرين، فقد يبدو القول بأن "أسلوب حياة الفرد يبقى ثابتاً" أمراً غريباً، إذ يعتقدون أن تجارب الحياة العديدة تغيّر بالضرورة مواقف الإنسان، لكن علينا أن نتذكر أن كل تجربة قابلة لتفسيرات شتى، وأن شخصين قد يستخلصان من الحدث نفسه نتائج متناقضة. وهذا ما يفسر لماذا لا نتعلم دائماً من تجاربنا، ولماذا لا يصبح الكبار - بالضرورة - أكثر حكمة؟! نعم، قد نتعلم أن نتجنب بعض المآزق، لكننا نعيد توجيه كل خبراتنا بما يخدم نمط حياتنا الراسخ، والواقع أن كل إنسان يشارك في تشكيل تجاربه الخاصة وفق هذا النمط.

وكثيراً ما نجد في حياتنا اليومية أمثلة لا حصر لها لأناس يكررون الخطأ نفسه باستمرار، وإذا واجهتهم بالخطأ، قد يعترفون قائلين: "أنت محق، سأفادى هذا في المستقبل"، ولكن الأغلب أنهم يتذرعون بأنهم اعتادوه طويلاً فلا يستطيعون تغييره، وربما يلقون باللوم على والديهم، أو تعليمهم، أو طفولتهم، ليبرروا فشلهم. وفي كل ذلك محاولة للتخلص من المسؤولية الشخصية. فهم يريدون أن يظلوا بمنأى عن النقد. وما يغفلونه أنهم لم يبذلوا جهداً حقيقياً لتجاوز عيوبهم، مما يثبت أنهم لا يريدون في الحقيقة أن يتغيروا.

وهكذا يتضح أن أصعب ما يواجه الإنسان هو أن يعرف نفسه وأن يغيرها، فكل محاولة لإعادة تربية إنسان من دون فهم نظري وتقني راسخ ستظل سطحية وعرضة للفشل، إذ إن



التغيرات الخارجية في المظهر لا تعني شيئاً ما لم يتغير الدافع الداخلي.

إن مساعدة الإنسان على تغيير نفسه عملية بالغة الصعوبة، فهي تتطلب صبراً وأملاً، وقبل كل شيء تواضعاً، لأن طالب المساعدة لم يلجأ إلينا لإشباع غرورنا. كما يجب أن تُقدّم المساعدة بطريقة مقبولة له ومبررة من وجهة نظره، فالحقائق – مهما كانت صحيحة – إذا قُدمت بفظاظة أو في وقت غير ملائم، قد تُرفض كما يُرفض الطعام المغذي إذا قُدم في طبق قدر.

لذلك لهذا العلم جانب اجتماعي عميق، فإذا عرف الناس بعضهم بعضاً معرفة أوضح، ارتبطوا بروابط أمتن، وتضاءلت فرص الخداع وخيبة الأمل. لكن خطر التضليل لا يزال قائماً ما دمنا لا نعرف القوى الخفية التي تتحكم في السلوك. ومن واجبنا أن نكشف هذه القوى للناس، وأن نعينهم على فهم الانحرافات والخداع والتناقض في السلوك الإنساني. وبذلك يصبح علم الطبيعة البشرية علماً اجتماعياً أيضاً، هدفه أن يعمّق وعينا بالإنسانية كلها.

وهنا يبرز سؤال آخر: من أقدر الناس على الاستفادة من هذا العلم؟ لا شك أن دراسته النظرية وحدها لا تكفي، لأن المعرفة يجب أن تقترن بالممارسة والتجربة الحية، ولا يتحقق الفهم إلا إذا نزلنا إلى الواقع وعشنا التجارب الإنسانية بأنفسنا، فالتعليم الرسمي لا يزودنا إلا بقدر ضئيل جداً من هذه المعرفة، وكثير مما يقدمه غير صحيح. وهكذا يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يتعلم بنفسه من خلال تجاربه وعلاقاته، وفي ظل قصور التعليم، لا يكتسب تقديرًا حقيقيًا للنفس البشرية إلا أولئك الذين خاضوا صراعاً مع أخطائهم وتجاوزوها. هؤلاء "الخاطئون المصلحون" أكثر قيمة من آلاف الأشخاص

الذين عاشوا حياة سهلة لم تكشف لهم إلا جانبها المضيء، فهم وحدهم يعرفون بعمق الوجهين - المظلم والمشرق - للوجود الإنساني.

وعندما نصادف أشخاصًا حالت أنماط سلوكهم دون أن يعيشوا حياة سعيدة، يصبح من واجبنا أن نعينهم على تصحيح أوهامهم، وأن نرشدهم إلى طرق تفكير جديدة أكثر انسجامًا مع المجتمع، وأقدر على تحقيق السعادة. فنحن لا نسعى إلى أن نبني لهم حياة مثالية، بل نفتح أعينهم على الطريق الذي ضلّوه. وهنا نتفق مع الرأي القائل: "إن كل فعل إنساني هو نتيجة لسلسلة من الأسباب"، لكننا نضيف أن هذه الأسباب قابلة للتعديل إذا وعى الإنسان نفسه، فمعرفة المرء بدوافعه وقواه الداخلية تغيره جذريًا. ومن اللحظة التي يعي فيها ذاته يصبح إنسانًا جديدًا لا يستطيع الإفلات من نتائج هذه المعرفة.

## الجزء الأول

### تطوير الشخصية

ما هي النفس؟

#### مفهوم الوعي

لا ننسب الوعي إلا إلى الكائنات الحية المتحركة، ووجود الوعي يفترض حرية الحركة، لأن الكائنات الثابتة في مكان واحد لا تحتاج إليه. فمن غير الطبيعي أن ننسب العواطف والأفكار إلى شجرة بلوط؛ أو نزعم أنها تدرك بوعي دمارها المحتوم؛ أو ندّعي أن لها شعورًا بهذا الفناء؛ أو نعزو إليها عقلاً وإرادة حرة، ونحن نعلم أنها لن تستخدمهما قط. في مثل هذه الظروف، تبقى إرادة شجرة البلوط وعقلها بالضرورة في حكم المعدوم.

هناك علاقة طردية وثيقة بين الحركة والوعي، وهذا ما يميز الحيوان عن النبات، ولذلك – عند تناول تطور النفس – ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار كل ما يتصل بالحركة، فجميع مظاهر الحركة الجسدية تجبر النفس على النظر إلى المستقبل، واكتساب الخبرات، وتنمية الذاكرة، والاستعداد على نحو أفضل لمهام الحياة. وهكذا يمكننا الجزم منذ البداية بأن تطور النفس مرتبط بالحركة، وأن تطور الظواهر النفسية كافة مرهون بحركة الكائن الحي، فهذه الحركة تحفّز النشاط العقلي وتزيده كثافة على الدوام. تخيّل لو كانت جميع حركات الإنسان محددة سلفاً: لكانت حياته النفسية في حالة جمود كامل.

## وظيفة النفس

إذا نظرنا إلى وظيفة النفس من هذا المنظور، فسوف ندرك أننا بصدد دراسة تطور قدرة وراثية، أي عضو للهجوم والدفاع، يتفاعل بواسطته الكائن الحي مع المواقف التي يجد نفسه فيها، فالنشاط النفسي ليس إلا منظومة من الآليات الهجومية والدفاعية، غايتها النهائية ضمان استمرار وجود الكائن الحي وتمكينه من النمو بأمان، وإذا قبلنا بهذه المقدمة، فإنها تفضي إلى اعتبارات أخرى نراها ضرورية لتكوين مفهوم صحيح عن النفس، فلا يمكننا تصور النشاط النفسي في عزلة عن بيئته، بل ينبغي تصوره دائماً في علاقته بها، متلقياً المنبهات الخارجية ومجيباً عنها.

هذه المقدمة تثير عدة ملاحظات حول خصوصيات البشر، وبنيتهم الجسدية، وسماتهم الإيجابية والسلبية، فكلها مفاهيم نسبية تماماً، إذ لا وجود لمعايير موضوعية ثابتة للحكم على ما إذا كانت قدرة ما أو سمة جسدية تعد ميزة أم عيباً، إنما تتحدد هذه الأحكام فقط تبعاً للموقف الذي يواجهه الأفراد. فمن المعروف - على سبيل المثال - أن القدم البشرية هي - بمعنى ما - يد معدّلة، فإذا تعلق الأمر بحيوان مضطر إلى تسلق الأشجار، لا اعتُبرت القدم البشرية عيباً واضحاً، أما بالنسبة للإنسان، الذي يحتاج إلى المشي على الأرض المستوية، فإن هذه القدم مفيدة إلى درجة لا يُفضل معها أي إنسان أن يسير على "يد طبيعية" بدلاً من "قدم معدّلة".

وهكذا، يتبين أن ما يبدو عيباً في ذاته لا ينبغي أن يُعتبر مصدر شر على وجه الإطلاق. وحده السياق هو الذي يحدد ما إذا كان هذا العيب يُعد أصلاً ثميناً أم عبئاً ثقيلاً.

## هدفنا وتوجُّهنا نحو الغاية

أول ما نكتشفه عن أنفسنا هو أننا نسعى دائماً إلى غاية معينة، ولذلك لا يمكن النظر إلى النفس ككيان ثابت جامد، بل كمنظومة دينامية من القوى المتحركة والمتفاعلة، نشأت من أصل واحد وتتجه جميعها نحو غاية مشتركة. إن هذا الطابع الموجَّه نحو الغاية، أو التوجُّه نحو الهدف، هو الأساس الذي يقوم عليه مفهوم التكيّف، ولا يمكن تخيّل حياة نفسية بلا غاية تشدّ إليها جميع الجهود.

إن مسار حياتنا العقلية تحدده الغاية التي نتصورها، فلا يفكر الإنسان ولا يشعر ولا يتحدث ولا يحلم إلا في سياق يتأثر بهذه الغاية، ويوجَّه بها، ويُعدّل على ضوءها. وهذا ناتج عن ضرورة تكيف الكائن الحي مع بيئته واستجابته لمتطلباتها، فجميع الظواهر الجسدية والنفسية للحياة البشرية تستند إلى هذا المبدأ. ومن المستحيل أن نفهم التطور النفسي إلا بوصفه مسار موجَّه نحو هدف، يحدده بدوره منطق الحياة وديناميكيته. وقد يتغير شكل الهدف أو وسائله، لكنه في جوهره يظل دائماً حاضراً وموجَّهاً. ولهذا يمكن النظر إلى كل ما يظهر من تعبيراتنا النفسية باعتبارها استعدادات لمواجهة موقف مستقبلي، فالروح في جوهرها قوة تسعى نحو غاية، وهكذا ينظر علم النفس الفردي إلى جميع مظاهرها كما لو كانت موجَّهة بهذا الاتجاه.

إن معرفة هدف الفرد، ومعرفة شيء عن العالم الذي يعيش فيه، تمكّنا من فهم معنى سلوكه وتوجهاته واتجاه حياته، ومن خلال ذلك نستطيع أيضاً استبصار الخطوات التي يخطوها ليلبغ غايته – كما يمكن التنبؤ بمسار حجر يترك ليسقط – مع أن الإنسان، بخلاف الحجر، ليس محكوماً بقانون طبيعي ثابت، لأن غايته نفسها قابلة للتحويل والتبدّل، ومع ذلك، فإذا افترضنا أن لكل فرد هدفاً ثابتاً في جوهره، فإن جميع ميوله

النفسية ستنحو نحوه كما لو أنها تخضع لقانون عام. إنه قانون موجّه لحياتنا النفسية، لكنه ليس قانونًا طبيعيًا كالجاذبية، بل قانون من صنع الإنسان نفسه. ومن يتصور أن الظروف وحدها تفسر أفعاله، إنما يخدع نفسه بالمظاهر، فإذا شرع رسام في إنجاز لوحة، نسب العالم جميع أفعاله إلى هذا الهدف: تحضيره للألوان، جلوسه أمام القماش، حركاته المتكررة، وكل ذلك يبدو وكأنه نتيجة حتمية لقانون طبيعي. بينما الحقيقة أن ما دفعه إلى ذلك لم يكن قانونًا طبيعيًا، بل إرادته الحرة، وسعيه إلى غاية وضعها لنفسه.

وهنا يكمن الفرق الجوهرى بين الحركات الجسدية الصرفة وحركات النفس البشرية، فجميع المناقشات حول الحرية والإرادة تتوقف على هذه النقطة. صحيح أن الإرادة البشرية تفقد حرّيتها ما إن ترتبط بغاية محددة. ولأن هذه الغاية – في كثير من الأحيان – تتأثر بظروف العلاقات الكونية والجسدية والاجتماعية، يبدو لنا أحيانًا أن حياتنا محكومة بقوانين ثابتة لا فكاك منها، غير أن الإنسان قادر على تغيير غايته: قد يتمرد على المجتمع، أو يرفض التكيف مع حقائق الحياة، وعندئذ تُلغى القوانين التي كانت تبدو راسخة، ليظهر قانون جديد يفرضه الهدف الجديد. ولهذا فإن حركة حياتنا العقلية لا يمكن أن تحدث إلا حين نختار غاية نسعى إليها.

وعلى الجانب الآخر، يمكن استنتاج هدف الفرد من خلال ملاحظة أفعاله الراهنة. وهذه نقطة بالغة الأهمية، إذ إن قلة قليلة من الناس تدرك غايتها بوضوح. عمليًا، هذه هي الطريقة التي نتبعها إذا أردنا أن نفهم طبيعة البشر. ومع أن أفعالهم قد تحمل معاني متعددة، فإننا نستطيع – بجمع عدة أمثلة من سلوك شخص ما، ومقارنتها ورسمها بيانًا – أن نكتشف النمط العام الذي يوجّه حياته. وبذلك نحصل على صورة واضحة لحياته

النفسية، تشبه رسم منحنى يصل بين نقطتين تمثلان مواقف متباعدة زمنيًا لكنها تعبر عن التوجه نفسه.

ولنأخذ مثالاً: رجل في الثلاثين من عمره، عدواني المزاج، حقق نجاحًا وشهرة رغم طفولة صعبة، جاء إلى المعالج في حالة اكتئاب شديد، يشكو من فقدان الرغبة في العمل والحياة. وهو على وشك الخطوبة لكنه يعاني غير مرضية تدفعه للتفكير في فسخها. ولأن مبررات غيرته لا تبدو مقنعة، ولأن الفتاة بريئة من التهم التي يثيرها، فقد استدعت حالته مزيدًا من البحث. إنه من ذلك الصنف من الرجال الذين، كلما شعروا بالانجذاب نحو شخص آخر ورغبوا في التقرب منه، سرعان ما يبدون رد فعل عدوانيًا يدمر أي إمكانية لنشوء علاقة كانوا يتطلعون إليها. وعندما سُئل عن أقدم ذكرياته، روى حادثة تعود إلى الرابعة من عمره: كان مع أمه وأخيه الأصغر في سوق مزدحم، فحملته أمه أولاً، ثم وضعت له تحمل أخاه الأصغر، تاركة إياه حائرًا في الزحام. وعند استدعاء هذه الذكرى ظهرت المعاني نفسها التي لمسناها في مشكلته الراهنة: الخوف من فقدان المكانة الأولى، والقلق من أن يحل آخر محله. وما إن وُضعت هذه العلاقة أمامه حتى أدركها بدهشة بالغة. من هنا نستخلص أن الهدف النفسي الذي يسير نحوه كل إنسان يتحدد بالانطباعات والتأثيرات التي تفرضها بيئته منذ طفولته المبكرة. وغالبًا ما يتشكل مفهومه عن الحالة المثالية أو الغاية التي ينشدها في شهوره الأولى. ففي هذا العمر، تكفي انفعالات بسيطة من الفرح أو الحزن كي تضع لبنات أولى لفلسفة حياة بدائية. وعلى هذه الأسس يُبنى فيما بعد بناء نفسي يتعدل ويتشكل لكنه يحتفظ بجوهره. وهكذا يُرغم الطفل، تحت تأثير بيئته، على اتخاذ موقف محدد تجاه الحياة، وتتشكل طريقته الخاصة في مواجهة مشكلاتها.

وليس مخططاً تماماً من يعتقد أن ملامح الشخصية البالغة تظهر في الطفولة، لكن الخطأ هو تفسيرها على أنها وراثية خالصة، فافتراض أن الشخصية تُورث من الوالدين يضر بالعملية التربوية، لأنه يثبط عزيمة المربين ويتيح لهم التهرب من مسؤولياتهم بإلقاء اللوم على الوراثة في فشل أبنائهم، والحقيقة أن للتنشئة والثقافة والحضارة أثراً عميقاً في تكوين الهدف النفسي للإنسان، فهي ترسم له حدوداً وقواعد يضطر إلى تجاوزها ليحقق رغباته في أمان وتكيف مع الحياة، ومنذ وقت مبكر، يظهر ميل الأطفال إلى طلب الأمان الزائد، أي أكثر مما يلزم لبقائهم. ومن هذا الميل يتولد توجه جديد نحو السيطرة والتفوق.

وكما يسعى الكبار إلى التفوق على منافسيهم، يفعل الأطفال ذلك بدورهم، لكن إذا اشتدت متطلبات الحياة وفشل الطفل في الإحساس بقدرته على مواجهتها، فإنه يلجأ إلى الانسحاب والمراوغة، ويصوغ الأعذار، مما يكشف عن تعطش باطن للمجد والتفوق، وعندئذ يصبح هدفه المباشر هو تجنب الصعوبات بدل مواجهتها. لكن ينبغي أن ندرك أن الاستجابات النفسية ليست مطلقة أو نهائية، بل هي حلول مؤقتة، صالحة بقدر ما تخدم موقفاً معيناً، ومن ثم، فإن نمو الطفل يمثل دائماً مرحلة انتقالية نحو هدف أبعد. فعلى - عند دراسة سلوكه - أن ننظر إلى الحالة النهائية التي يتجه إليها، لا إلى المظاهر الجزئية فقط، فكل ما يعبر عنه من سلوكيات إنما يتجه نحو المثل الأعلى الذي صاغه لنفسه ليحقق من خلاله تكيفه المنشود مع الحياة.

لذلك ينبغي أن ننظر إلى الأمور بعيني الطفل نفسه إذا أردنا أن نفهم تصرفاته، فإذا كان متفائلاً تجاه الحياة واثقاً بقدرته على حل مشكلاته، نشأ منفتحاً وشجاعاً ومسؤولاً ومجتهداً. أما إذا افتقر إلى هذا الإيمان، بدا له العالم مكاناً مظلماً، فترسخت فيه سمات التشاؤم والخجل والانسحاب وعدم الثقة. في هذه الحال يظل هدفه بعيداً عن ساحة



المواجهة، كما لو كان يحتمي منها، لكنه يبقى حاضرًا كقوة توجه كل تعبيرات شخصيته نحو غاية بعيدة المنال.

## الجوانب الاجتماعية للحياة العقلية

لفهم طريقة تفكير أي إنسان، لا بد من دراسة علاقته بالآخرين، فالعلاقات بين البشر محكومة من جهة بقوانين الطبيعة، ما يجعلها قابلة للتغير، ومن جهة أخرى بالتقاليد والمؤسسات التي يتكرها المجتمع أو الأمة. ومن دون إدراك طبيعة هذه الروابط الاجتماعية، يستحيل أن نفهم عمل النفس البشرية وآلياتها.

## الحقيقة المطلقة

لا يمكن للنفس أن تعيش في عزلة تامة، فالمشكلات تبرز باستمرار، والحاجة إلى إيجاد حلول لها هي التي توجه مسار تطورها، وهذه المشكلات وثيقة الصلة بمنطق حياتنا الجماعية، إذ إن مطالب المجتمع تضغط على الفرد، وإن كان الأخير لا يسمح لنفسه عادة بالتأثر بها إلا جزئيًا. ومع ذلك، فإن الوضع الراهن لحياتنا المشتركة لا يمكن اعتباره نهائيًا أو ثابتًا، لأنه شديد التعقيد والتبدل. كما أن انغماسنا في علاقاتنا الخاصة يمنعنا من أن نضيء بما يكفي على مسألة النفس لفهمها في كليتها.

وأمام هذه المعضلة، لا سبيل أمامنا إلا أن نقبل منطق حياتنا الجماعية كما لو كان "حقيقة مطلقة"، أي كأمر قائم علينا أن نقرب منه تدريجيًا، مع تصحيح ما يتخلله من أخطاء وثغرات ناجمة عن قصور تنظيمنا الاجتماعي ومحدودية قدراتنا كبشر. ومن بين النقاط التي تستحق الانتباه، ما أشار إليه ماركس (Marx) و إنجلز (Engels) بشأن البنية المادية للمجتمع، حيث يحدد ذلك الأساس الاقتصادي أشكال الفكر والسلوك الأيديولوجي للأفراد. إن مفهومنا عن "منطق الحياة الجماعية" بوصفه "الحقيقة المطلقة"

هو إلى حد ما إقرار بهذه المعطيات، غير أن التاريخ - إلى جانب خبرتنا بعلم النفس الفردي - يبيّن لنا أن الأفراد قد يبدو أحياناً ردود فعل مضللة إزاء متطلبات النظام الاجتماعي-الاقتصادي. وفي سعيهم للتحايل عليه، قد يقع بعضهم في شبكة معقدة من ردود الأفعال الخاطئة. ومن ثم، فإن طريقنا نحو "الحقيقة المطلقة" لا بد أن يمرّ عبر تجاوز أخطاء لا تُحصى.

## الحاجة إلى الحياة الجماعية

قواعد الحياة المشتركة بديهية، شأنها شأن قوانين الطبيعة التي تفرض علينا التزامات محددة: فالبرد - مثلاً - يدفعنا إلى بناء المساكن اتقاءً له. إن نزوع الإنسان إلى الانتماء والعيش في جماعة يظهر في مؤسسات لا نحتاج إلى تفسير أشكالها تفسيراً كاملاً؛ ومن ذلك الدين، حيث تخلق العبادة الجماعية رابطاً يوحد أفراد المجتمع، وكما تحدد حقائق الكون شروط وجودنا، تنشأ شروط أخرى من الحياة الاجتماعية ذاتها ومن القوانين والأنظمة التي تنظمها. إن حاجات الجماعة تتحكم في جميع العلاقات الإنسانية، فالحياة المشتركة أسبق تاريخياً من الحياة الفردية؛ إذ لم يوجد في تاريخ الحضارة نمط حياة لم تُرسَ جذوره جماعياً. لم يتطور البشر كأفراد منعزلين، بل في جماعات، وهذا ما يسهل فهمه. ويثبت عالم الحيوان القاعدة الجوهرية بأن الأنواع التي يعجز أفرادها منفردين عن خوض صراع البقاء، تكتسب قوتها من حياة القطيع.

وقد أشار داروين منذ زمن بعيد إلى أن الكائنات الضعيفة لم تعش قط بصورة فردية. ونحن مضطرون لإدراج الإنسان بين هذه الكائنات الأضعف، إذ إنه عاجز عن مقاومة الطبيعة بمفرده. فمن دون أدوات، لن يكون بمقدوره سوى أضعف مقاومة لقوى البيئة. تخيل إنساناً وحيداً في غابة بدائية لا يملك سوى يديه العاريتين! سيكون أشد تعرضاً للخطر من

أي كائن آخر، فالإنسان كائن عامي التجهيز، لا يتميز بسرعة ولا بقوة، ولا يملك أنيابًا حادة، ولا بصيرًا نافذًا ولا سمعًا يقظًا ينبهه إلى الخطر، إنما يحتاج مجموعة كاملة من الوسائل الصناعية كي يستمر في الوجود.

من هنا نفهم أن بقاء البشر مشروط بوجود بيئة مناسبة، وهذه البيئة لا تتحقق إلا من خلال الحياة المشتركة. لقد أصبحت الجماعة ضرورة، لأنها وحدها – عبر تقسيم العمل الذي يخضع له كل فرد – تكفل استمرار النوع. وحده تقسيم العمل – أي الحضارة – هو الذي وفر للإنسان أدوات البقاء، ولم يستطع أن يثبت وجوده إلا بعد أن تعلم التعاون وتقسيم المهام. ويكفي أن نتأمل مشقة الولادة، وما يتطلبه بقاء الطفل من رعاية طويلة ومستمرة، لنذكر أن ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا حيث وُجد تقسيم للعمل. ويكفي أن نتذكر كمّ الأمراض والعلل التي يرثها الجسد البشري، ولا سيما في الطفولة، لنعرف حجم العناية اللازمة لكل حياة بشرية، ولنوقن أن الجماعة ضرورة لا غنى عنها، فالمجتمع هو الضمان الأكيد لاستمرار البشر.

## الأمن والتكيف

يُظهر لنا التأمل أن الإنسان – بالمقارنة مع سائر الكائنات – مخلوق أقل تجهيزًا للبقاء، هذا الشعور بالنقص وانعدام الأمن حاضر دائمًا في وعيه، ويمثل الدافع المستمر للبحث عن وسائل أفضل للتكيف مع شروط الحياة على الأرض، إنه الحافز الذي يدفعه إلى السعي وراء مواقف لا يبدو فيها أدنى منزلة من غيره في العالم الطبيعي.

لقد خدم الميل الفطري إلى الحياة الجماعية البشر على نحو خاص، إذ دعم أهم وسيلة امتلاكها للحماية من قسوة الطبيعة: العقل البشري. فهذا العقل – لا القرون أو المخالب أو الأنياب – هو الذي مكّن الإنسان من تعويض نقائصه الجسدية، ومنحه القدرة على

مواجهة الأخطار والتغلب على الصعوبات، لقد غدّى الشعور الدائم بالنقص ملكات التبصر والتوقع وتجنب الخطر، وكان وراء تطور العقل إلى صورته الراهنة كأداة للتفكير والشعور والفعل، ومنذ البداية كان على العقل أن يعمل في إطار المجتمع، فالحياة الجماعية هي شرط تكيفه، ومنها استمدت جميع ملكاته نمط تطورها على قاعدة واحدة: منطق الحياة المشتركة.

ولا ريب أن المرحلة التالية في تطور القدرات العقلية كانت تشكل المفاهيم المنطقية، التي تركز على صلاحيتها العامة، فما هو نافع للجميع هو وحده ما يمكن وصفه بالمنطقي. ومن هنا جاءت اللغة – هذه الأعجوبة التي تميّز البشر عن سائر الكائنات – كأداة حيوية للحياة الجماعية. فهي في أصلها نتاج اجتماعي محض، ولا معنى لها في عزلة الفرد، فالكلام لا يصبح ممكناً إلا حين يكون الاتصال بالآخرين قائماً وراسخاً، ولذا نجد أن من نشؤوا في ظروف حالت دون التواصل يعانون من عجز أو ضعف في اللغة، وقد لا يتمكنون أبداً من اكتساب ملكة تعلم اللغات.

وتكمن أهمية الكلام في أنه الشرط الأساسي للتفكير المنظم، إذ بواسطته تُبنى المفاهيم وتُحدّد القيم وتُضبط الفروق بينها، وما لم نُسلّم بأن أفكارنا ومشاعرنا جزء من نسيج مشترك لا يخصصنا وحدنا، فلن يكون لها معنى يُدرّكه الآخرون. إن سعادتنا بالجمال مثلاً تقوم على وعي بأن هذا الإحساس مفهوم ومشارك بين الناس. وبناءً على ذلك، فإن العقل والفهم والمنطق والأخلاق والجماليات ليست شؤوناً فردية معزولة، بل هي ظواهر اجتماعية في جوهرها، روابط تربط الأفراد وتكفل استمرار الحضارة.

## الشعور الاجتماعي

يمكننا أن ندرك الآن أن كل القواعد التي تهدف إلى ضمان بقاء البشرية - من قوانين وتشريعات، ومحرمات ورموز مقدسة، وخرافات وتعليم - لا بد أن تخضع لمفهوم الجماعة وتتلاءم معه (وقد أشرنا سابقًا إلى هذا في سياق الدين)، فالتكيف مع الجماعة هو الوظيفة النفسية الأهم، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، وما نسميه عدلاً أو استقامة، ونعده أسمى ما في الطبيعة الإنسانية، ليس في جوهره سوى استيفاء لمطالب تفرضها الحاجة الاجتماعية للبشرية، هذه المطالب هي التي تصوغ الروح وتوجه نشاطها. فالمسؤولية، والولاء، والصراحة، وحب الحقيقة، وما شابهها من فضائل، لم تُبنَ إلا على أساس مبدأ الحياة الجماعية الشامل، ولم تُحفظ إلا به، فلا يمكن الحكم على شخصية ما بأنها "جيدة" أو "سيئة" إلا في ضوء المجتمع. والإنجازات الفردية - في العلم أو السياسة أو الفنون - لا تُعد ذات قيمة إلا عندما تُثبت نفعها العام. ومن هنا، فإن معيار تقييم الأفراد يتحدد بمقدار ما يقدمونه للإنسانية جمعاء.

نقارن إذن بين من يحملون صورة مثالية للإنسان - أولئك الذين يؤدون مهامهم ويتغلبون على صعوباتهم بطرق نافعة للمجتمع - وبين من نموا شعورًا اجتماعيًا عميقًا. وكما قال زميلنا كارل فورتمولر (Karl Fortmüller): «هؤلاء يلعبون لعبة الحياة وفقًا لقوانين المجتمع».

وسيظهر لنا في سياق أبحاثنا أن أي فرد لا يستطيع أن ينمو نموًا سليمًا إلا إذا نمى في داخله شعورًا راسخًا بالانتماء إلى الإنسانية، ومارس فن أن يكون إنسانًا بحق.

## الطفل والمجتمع

للمجتمع أساس طبيعي لا يمكن الاستغناء عنه، ويلتقي الفرد بالمجتمع منذ البداية في حقيقة أن الجنس البشري يتكون من ذكر وأنثى، ومن هذه الشراكة تنشأ أول خلية اجتماعية، ففيها يُشبع دافع الحياة، ويُكتسب الأمان، وتُبنى السعادة. وإذا تأملنا التطور الطويل للطفل، وجدنا أن الحياة البشرية لا يمكن أن تنمو من دون حماية المجتمع. وهكذا تفرض التزامات الحياة المختلفة تقسيمًا للعمل، لا يعزل البشر عن بعضهم، بل يربطهم ويشدهم معًا، فيجب على كل فرد أن يساعد الآخر، ويشعر بالانتماء إلى زملائه، وهنا تتشكل البدايات الأولى للعلاقات الشخصية.

إن جميع الأطفال – في اعتمادهم على مساعدة المجتمع – يواجهون منذ البداية عالمًا يُطالبهم بالتكيف ويكافئهم في الوقت نفسه بإشباع حاجاتهم الأساسية، ومن تجارب الطفولة المبكرة، تتكوّن الملامح الأولى لنفسيتهم، إذ يتعلمون كيف يقيّمون المواقف بحيث يحققون أكبر إشباع بأقل قدر من الإحباط. من هنا، يكتشف الطفل أن القوة شرط للنجاح، ويتعلم أن الحجم والقوة ضروريان لفتح الأبواب أو نقل الأشياء، وأن الكبار يملكون حق إصدار الأوامر. فينشأ لديه دافع للنمو والتفوق على الآخرين، وقد يسلك الطفل طريقًا آخر، فيلجأ إلى إظهار ضعفه كوسيلة لا مفر منها للحصول على المساعدة. هذان الاتجاهان – طريق القوة أو طريق استغلال الضعف – يشكلان منذ البدء تفرعًا في الميول النفسية للأطفال.

وهكذا تبدأ أنماط الشخصية في التشكل، بعض الأطفال يتجهون نحو القوة والشجاعة وتأكيد الذات، فيما يسعى آخرون إلى المبالغة في ضعفهم. وما من سبيل لفهم هذه الأنماط إلا بردها إلى البيئة التي نشأت فيها، فالنقص أو العجز، سواء أكان جسديًا أو

نتاج مطالب أسرية غير واقعية أو بيئة متشائمة، يطبع استجابة الطفل ويحدد كيف يرى العالم. ومن هنا يصبح التعويض عن النقص هو المحرك الأكبر لنمو الشخصية، إذ تُولد من شعور النقص آلاف القدرات والمهارات.

## تأثير العوائق

حين نتأمل العقبات التي تحيط بالأطفال من جميع الجهات، لن يكون من المستغرب أن تأتي استجاباتهم غير ملائمة دائماً، فطرق تفكيرهم لم يكتمل نضجها بعد، وهم مضطرون إلى التوافق مع قوانين ثابتة للواقع في وقت لم تتطور فيه قدرتهم على التكيف. وبالنسبة للطفل، فالحياة سلسلة طويلة من التجارب، وخلف كل رد فعل غير سليم نجد سلسلة متكررة من المحاولات النفسية للتماشي مع البيئة والمضي قدماً في الحياة، وتصبح استجابات المراهقين لمواقف محددة ذات قيمة خاصة، لأنها تكشف لنا عن ملامح نمط شخصيتهم، لكن يجب أن نتذكر أن استجابات الأفراد، شأنها شأن استجابات المجتمع، لا تُقاس على نمط ثابت أو معيار جامد.

غالبًا ما تؤدي العقبات التي تواجه الأطفال إلى إعاقة أو تشويه في نمو شعورهم الاجتماعي. ويمكن تقسيم هذه العقبات إلى نوعين رئيسيين: الأول يرتبط بالبيئة المادية والاجتماعية، مثل الظروف الاقتصادية أو الأسرية أو العرقية غير الملائمة؛ والثاني يرتبط بالضعف الجسدي أو قصور بعض الوظائف. وفي مجتمعاتنا، حيث يُنظر إلى الصحة والكفاية معيارًا أساسيًا، يجد الأطفال الذين يعانون عيوبًا جسدية بارزة أنفسهم في موقع غير ملائم لمجابهة مشكلات الحياة. فالأطفال الذين يتأخرون في المشي أو في الكلام، أو يعانون من بطء في النمو الحركي والعقلي، أو الذين يظهرون خرقًا متكررًا في حركاتهم، يعيشون عادةً تحت وطأة هذا القصور البدني والنفسي، وغالبًا ما يواجهون قلة من

التعاطف من محيط لم يُصمم ليتلاءم مع احتياجاتهم الخاصة، هذه المعاناة قد تُخلف لديهم إحساسًا مبكرًا بالعجز واليأس، ما لم يُعالج بطريقة حكيمة.

أضف إلى ذلك أن صعوبة الظروف الاقتصادية قد تضاعف من هذه الآثار السلبية، فقوانين المجتمع تبدو كتابًا مغلقًا أمام الأطفال غير المهيين، فيراقبون الآخرين وهم ينجحون بينما هم يشعرون بالعجز، فيميلون إلى العزلة وتجنب مسؤولياتهم، وسرعان ما تنشأ لديهم نظرة متشائمة وعدائية للحياة، ويُضخّمون جوانبها المؤلمة أكثر من جوانبها الإيجابية، ليصبح سلوكهم ميالًا إلى الحذر المفرط والانسحاب من الحياة الواقعية، فلا ينجحون في النهاية إلا في خلق صعوبات جديدة لأنفسهم. وقد تأتي العوائق من التربية أيضًا، خصوصًا عندما يحرم الوالدان أبناءهم من الحنان الطبيعي، فالأطفال الذين ينشؤون في بيئة باردة عاطفيًا، يجدون - لاحقًا - صعوبة في إدراك الحب أو التعبير عنه، وإن تربوا في بيت خالٍ من المودة أو استهزأ فيه الكبار بمشاعر الحنان واعتبروها ضعفًا، فسيتعلم الطفل أن يُخفي عاطفته ويتعامل معها وكأنها أداة إذلال، أما الأطفال الذين يُسخر منهم باستمرار، فيتولد لديهم خوف عميق من إظهار أي مشاعر حقيقية. هكذا تنشأ حواجز مبكرة أمام قدرتهم على الحب والتواصل الوجداني.

وفي المقابل، قد يكون الإفراط في الحنان والدلال ضارًا بقدر البرود العاطفي، فالطفل المدلل يُطور شهية لا تشبع للانتباه، ويربط المودة بالتمكن من السيطرة على الآخرين، فيستخدم عاطفته كوسيلة ضغط: "لأنني أحبكم، عليكم أن تفعلوا ما أريد". ومع الوقت، تتحول حياته إلى صراع دائم من أجل الحفاظ على رضا الآخرين والاستئثار باهتمامهم، مستخدمًا شتى الأساليب؛ فقد يتعمد إثارة المشاكل، أو يسعى إلى الكمال والفضيلة الظاهرة لنيل الإعجاب.



وينطبق الأمر أيضًا على الأطفال الذين لم يُواجهوا أي صعوبة تُذكر في طفولتهم، إذ لم يُمنحوا فرصة لاختبار قدراتهم أو تحمّل المسؤولية، هؤلاء حين يخرجون من "بيت الدفء" الذي حماهم من كل صعوبة، يجدون أنفسهم عاجزين عن مواجهة الواقع، فيصطدمون بخيبات أمل قاسية. كل هذه الأوضاع تشترك في أنها تميل إلى عزل الطفل عن الآخرين، فالطفل الذي يعاني مرضًا مزمنًا في الهضم، أو عيبًا في أحد الأعضاء، أو تنشئة صارمة تخلو من التفهم، يتبنى غالبًا موقفًا عدائيًا أو انسحابيًا من الحياة، حيث يرى العالم مكانًا خطيرًا أو معاديًا، فيبالغ في الحذر ويتجنب المواجهة. ونتيجة لذلك، يصبح شغله الشاغل حماية نفسه بدلًا من الانخراط في مهام الحياة الحقيقية.

السمة المشتركة لكل هؤلاء الأطفال هي ضعف نمو شعورهم الاجتماعي، وتركيزهم الزائد على ذواتهم، وهذا يقودهم تدريجيًا إلى رؤية تشاؤمية للعالم، تجعل من الصعب عليهم أن يعيشوا حياة سعيدة أو مُرضية ما لم ينجحوا في تغيير أنماط سلوكهم الخاطئة.

## الفرد ككائن اجتماعي

لقد أوضحنا في الفصل الثاني أن شخصية الفرد لا يمكن فهمها إلا في إطار بيئته الاجتماعية، من خلال تقدير موقعه في العالم وموقفه من مشكلاته، مثل تحديات العمل، والصدقة، والتعاملات اليومية مع الآخرين. ومن هذا المنطلق، يتضح أن الانطباعات المتراكمة منذ الطفولة المبكرة تؤثر في موقف الإنسان من الحياة كلها، بل يمكن تبين اتجاه الطفل نحو الحياة بعد أشهر قليلة من ولادته، إذ يظهر كل طفل أنماطًا سلوكية خاصة به، سرعان ما تزداد وضوحًا مع نموه، ولا نجد عمليًا خروجًا عن هذا النمط.

إن عقول الأطفال تتشرب علاقاتهم الاجتماعية شيئًا فشيئًا، ويبرز أول دليل على وجود شعور اجتماعي فطري في ميلهم المبكر إلى طلب المودة والاقتراب من الكبار، فحب الأطفال يتجه أساسًا إلى الآخرين، لا إلى أجسادهم كما افترض فرويد، وتختلف قوة هذا الميل وطريقة التعبير عنه من طفل لآخر، وقد يظهر ذلك بجلاء منذ العامين الأولين. ولا يفقد الأطفال هذا الشعور الاجتماعي الراسخ إلا في حالات الانهيار النفسي الحاد، فهو يبقى حاضرًا في حياة الإنسان، لكنه يختلف من شخص لآخر: فقد يكون محدودًا وضيقًا في بعض الحالات، أو واسعًا وشاملاً في حالات أخرى، ممتدًا من نطاق الأسرة الصغيرة إلى العائلة الكبيرة، ثم إلى الأمة، وأخيرًا إلى البشرية جمعاء، بل قد يتجاوز ذلك ليشمل الكائنات الحية كلها، والنباتات، وحتى الأشياء الجامدة والكون بأسره.

ومن خلال ما تكشفه أبحاثنا، يتضح أن التعامل مع الإنسان باعتباره كائنًا اجتماعيًا ضرورة لا غنى عنها، وحين ندرك هذه الحقيقة، نكون قد قطعنا شوطًا كبيرًا نحو فهم السلوك البشري.

## العالم الذي نعيش فيه

### عالمنا العقلي

لأن كل إنسان مُلزم بالتكيف مع بيئته، فإن نفسيته قادرة على استيعاب انطباعات متعددة من العالم الخارجي، غير أن هذه النفس لا تكتفي بالاستقبال السلبي، بل تسعى في الوقت نفسه إلى هدف محدد تبعًا لتفسيرها الخاص للعالم، وبالاستناد إلى نمط سلوكي مثالي يتجذر في الطفولة المبكرة. ومع أننا لا نستطيع أن نعرّف هذا التفسير الكوني أو ذلك الهدف بدقة تامة، إلا أنه يمكننا أن نصفه بأنه هالة دائمة الحضور، تتناقض دومًا مع مشاعر النقص الكامنة في الفرد. ولا يحدث أي تطور نفسي إلا في إطار هذا الهدف

الشخصي. فبناء الهدف يفترض بالضرورة وجود قابلية للتغيير وحرية معينة في الحركة، ومن الخطأ أن يُستهان بالقيمة الروحية التي يولدها شعور الإنسان بحرية الحركة. فعندما يقف الطفل لأول مرة دون مساعدة، يدخل عالمًا جديدًا كليًا، وفي تلك اللحظة يكتشف بصورة مبهمة جواً معاديًا من حوله، ويجد نفسه، في محاولاته الأولى للحركة – ولا سيما عند الوقوف والمشي – أمام درجات متفاوتة من الصعوبة، قد تعزز ثقته وأمله في المستقبل، أو قد تقضي عليهما معًا. والانطباعات التي قد يراها الكبار عابرة أو لا تُذكر، قد تترك في نفسية الطفل أثرًا هائلًا يشكل نظرتَه الكاملة إلى العالم الذي يعيش فيه.

هكذا، بيني الأطفال الذين يعانون صعوبات في الحركة نموذجًا مثاليًا لأنفسهم، نموذجًا يتسم بالقوة والسرعة، ويمكننا أن نلمس هذا التطوع من خلال ألعابهم المفضلة أو أحلامهم بما يرغبون أن يصيروا عليه عندما يكبرون، إذ نجدهم غالبًا يتمنون أن يصبحوا سائقي سباقات أو سائقي محركات، في إشارة واضحة إلى توقعهم للتغلب على كل عائق يحدّ من حريتهم في الحركة. وكذلك الطفل الذي يولد ضعيف البصر يسعى إلى إعادة صياغة العالم كله في صورة أوضح وأقرب إلى رؤيته، والطفل الذي يعاني ضعف السمع يتجه شغوفًا إلى عالم الأصوات، باحثًا عن نغمة أو إيقاع، حتى يصبح في الغالب موسيقيًا.

ومن بين جميع الأدوات التي يفتحم بها الأطفال العالم، تلعب الحواس الدور الأهم في تحديد صلتهم الجوهرية به. ومن بينها تحتل العين مكان الصدارة، لأنها أكثر ما يفرض نفسه على انتباه الإنسان ويغذيه بالبيانات الأساسية لتجربته، فالعالم المرئي يتميز بكونه ثابتًا نسبيًا، على عكس بقية الحواس كالسمع والشم والذوق واللمس، التي لا تُدرك إلا منبهات عابرة ومؤقتة. ومع ذلك، ثمة أفراد تكون الأذن لديهم العضو السائد، فيبنون

رصيدهم من المعرفة على أساس ما يصلهم من بيانات صوتية، وعندئذ يمكن القول إن نمطهم النفسي يغلب عليه الطابع السمعي. وفي حالات نادرة، نجد أفرادًا يغلب عليهم الاهتمام بحوافز الشم أو التذوق، وهذه الفئة، وخاصة الأكثر حساسية للشم، تعاني من وضع غير مؤاتٍ في إطار حضارتنا المعاصرة. وهناك أيضًا من يلعب جهازهم العضلي الدور الأبرز، فيقبلون على الحياة بقلق ظاهر يدفعهم إلى حركة لا تهدأ في طفولتهم، ويتحول لاحقًا إلى نشاط مفرط في مرحلة النضج. هؤلاء لا يكادون يهتمون إلا بما تبرزه العضلات من عمل، حتى في نومهم تظهر آثار قلقهم في كثرة تقلبهم واضطرابهم، ومن هذه الفئة يمكن تصنيف الأطفال "المضطربين" الذين يُنظر إلى قلقهم غالبًا بوصفه أمرًا سلبيًا.

وبوجه عام، نستطيع أن نقول إن كل طفل تقريبًا يقارب العالم من خلال عضو أو مجموعة أعضاء أكثر حساسية من سواها، سواء كانت حواسًا أو عضلات، وأنه يبنى صورته الكونية الخاصة بالاستناد إلى الانطباعات التي يلتقطها عبر هذا العضو المهيمن. ولهذا لا يمكننا أن نفهم الإنسان إلا إذا عرفنا أي عضو من أعضائه الحسية أو الحركية هو الذي يلون نظرتَه إلى العالم، فجميع علاقاته وطرائق استجابته مشروطة بهذه الحقيقة. وما لم ندرك أثر العيوب العضوية في تشكيل رؤيته للعالم في طفولته، ومن ثم في نموه اللاحق، فلن نستطيع أن نفسر أفعاله وردود أفعاله تفسيرًا صائبًا.

### الطريقة التي نرى بها العالم

إن الهدف النفسي الدائم الذي يوجه أنشطة الإنسان جميعها لا يقتصر أثره على السلوك الخارجي أو القرارات الظاهرة، بل يمتد ليؤثر في اختيار القدرات النفسية الخاصة التي يستخدمها الفرد، وفي شدتها، وفي الكيفية التي تمنح بها معنى لتصورنا للعالم من

حولنا؛ ومن هنا نفهم لماذا يمر كل إنسان بمرحلة معينة من حياته أو يحدث محدد أو حتى بالعالم بأسره كما لو كان ذلك كله انعكاسًا لهدفه الداخلي الخاص. فكل واحد منا يتجاهل الكثير من تفاصيل الحياة، ولا يحتفظ إلا بما يخدم غايته، ولذلك يستحيل فهم سلوك أي إنسان فهمًا كاملاً من دون الوقوف على الهدف الذي يسعى إليه، إذ إن كل تعبير من تعبيراته يتلون بتأثير هذا الهدف.

تدخل المحفزات والانطباعات من البيئة الخارجية عبر الحواس إلى الدماغ، حيث تبقى آثارها لتشكل المادة الأولية لعالم الخيال والذاكرة. ومع ذلك فالإدراك ليس تصويرًا فوتوغرافيًا آليًا للواقع، بل هو مشبع بطابع الفرد المميز، فلا أحد يدرك الصورة كما هي تمامًا، بل يختار منها ما يتناسب مع ذاته. ولهذا فإن شخصين ينظران إلى المنظر نفسه يقدمان روايتين مختلفتين كليًا. الأمر أوضح عند الأطفال، إذ لا يدركون من بيئتهم إلا العناصر التي تتفق مع أسلوب حياتهم أو مع النمط السلوكي الذي بدأ يتشكل لديهم؛ فالطفل البصري الطابع يملأ عالمه بالصور المرئية، بينما يطغى الطابع السمعي عند آخر، والخيال بدوره يعيد صياغة هذا الإدراك في هيئة جديدة، ليست نسخة عن الماضي فحسب، بل إبداع فريد قد يؤثر في الحياة كما لو كان حقيقة واقعة.

الذاكرة أيضًا لا تخلو من هذا التوجيه؛ فهي انتقائية بطبيعتها، تحفظ ما يخدم الهدف النفسي وتنسى ما يعرقله. فلا توجد ذكرى عشوائية أو بلا مغزى، بل لكل ذكرى وظيفة، حتى وإن بقيت مشوهة أو ناقصة أو خرجت من نطاق الوعي لتعود لاحقًا في هيئة موقف أو نبرة عاطفية أو فلسفة شخصية. ولعلنا هنا ندرك كيف تخضع ملكات الإنسان جميعها – من إدراك وخيال وذاكرة – لقانون التكيف الهادف.

أما الخيال، فهو أوضح مجال تظهر فيه فردية الإنسان، لأنه ليس مجرد إعادة إنتاج للإدراك السابق، بل هو إعادة تركيب وإبداع جديد ينبع من القدرة الخلاقة للنفس. وفي بعض الحالات، قد يشتد الخيال إلى درجة يتجاوز فيها حدود الصور الذهنية العادية ليأخذ هيئة واقعية تكاد تُحسّ كما لو كانت حاضرة أمام الحواس، وهنا يتحول إلى هلوسة.

والهلوسة، في جوهرها، لا تختلف عن أحلام اليقظة، غير أنها تتميز بسطوع الصورة ووضوحها وقوة أثرها على السلوك. فهي تعبير فني للنفس، مُصاغ وفقاً لغايات الفرد، كما نرى في قصة الشابة التي تمردت على والديها وتزوجت رغماً عنهما، ثم انقطعت صلتها بهما، فبدأت تتعرض لهلاوس رأت فيها العذراء مريم تزورها وتبشرها بأنها ستموت في منتصف ديسمبر. لم يكن الأمر سوى إسقاط نفسي لحاجتها إلى أم بديلة تعوضها عن قسوة أمها، ولرغبتها في إثبات خطأ والديها. حتى اختيار الزمن – منتصف ديسمبر، وقت الدفء العائلي والمصالحة – لم يكن اعتباطياً.

وتتجلى الظاهرة نفسها في حالة الرجل الذي أضعفه إدمان الكحول، فلما تعافى منه وجد نفسه في وضع أسوأ، بلا عزاء ولا أعذار، فظهرت له هلوسات متكررة لرجل يطارده. ولم تكن هذه سوى وسيلة ليوهم نفسه أن إخفاقاته لا تعود إلى عجزه الذاتي بل إلى قوة خارجية، وبذلك يحافظ على تقديره لذاته.

وهكذا، يتضح أن الهلوسة، شأنها شأن الوهم والأحلام، آلية من آليات الخيال البشري، تظهر حين يبلغ الضغط النفسي ذروته ويبدو الهدف مهدداً بالضياع. هي حيلة تنقذ النفس من الإحباط، ودواء مؤقت يخفف وطأة العجز، لكنها في الوقت نفسه تكشف

عن جوهر الخيال الإنساني: أنه قوة خلاقية، تُعيد صياغة العالم بما يتفق مع حاجة الفرد إلى التكيف وحماية ذاته.

## جوانب من عدم الواقعية

إن الخيال ليس سوى قدرة إبداعية أخرى من قدرات النفس، وقد رأينا آثاره في الظواهر التي سبق أن وصفناها، سواء في إسقاط ذكريات معينة على بؤرة الوعي الحادة أو في بناء هياكل خيالية غير مألوفة؛ فهو، إلى جانب أحلام اليقظة، يمثل جزءاً أصيلاً من النشاط الإبداعي للنفس. والخيال، من جهة أخرى، وثيق الصلة بقدرتنا على التنبؤ والحكم المسبق، وهي القدرة الأساسية التي لا يستغني عنها أي كائن حي قادر على الحركة، إذ إنه، في جوهره، ليس إلا وسيلة للاستشراف والمضي إلى الأمام.

إن خيالات الأطفال والبالغين - والتي يُطلق عليها أحياناً أحلام اليقظة - تشغل على الدوام بالمستقبل، فهي بمثابة "قصور معلقة" يشيدها الخيال كنماذج يختبر من خلالها الفرد نشاطه الحقيقي. وتُظهر الدراسات التي تناولت خيالات الطفولة بوضوح أن السعي وراء السلطة يحتل فيها المكانة المهيمنة؛ فالأطفال يعبرون عن طموحاتهم في أحلام اليقظة، وغالباً ما يبدأونها بعبارات مثل: "عندما أكبر..."، وكأنهم يعيشون حاضرهم وهم مشدودون دوماً إلى أفق لم يتحقق بعد. بل إن كثيراً من الكبار يواصلون حياتهم كما لو أنهم لم يتجاوزوا هذه المرحلة الطفولية قط. هذا التركيز على السلطة يشير مجدداً إلى أن النفس لا تنمو إلا حين تُحدد لنفسها هدفاً، وهو في حضارتنا لا ينفصل عن الحاجة إلى الاعتراف الاجتماعي والشعور بالأهمية. ومن الطبيعي أن لا يبقى الإنسان طويلاً مع هدف محايد، إذ إن الحياة الجماعية للبشر تولد باستمرار شعوراً بالتقييم الذاتي يدفع إلى التنافس، ويشعل الرغبة في التفوق والأمل في النجاح. لهذا السبب، كثيراً ما نرى خيالات

الأطفال تتضمن مواقف يسيطرون فيها على الآخرين أو يفرضون سلطتهم عليهم. ومع ذلك، لا يجوز أن نعمم الأحكام أو نفترض قواعد ثابتة لمدى الخيال أو درجته، فهناك أطفال عدوانيو الطبع تتطور ملكاتهم الخيالية بقوة لأنهم يعيشون في مواجهة مستمرة مع الآخرين فيسعون لحماية أنفسهم، بينما الأطفال الضعفاء أو الذين تفتقر حياتهم إلى المتعة كثيرًا ما ينسحبون إلى عوالم داخلية غنية بالخيال، حتى يصبح خيالهم في مرحلة معينة وسيلة للهروب من قسوة الواقع. وفي مثل هذه الحالات، قد يُساء استخدام الخيال فيتحول إلى ما يشبه سجادة سحرية يعلو بها الفرد فوق دناءة الحياة، ويتعد من خلالها عن مواجهة مشكلاته.

لكن الخيال لا يتغذى على السعي وراء القوة وحده، إذ يلعب الشعور الاجتماعي أيضًا دورًا مهمًا في تشكيل عوالمنا الخيالية. ففي كثير من خيالات الطفولة، يظهر السعي وراء السلطة مترافقًا مع توظيفها لأغراض اجتماعية؛ فنرى الطفل في أحلامه منقذًا أو محاربًا ينتصر على قوى الشر، أو فارسًا يرفع الظلم عن الآخرين. ومن الخيالات الشائعة أيضًا بين الأطفال ذلك التصور بأنهم لا ينتمون إلى أسرهم الحقيقية، بل إلى عائلات أخرى أرفع شأنًا وأكثر مكانة، وأن والديهم "الحقيقيين" سيأتون يومًا ما ليأخذوهم، وهو خيال كثيرًا ما يظهر عند الأطفال الذين يعانون شعورًا عميقًا بالنقص أو بالحرمان من العاطفة، أو أولئك الذين يُجبرون على البقاء في الظل داخل أسرهم. وفي السياق نفسه تظهر أوهام العظمة في سلوكيات مألوفة، كتصرف بعض الأولاد وكأنهم رجال ناضجون، أو رغبتهم في استخدام أدوات الحلاقة الخاصة بأبائهم، أو محاكاة البنات الصغيرات لمظاهر الصبية في سلوكهن وملابسهن.

أما القول بوجود أطفال يفتقرون إلى الخيال تمامًا فهو خطأ مؤكد؛ فإما أنهم لا يجيدون التعبير عن خيالاتهم، أو أن ثمة أسبابًا تجعلهم يكبحونها عمدًا. وقد يجد بعضهم شعورًا



بالقوة في كبت خيالهم، إذ يظنون، في سعيهم للتكيف مع عالم الكبار، أن الانغماس في الخيال أمر طفولي، فيتخذون موقفاً رافضاً له، حتى يبدو أحياناً وكأنهم لا يملكون خيالاً على الإطلاق.

## الأحلام: اعتبارات عامة

وإذا انتقلنا من أحلام اليقظة إلى أحلام الليل، فإننا في الجوهر نتعامل مع العملية نفسها وإن اختلفت صورها. فالحلم الليلي – الذي طالما شغل الفكر البشري منذ أقدم العصور – ليس سوى استمرار لذلك النشاط النفسي الذي يرسم للفرد خريطة المستقبل، ويخطط لحياته، ويوجهها نحو هدف الأمان. الفرق أن أحلام اليقظة يسهل عادةً فهمها وربطها بالواقع، بينما تبقى أحلام النوم عصيةً على الفهم في معظم الأحيان، حتى ليغدو غموضها سبباً في التقليل من شأنها أو اعتبارها بلا قيمة. غير أن التأمل يكشف أنها تحمل، مثل غيرها من أشكال النشاط الخيالي، أصداء واضحة لسعي الإنسان الدائم إلى السلطة، ورغبته في التغلب على الصعوبات والحفاظ على مكانته في مواجهة المستقبل. وهكذا تمنحنا الأحلام، بما تحتويه من رموز وأحداث وصور، نافذة ثمينة لفهم المشكلات العاطفية التي يواجهها الإنسان في حياته.

## التعاطف والتماهي

إن للنفس الإنسانية قدرةً لا تقتصر على إدراك ما هو حاضر بالفعل، بل تمتد إلى تخمين ما قد يحدث في المستقبل أو استشعاره، وهذه القدرة تسهم إسهاماً أساسياً في وظيفة الاستشراف التي تُعدّ شرطاً لا غنى عنه لأي كائن حي قادر على الحركة، إذ يواجه هذا الكائن على الدوام مشكلة التكيف مع الظروف المتغيرة. وترتبط هذه القدرة ارتباطاً وثيقاً بقوة التماهي أو التعاطف، وهي ملكة متطورة على نحو استثنائي لدى الإنسان، حتى إن

أثرها يتسع ليشمل جميع أركان النفس البشرية، ويغدو الاستشراق هو الأساس الذي تقوم عليه. فإذا كان مطلوبًا من الإنسان أن يُصدر حكمًا مسبقًا أو أن يتنبأ بكيفية التصرف في موقف جديد، فإن عليه أن يتعلم كيف يُكوّن حكمًا سليمًا عبر الجمع بين تفكيره ومشاعره وإدراكه، وأن يجد وجهة نظر تمكّنه من مواجهة الموقف بجهد أكبر أو تفاديه بحذر أعظم.

يتجلى التعاطف أوضح ما يكون في لحظة التواصل مع الآخر، إذ يستحيل فهم إنسانٍ دون القدرة على التماهي معه في الوقت ذاته. ولعل الفن الدرامي هو التعبير الأجلّ عن هذه القدرة، فبفضل براعة الكاتب المسرحي نستطيع أن نتماهى مع شخصيات العمل، فنعيش صراعاتها وأحلامها وكأنها جزءٌ من ذواتنا، ونؤدي أدوارًا متنوعة داخل أنفسنا. والأمر نفسه نلاحظه في حياتنا اليومية، حين نشعر بعدم ارتياح غامض ونحن نرى إنسانًا آخر يتعرض لخطر ما؛ قد يكون هذا الشعور قويًا إلى الحد الذي يجعلنا نقوم بحركات لا إرادية دفاعًا عن النفس رغم علمنا بعدم وجود خطر يتهددنا، مثل الحركات المفاجئة التي يقوم بها الحاضرون عندما يسقط أحدهم كأسًا من يده. ونرى الأمر أيضًا في صالات البولينغ حيث يتابع اللاعبون مسار الكرة بأجسادهم كما لو كانوا يريدون التأثير عليها، أو في ملاعب كرة القدم حين يندفع جمهور بأكمله مع حركة فريقه المفضل، أو في السيارات حين يضغط الركاب بأقدامهم على "مكابح وهمية" كلما شعروا بالخطر، وحتى عندما يفقد متحدثٌ خيط حديثه ويعجز عن مواصلة الكلام، فإن الحضور يشعرون بالحرَج كأن العجز أصابهم هم. حياتنا إذن مشبعة بهذه القدرة على التماهي.

وإذا تأملنا أصل هذه الظاهرة، وجدنا أنها تعبير عن التعاطف الفطري الذي يربط كل إنسان بسواه، وهو شعور عالمي يعكس وحدة الوجود التي ننتمي إليها جميعًا، ويمثل

سمة لا تنفصل عن الطبيعة البشرية، إذ يمنحنا إمكانية وضع أنفسنا في أماكن لم نختبرها شخصيًا، ورؤية العالم بعيون غيرنا.

وكما تختلف درجات الشعور الاجتماعي أو روح الجماعة من شخص إلى آخر، تختلف كذلك درجات التعاطف. ويمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح منذ الطفولة؛ فهناك أطفال يتعاملون مع دُمَاهم كما لو كانت كائنات بشرية لها مشاعرها، بينما يكتفي آخرون بالانشغال بكيفية صنعها وتركيبها، في حين يتوقف النمو النفسي لدى بعض الأفراد عندما يحولون علاقاتهم من البشر إلى الحيوانات أو الأشياء الجامدة، فيفقدون بذلك البعد الاجتماعي الذي كان من المفترض أن ينمو فيهم.

ولا تظهر قسوة الأطفال على الحيوانات إلا حين يغيب الحس الاجتماعي والقدرة على التعاطف مع الكائنات الحية الأخرى، وحينها ينشغل الطفل بأشياء لا قيمة لها ولا نفع في نموه الاجتماعي، فينغلق على ذاته ويهتم فقط بنفسه، ويخسر القدرة على مشاركة الآخرين أفراحهم أو أحزانهم، وقد يصل هذا العجز عن التماهي مع الآخرين إلى درجة رفض التعاون معهم رفضًا تامًا، وكأن الحياة لا تضم أحدًا سواه.

## التأثير والإيحاء والتنويم المغناطيسي

يجيب علم النفس الفردي عن سؤال: كيف يمكن لفرد أن يؤثر في سلوك فرد آخر؟ بأن قابلية التأثير هي من أبرز مظاهر حياتنا النفسية، فلولاها لما كانت الحياة الجماعية ممكنة أصلًا. ويزداد هذا التأثير وضوحًا في بعض العلاقات الخاصة، كعلاقة المعلم بتلميذه، أو الوالد بابنه. وبحكم الشعور الاجتماعي الفطري، يُبدي البشر دومًا استعدادًا بدرجات متفاوتة للتأثر ببعضهم، ويعتمد عمق هذا التأثير على مقدار ما يراه المتلقي من احترامٍ لحقوقه. فالإنسان لا يملك أن يحترم على الدوام من يؤذيه أو يتعدى عليه، بينما

يزداد تجاوبه إذا شعر بأن كرامته مصنونة. وهذه النقطة بالغة الأهمية في التربية والتعليم، إذ يمكن تصور أشكال أخرى من النظم التربوية، لكن التعليم الذي يراعي هذا المبدأ سيكون أكثر فاعلية لأنه يستند إلى أقدم الغرائز الإنسانية: الارتباط بالإنسانية وبالكون.

غير أن هذا النهج يفشل حين نواجه أشخاصًا انسحبوا عمدًا من تأثير المجتمع. فالانسحاب لا يكون وليد المصادفة، بل نتيجة معركة طويلة تفككت خلالها روابط الفرد بالعالم شيئًا فشيئًا، حتى وجد نفسه في مواجهة صريحة مع الجماعة. يصبح التأثير على هؤلاء عسيرًا أو مستحيلًا، ونشهد هنا مشهدًا دراميًا لإنسان يردّ بعنف على كل محاولة لتوجيهه. والأمر نفسه نراه لدى بعض الأطفال الذين يشعرون بالظلم من بيئتهم، فيتمردون على معلمهم، إلا إذا اشتد الضغط الخارجي حتى يذيب مقاومتهم، فتغدو الطاعة شكلاً سلطويًا فارغًا من كل نفع اجتماعي. وغالبًا ما يفضي هذا إلى أن يصبح الأفراد المطيعون على نحو أعمى عاجزين عن أي تفكير مستقل أو فعل ذاتي، فنراهم في الكبر يستسلمون بلا مقاومة لكل أمر سلطوي، حتى لو اقتضى مخالفة القانون.

وتمنحنا العصابات مثالًا جليًا على هذه الآلية؛ فالأتباع خاضعون ينفذون ما يُملى عليهم، بينما يتوارى القائد المسيطر عادةً عن التدخل المباشر، وفي كل قضية كبرى تكاد الضحية الأولى تكون أحد هؤلاء الأتباع الخاضعين الذين جرى التضحية بهم. وتبلغ الطاعة العمياء أحيانًا حدًا يجعل بعض الناس يفخرون بعبوديتهم، ويرون فيها وسيلة لإشباع إحساسهم بالقيمة الذاتية.

أما إذا اقتصرنا على التأثيرات الاعتيادية في حياتنا اليومية، فسندرك أن أكثر الناس قابليةً للتأثر هم أولئك الذين يحتفظون بروح اجتماعية سليمة ولم يفسدها الطموح الجائر أو الرغبة في الهيمنة، في حين يصعب التأثير على من يستبد بهم العطش للتفوق أو النزعة

السلطوية. ولهذا نرى أن شكوى الآباء من أبنائهم غالبًا لا تتعلق بالطاعة الزائدة، بل بالتمرد المستمر، وهو تمرد يعبر في جوهره عن رفض القيود والسعي إلى قهرها.

وبوجه عام، كلما ازداد سعي الفرد إلى السلطة تضاءلت قابليته للتثقيف، ومع ذلك نجد أن التربية في كثير من البيوت تنحو إلى إذكاء طموح الأبناء، وإيقاظ أوهام العظمة في نفوسهم، لا عن عبث أو مصادفة، بل لأن ثقافتنا كلها مشبعة بمثل هذه الأوهام. ففي البيت كما في المجتمع، يكون الاهتمام الأكبر بمن هو الأكبر شأنًا أو أوسع مجددًا. وسرى في فصل الغرور أن هذا النمط من التربية، الموجّه نحو الطموح وحده، يضع العراقيل في سبيل نمو العقل ويُربك مساره الطبيعي.

الأفراد الذين اعتادوا الخضوع غير المشروط لأي سلطة يشبهون إلى حد بعيد موضوعات المنوم المغناطيسي. فتخيل شخصًا يطبع، لدقائق معدودة، كل نزوة تلقى إليه! هذا هو جوهر التنويم: خضوع قائم على استعداد داخلي، لا على قوة غامضة في المنوم. فقد يقاوم الفرد في وعيه، لكنه في لا وعيه يكون قد سلّم أمره، وهنا يتحدد سلوكه كله لا بما يفكر فيه أو يقوله، بل بموقفه النفسي وحده. ولهذا التباسٌ انتشر بسببه كثير من التضليل حول التنويم، إذ قد يبدو لنا أن بعض الأشخاص يقاومونه بينما هم في الحقيقة على استعداد تام للخضوع.

والتنويم في جوهره شبيه بالنوم، غير أن الفارق أنه يحدث بأمر من شخص آخر، ويظل أمره بلا قيمة إذا لم يُوجّه إلى من هو مُستعد لقبوله. وفي هذه الحال، تُشل القدرات العقلية العليا، ويُصبح المنوم أداةً في يد المنوم، عضوًا يعمل بأمره. ومن هنا جاء خطر الاستغلال، خصوصًا لدى من يُسمّون "منومي المسرح"، الذين اتخذوا من هذا الفن وسيلة للعبث بعقول الجماهير، فاختلط عندهم الصدق بالخداع، حتى صاروا في الغالب

مخادعين مخدوعين؛ يخدعون الآخرين بقدر ما يخضعون هم أنفسهم للوهم. والحقيقة أن العامل الحاسم لم يكن يوماً قوةً سحريةً في يد المنوم، بل استعداد الشخص ذاته للخضوع. أمّا من اعتاد أن يعيش بعقلانية ويتخذ قراراته بنفسه ولا يقبل الآراء دون تمحيص، فلن يكون عرضةً للتنويم مطلقاً، ولن يُظهر أي قدرة مزعومة على التخاطر، لأن التنويم والتخاطر كلاهما لا يعدوان أن يكونا مظهرين من مظاهر الطاعة الخاضعة.

وإذا كان التنويم يمثل أقصى صور الخضوع، فإن الإيحاء هو صورته اليومية البسيطة. فكل ما نستقبله من انطباعات ومحفزات من العالم الخارجي يترك أثراً فينا، لكن حين تأخذ هذه الانطباعات صورة مطالب أو توسلات أو حجج أو محاولات للإقناع، نُسميها إيحاءً. وهو في حقيقته تعزيز أو تحويل لوجهة نظر موجودة بالفعل لدى المتلقي. غير أن الأفراد لا يتساوون في درجة تأثرهم؛ فهناك من يبالغون في تقدير آراء الآخرين ويزدرون آراءهم الخاصة، وهؤلاء أكثر الناس خضوعاً للإيحاء، كما أنهم أكثر استعداداً للتنويم. وعلى العكس منهم، هناك من يرون كل اقتراح صادر عن غيرهم إهانةً لكرامتهم، فيرفضونه رفضاً مطلقاً، لا لأنهم متيقنون من صواب رأيهم، بل لأنهم لا يقبلون أصلاً أن يُقدّم لهم رأي آخر. وكلا الفريقين ينطوي على شعور بالضعف: الأول يُعبّر عنه بالخضوع المفرط، والثاني يُعبّر عنه بالعدوانية والتعصب. وفي كلا الحالين، يغيب التوازن الذي يجعل التأثير المتبادل بين الناس أساساً للحياة الاجتماعية السليمة.

## الطفولة المبكرة

بتنا ندرك الآن أن نظرة الأطفال المحرومين للحياة وتجاه إخوانهم البشر تختلف عن نظرة من عايشوا نعيم الحياة في سن مبكرة، ويمكننا القول كقانون أساسي إن الأطفال الذين يولدون بذوي الإعاقة ينخرطون منذ سن مبكرة في صراع مرير غالباً ما يؤدي إلى خنق

مشاعرهم الاجتماعية، فبدلاً من محاولة التكيف مع الآخرين ينشغلون بأنفسهم وبالانطباع الذي يتركونه لدى الآخرين، وما ينطبق على الإعاقة الجسدية ينطبق أيضاً على أي عبء اجتماعي أو اقتصادي قد يُصبح عائقاً وقد يُؤلّد موقفاً عدائياً تجاه العالم. يتحدد الاتجاه الحاسم في سن مبكرة، وغالباً ما يدرك هؤلاء الأطفال منذ سن الثانية أنهم أقل استعداداً للكفاح من أقرانهم، فيشعرون أنهم لا يجرؤون على المشاركة في ألعاب أقرانهم وهواياتهم، ونتيجةً لمرحانهم في الماضي اكتسبوا شعوراً بالإهمال يتجلى في حالة من الترقب القلق. يجب أن نتذكر أن جميع الأطفال يعيشون في وضع أدنى وتابعين في الحياة، فبدون قدر من الشعور الاجتماعي من جانب أسرهم سيعجزون عن العيش باستقلالية. ندرك أن بداية كل حياة مليئة بشعور عميق بالنقص عندما نلاحظ ضعف جميع الأطفال وعجزهم، وعاجلاً أم آجلاً يدرك جميع الأطفال عجزهم عن مواجهة تحديات الوجود بمفردهم، فهذا الشعور بالنقص هو القوة الدافعة ونقطة الانطلاق التي ينطلق منها كل سعي طفولي، فهو يحدد كيفية اكتساب كل طفل للسلام والأمان في الحياة، ويحدد هدف وجوده، ويُمهّد الطريق الذي يمكن من خلاله بلوغ هذا الهدف.

إن أساس إمكانات الأطفال التعليمية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإمكانياتهم البدنية، وقد يتحطم التقبل التعليمي بفعل عاملين: أحدهما شعور مبالغ فيه ومكثف وغير قابل للحل بالنقص، والآخر هدف لا يتطلب الأمن والسلام والتوازن الاجتماعي فحسب بل يتطلب أيضاً صراعاً للسيطرة على البيئة وهو هدف للهيمنة على أقرانه. يسهل اكتشاف هؤلاء الأطفال، إنهم يصبحون أطفالاً مشيرين للمشاكل لأنهم يفسرون كل تجربة على أنها هزيمة، ولأنهم يعتبرون أنفسهم دائماً مهملين ومميزين من قبل الطبيعة والبشرية. علينا فقط أن نأخذ هذه العوامل في الاعتبار لنرى بأي حتمية قد يتكشف تطور ملتوٍ وغير كافٍ

ومليء بالأخطاء في حياة الطفل. جميع الأطفال معرضون لخطر التطور الخاطئ، وجميع الأطفال يجدون أنفسهم في وضع محفوف بالمخاطر في وقت أو آخر.

بما أن جميع الأطفال يجب أن يكبروا محاطين بالبالغين فإنهم يميلون إلى اعتبار أنفسهم صغارًا وضعفاء وغير قادرين على العيش بمفردهم، وهم لا يثقون بأنفسهم حتى للقيام بتلك المهام البسيطة التي يعتقد البالغون أنهم قادرون عليها دون أخطاء أو خرق. تبدأ معظم أخطائنا في تربية الأطفال من هذه النقطة، فعندما نطلب أكثر مما يستطيع الأطفال فعله تُلقى فكرة عجزهم في وجوههم. حتى أن بعض البالغين يجعلون الأطفال يشعرون بوعي بصغرهم وعجزهم، بينما يعامل آخرون الأطفال كدمى متحركة للعب بها، ويعامل آخرون الأطفال مرة أخرى كممتلكات ثمينة يجب مراقبتها بعناية، في حين يجعلهم آخرون يشعرون بأنهم مجرد حمولة بشرية عديمة الفائدة. وغالبًا ما يؤدي مزيج من هذه المواقف من جانب الآباء وغيرهم من البالغين إلى اعتقاد الأطفال بأنهم لا يسيطرون إلا على شيئين: متعة واستياء كبارهم.

قد يتفاقم شعور النقص الذي يُولده الآباء بفعل بعض السمات المميزة لحضارتنا، وتندرج عادة عدم أخذ الأطفال على محمل الجد ضمن هذه الفئة. فيُكوّن لدى الأطفال انطباع بأنهم لا قيمة لهم، أشخاص بلا حقوق، وأنهم يُنظر إليهم ولا يُسمعون، وأن عليهم دائمًا التحلي باللباقة والهدوء وما إلى ذلك. ينشأ العديد من الأطفال في خوف دائم من السخرية منهم، والسخرية من الأطفال تكاد تكون جريمة، فهي تترك أثرًا دائمًا في نفسية الأطفال ينعكس في عاداتهم وأفعالهم كالبالغين. من السهل تمييز البالغين الذين تعرضوا للسخرية باستمرار في طفولتهم، إذ لا يستطيعون التخلص من خوف الظهور بمظهر السخيف مرة أخرى. ومن مظاهر عدم أخذ الأطفال على محمل الجد عادة إخبارهم بأكاذيب واضحة، مما يدفعهم ليس فقط إلى الشك في بيئتهم المباشرة بل أيضًا إلى



التشكيك في جدية الحياة وواقعيتها. وقد سُجلت حالات لأطفال ضحكوا باستمرار في المدرسة دون سبب واضح، وعندما سئلوا اعترفوا بأنهم يعتقدون أن المدرسة كانت مجرد نكتة بين والديهم ولا تستحق أن تؤخذ على محمل الجد.

## الشعور بالنقص والسعي إلى الاعتراف والتفوق

تُحدد مشاعر النقص والعجز وانعدام الأمن غاية وجود الفرد، ويتجلى الميل إلى إبراز الذات وطلب اهتمام الوالدين في الأيام الأولى من الحياة، وهنا تظهر أولى المؤشرات على نمو الرغبة المتنامية في الحصول على التقدير إلى جانب مشاعر النقص، وغرض هذه الرغبة هو بلوغ حالة يشعر فيها الفرد بتفوق ظاهري على بيئته. إن درجة ونوعية الشعور الاجتماعي للشخص تساعد في تحديد هدفه المتمثل في التفوق، فلا يمكننا الحكم على الأفراد، سواء كانوا أطفالاً أو بالغين، دون مقارنة هدفهم في التفوق الشخصي بمدى شعورهم الاجتماعي. إن هدفهم مُصمَّم بحيث يعد بتحقيق الشعور بالتفوق أو الارتقاء بالشخصية إلى مستوى يجعل الحياة تبدو جديرة بالعيش، وهذا الهدف هو ما يعطي قيمة لتجاربنا، إذ يربط وينسق مشاعرنا، ويشكل خيالنا، ويوجه قوانا الإبداعية، ويحدد ما سنتذكره وما يجب أن ننساه. وهكذا يمكننا أن نرى مدى نسبية قيم الأحاسيس والمشاعر والعواطف والخيال، فهذه العناصر من نشاطنا النفسي تتأثر بسعينا لتحقيق هدف محدد، حتى إن إدراكاتنا نفسها متحيزة وتتم وفق إشارة خفية إلى الهدف النهائي الذي تسعى الشخصية نحوه.

نوجه أنفسنا وفقاً لنقطة ثابتة مُصطنعة، نقطة لا أساس لها في الحقيقة، أي خيال. وهذا الافتراض ضروري بسبب قصورنا النفسي، وهو مشابه للخيالات التي نستخدمها في العلم مثل تقسيم الأرض إلى خطوط طول غير موجودة ولكنها مفيدة للغاية. وبالمثل،

نفترض في الحياة النفسية وجود نقطة ثابتة رغم أن الملاحظة الدقيقة تُجبرنا على الاعتراف بأنها غير موجودة في الواقع، والغرض من هذا الافتراض هو أن نتمكن من توجيه أنفسنا في فوضى الوجود لنصل إلى تقدير ما للقيم النسبية، وتكمن ميزته في أنه بمجرد افتراضنا لهذه النقطة يمكننا تصنيف كل إحساس وكل شعور وفقاً لها. وهكذا يُنشئ علم النفس الفردي نظاماً استدلالياً يقوم على النظر إلى السلوك البشري وفهمه كنمط نهائي من العلاقات ناتج عن تأثير السعي وراء هدف محدد على الإمكانيات الموروثة للكائن الحي، وقد أثبتت التجربة أن هذا الافتراض ليس مجرد وهم بل حقيقة جوهرية تتفق إلى حد بعيد مع وقائع الحياة الواعية واللاواعية.

وعندما نتساءل كيف نقاوم بأفضل طريقة تطور السعي وراء السلطة والتفوق، وهو الشر الأبرز في حضارتنا، نواجه صعوبة لأنه يبدأ في سن مبكرة يصعب التواصل فيها مع الأطفال، فلا يمكننا محاولة التوضيح والتحسين إلا في مراحل لاحقة. غير أن العيش مع الأطفال في هذه المرحلة يمنحنا فرصة لتنمية شعورهم الاجتماعي إلى الحد الذي يجعل السعي وراء السلطة الشخصية أمراً مهملاً. وتكمن صعوبة أخرى في أن الأطفال لا يُظهرون سعيهم للسلطة علناً بل يخفونه تحت ستار الاهتمام والمودة ويواصلون عملهم في الخفاء، متوقعين أن يفلتوا من الانكشاف. وهنا يكمن الخطر، إذ إن السعي المطلق للسلطة والأمان قد يُلحق ضرراً بالنمو النفسي، فيحوّل الشجاعة إلى وقاحة، والطاعة إلى جبن، والحنان إلى استراتيجية خفية للسيطرة الكاملة، حتى إن كل شعور أو تعبير طبيعي لدى الطفل قد يحمل عنصراً من النفاق هدفه النهائي إخضاع بيئته.

ويؤثر التعليم على الأطفال من خلال هدفه الواعي أو اللاواعي المتمثل في تعويضهم عن انعدام الأمن، وذلك بتعليمهم مهارات الحياة وتنمية فهمهم وتشجيعهم على الشعور الاجتماعي تجاه إخوانهم البشر، فجميع هذه التدابير هي وسائل لمساعدة الأطفال على

التخلص من مشاعر النقص. ولا يمكن الحكم على ما يحدث في نفسية الأطفال خلال هذه العملية إلا من خلال السمات التي يطورونها، لأنها مرآة نشاطهم النفسي. وتجدر الإشارة إلى أن درجة النقص الفعلية لدى الأطفال ليست معيارًا ثابتًا لقياس مشاعر انعدام الأمن لديهم، فهي تعتمد بدرجة كبيرة على تفسيرهم لها. ولأن الأطفال لا يملكون تقديرًا دقيقًا لأنفسهم في أي موقف محدد، تتكاثر الصعوبات؛ فبينما يخطئ طفل في تقدير درجة دونيته، يكون آخر أكثر قدرة على التفسير، ولكن في النهاية يستقر كل منهم على معيار ذاتي ثابت يصوغ نظرتَه إلى ذاته ويوجه محاولاته التعويضية للخروج من هذا الشعور بالنقص.

إن آلية التعويض التي تحاول بها النفس البشرية مواجهة شعور النقص تشبه ما نراه في العالم العضوي، فالأعضاء التي تُضعف وظيفتها الطبيعية بسبب مرض أو إصابة قد تُظهر قدرة على التعويض تفوق أحيانًا حالتها الطبيعية، وكذلك النفس البشرية إذ تبذل كل جهدها للتغلب على النقص أو العجز، لكنها قد تبالغ في ذلك فتسعى لا إلى التوازن بل إلى التفوق والهيمنة، وهنا يصبح السعي مرضيًا. في هذه الحالة تظهر اندفاعات عنيفة وسلوك متعجل لا يراعي الآخرين، فينقلب الأطفال إلى كائنات في صراع مع العالم، والعالم في صراع معهم.

ومع ذلك، قد يسعى بعض الأطفال إلى السلطة في صورة تبدو طبيعية، لكن طموحهم في جوهره يكون معاديًا للمجتمع، ويكشف مع الوقت عن سمات كالكبرياء والغرور والرغبة في التفوق على الجميع بأي ثمن، حتى وإن تحقق هذا عبر التقليل من شأن الآخرين. وهذه النزعة لا تضر المجتمع وحده، بل تضر الفرد ذاته، إذ تجعله دائمًا على تماس مع الجانب المظلم من الحياة وتحول بينه وبين التمتع بالسعادة. كما أن الميل

المفرط إلى السيطرة يجعلهم يرفضون المهام والواجبات العادية للحياة، وهو ما يُظهر بوضوح مدى ابتعادهم عن النمو الاجتماعي السليم.

إن فهم الطبيعة البشرية على هذا النحو، مع وعي بأهمية الصعوبات التي تواجه النمو النفسي، يجعلنا أكثر تعاطفًا مع هؤلاء الأفراد. فلا ينبغي أن نلوم ذوي الإعاقات أو السمات غير المرغوبة على سخطهم، بل يجب أن نمنحهم حقهم في التعبير عنه، وألا ننسى أننا نتحمل جزءًا من المسؤولية عن أوضاعهم الاجتماعية. إن خلق جو يشعر فيه هؤلاء بقيمتهم الإنسانية هو السبيل لمساعدتهم.

من الطبيعي أن أولئك الذين يولدون بإعاقات جسدية يحملون عبئًا إضافيًا منذ البداية، مما قد يجعلهم متشائمين حيال الحياة كلها. وفي أحيان أخرى، قد يكون السبب في شدة مشاعر النقص تربية صارمة أو برود عاطفي خلال السنوات الأولى، وهو ما يترك جرحًا نفسيًا عميقًا يجعل الطفل يعتقد أنه يعيش في عالم بلا حب أو حنان.

ولنأخذ مثالًا يوضح ذلك: رجل في السادسة والثلاثين يعيش حياة بائسة مع زوجته، ويُظهر في كل تصرفاته ميلًا لإخضاعها وإثبات أهميته عليها. لقد كان حتى سن السابعة عشرة ناقص النمو الجسدي، بصوت ضعيف وجسد صغير، وظل لسنوات يعاني شعورًا بأنه سيبقى طفلًا إلى الأبد. ومع أن الطبيعة عوضته لاحقًا ونما نموًا طبيعيًا، فإن تلك السنوات تركت أثرًا عميقًا في شخصيته، فشَبَّ وهو يتصرف وكأنه محور الاهتمام، وكل ما يفعله معدّ ليُظهر عظمته. وبعد زواجه ظل يحاول إقناع زوجته بأهميته، بينما كانت هي تصر على عكس ذلك، فانهارت العلاقة بينهما، واضطر للجوء إلى المعالج بعدما انهارت ثقته بنفسه. وكان عليه أن يتعلم أن خطأه الأساسي كان في تقييمه الأولي لنقصه، وهو الخطأ الذي صبغ حياته كلها حتى تلك اللحظة.

## رسم بياني للحياة والصورة الكونية

عند ذكر حالات كهذه، كثيرًا ما يكون من المناسب إظهار العلاقة بين خبرات الطفولة والشكوى الفعلية كما يعرضها المريض؛ وأفضل وسيلة لذلك هي الرسم البياني. تُوضَّح العلاقة بخطٍّ يصل بين نقطتين. وفي غير قليل من الحالات، حين نرسم هذا الرسم البياني – أي المنحنى النفسي لمسار نمو الفرد – يُظهر المنحنى نمط السلوك الذي اتبعه الشخص منذ طفولته المبكرة. قد يشعر بعض القراء بأننا نُبسِّط القدر الإنساني تبسيطًا مُفْرِطًا، وقد يقول آخرون إننا ننكر أن البشر أسيادُ أقدارهم، فننفي بذلك الإرادة الحرة والحُكم الإنساني. وفي ما يتصل بالإرادة الحرة، فالإتهام – بهذا المعنى – في محله؛ إذ إننا نتعامل هنا مع «نمط سلوكي» محدّد، يخضع تشكُّله النهائي لبعض التغييرات، لكنّ محتواه الأساسي وزخمه ومعناه يظلّ ثابتًا منذ الطفولة المبكرة. هذا النمط هو العامل الحاسم، وإن كانت تغيُّراتُ علاقة الفرد ببيئة الراشدين قد تعيّر المسألة قليلًا في بعض الجوانب عند النضج. في بحثنا يجدر بنا استكشافُ خبرات الطفولة المبكرة للموضوع، لأن انطباعات تلك المرحلة تُشير إلى اتجاه نموّ الطفل، وكذلك إلى كَيْفِيَّة استجابته مستقبلاً لتحديات الحياة. وفي هذه الاستجابات سيستخدم الطفل كلَّ إمكاناته الجسدية والعقلية المولود بها؛ أمّا الضغوط الخاصة التي خبرها في أوائل طفولته فستلَوّن موقفه من الحياة وتحدّد – على نحوٍ بدئي – صورته الكونية وفلسفته عن العالم. ولا غرابة في ألاّ يغيّر الناس موقفهم من الحياة بعد طفولتهم، وإن اختلفت طرائق التعبير عن هذا الموقف في مراحل لاحقة اختلافًا تامًّا عن تعبيراته الأولى.

من ثمّ، من المهمّ ألاّ نُخضع الأطفال الصغار لعلاقات تُوهمهم بصورة خاطئة عن الحياة. ففوقه أجسامهم ومقاومتها عاملٌ مهمّ في هذا الباب، كما أن وضعهم الاجتماعي

وخصائصَ مَنْ يربّونهم لا تقلّ شأنًا. ففي البدء تكون استجابتهم للحياة تلقائيّةً وانعكاسية، ثم تتكيّف ردودُ أفعالهم لاحقًا مع شعورٍ معيّن بالغاية. في البداية تحدّد الحاجةُ الجسدية ألمَ الأطفال وسرورهم، لكنهم يكتسبون بعد ذلك قدرةً على التملّص من ضغوط هذه الحاجات البدائية أو التحايل عليها. وتحدث هذه النقلة في لحظة «اكتشاف الذات»، تقريبًا حين يبدأ الطفل بالإشارة إلى نفسه بـ«أنا». وفي هذا الوقت أيضًا يُدرك الأطفال أنهم على صلةٍ ثابتة ببيئتهم؛ صلةٍ ليست محايدة بحال، لأنها تُجبرهم على اتخاذ موقفٍ مغاير وتكييف علاقاتهم وفق متطلبات رؤيتهم للعالم، ومفهومهم للسعادة والكمال.

وإذا استحضرنا ما قيل عن غائية العقل البشري (توجّهه نحو الهدف) اتّضح أن «الوحدة غير القابلة للتفكيك» سمةٌ مميّزة لهذا النمط. وتزداد ضرورة التعامل مع الإنسان بوصفه شخصيّةً غير قابلة للتجزئة ووضوحًا في الحالات التي تُظهر تعابير متناقضةً ظاهريًا لأهداف نفسية واحدة.

كما أن ثمة أطفالًا يتصرّفون في المدرسة على نحو مغاير تمامًا لتصرّفهم في البيت، هناك أيضًا راشدون تبدّى سمات شخصيتهم متناقضةً حتى تُصبح حقيقتهم لغزًا لنا. وقد تتشابه حركات شخصين وتعابيرهما ظاهريًا، لكن فحص «أنماط السلوك» الكامنة يكشف افتراقهما التام. ولذا قد يبدو لنا أن شخصين يفعلان الشيء نفسه، فيما يكون كلُّ منهما في الحقيقة يفعل شيئًا مختلفًا؛ وقد يفعلان أشياء تبدو مختلفة، بينما هما – في الجوهر – يفعلان الشيء نفسه!

بسبب هذا الالتباس لا يصحّ أن نحكم على تعابير النفس ظواهر معزولة؛ بل يجب تقييمها على ضوء الهدف المشترك الذي توجّه نحوه. ولا يُدرك المعنى الجوهرى لأي

ظاهرة إلا إذا عرفنا وزنها ضمن سياق الحياة كلها. ولن نفهم آية عمل العقل إلا إذا أكدنا من جديد أن كلّ تعبير عن الحياة الإنسانية ليس سوى وجهٍ من وجوه «نمط السلوك» الكلي.

وحين ندرك أخيراً أن السلوك البشري قائمٌ على السعي إلى غاية، وأنه مشروطٌ بغايته وبدايته معاً، أمكننا أيضاً تحديدهُ مواضع الخطأ الأكثر شيوعاً. منابتُ هذه الأخطاء أننا نستخدم انتصاراتنا ورضانا بما يوافق تكويننا النفسي، على نحوٍ يعزّز «نمط حياتنا» الفردي؛ وذلك ممكن لأننا لا نُحلّل شيئاً تحليلًا موضوعيًا خالصًا، بل نستقبل إدراكاتنا ونحوّلها ونستوعبها في ضوء وعينا أو في أغوار لاوعينا. وليس إلا العلمُ قادرًا على إيضاح هذه العملية وجعلها مفهومة – وهو وحده القادر، في النهاية، على تعديلها. ونختتم الشرح بمثالٍ نُحلّل فيه كلّ ظاهرة بحسب مبادئ «علم النفس الفردي» التي سبق أن عرضناها.

جاءتنا مريضةٌ شابةٌ تشكو ضيقًا شديدًا بالحياة. تقول إنها مستاءة لأن يومها كلّ مشغولٍ بواجباتٍ شتى. مظهرها يوحى بالعجلة، وعيناها قلقتان، وتشكو قلقًا شديدًا متى اضطرت إلى أداء مهمةٍ بسيطة. وعلمنا من أهلها وأصدقائها أنها تأخذ كلّ شيء مأخذ الجدّ حتى الإنهاك. والانطباع العام أنها «تثير ضجة حول كلّ شيء»، على حدّ تعبير أحد ذويها.

لنأخذ هذا الميل إلى تحويل المهمة اليسيرة إلى شأنٍ جليل، ونجسّه على انطباعه في المحيط أو لدى شريك الحياة. لا يسعنا إلا أن نرى فيه نداءً إلى العالم ألاّ يحملها مزيدًا من الأعباء لأنها «لم تعد قادرة». لكننا لا نملك بعدُ ما يكفي عن شخصيتها؛ لذا ينبغي أن ندفعها – بلباقةٍ وحذر – إلى أن تُحدّثنا أكثر. لا مجال لمحاولة السيطرة عليها، لأن ذلك لا يزيدُها إلا غضبًا. وحين كسبنا ثقتها وباتت تتحدّث بحرية، انتهينا إلى أن حياتها

كلّها منصبّة على هدف واحد: فهي - بسلوكها - تسعى إلى إقناع أحدهم، وربما زوجها، بأنها لا تُطبق التزاماتٍ ومسؤولياتٍ أخرى، وأنه لا بدّ من معاملتها برقّةٍ واعتبار. ونرجّح أن هذا بدأ في وقتٍ سبق عندما وُجّهت إليها مطالبٌ مُلحّة. وقد أقرّت بأنها مرّت، منذ سنوات، بفترةٍ عانت فيها قلة الحنان أكثر من أيّ شيءٍ سواه. الآن نفهم سلوكها على نحوٍ أفضل: إنه تقويةٌ لرغبتها في الالتفات إليها، ومحاولةٌ لمنع تكرار ظرفٍ لم يُشبع عطشها إلى الدفء.

وتثبتت تحليلنا بإيضاحٍ منها؛ إذ حكّت عن صديقةٍ لها تريد الخلاصَ من زواجٍ تعيس. رأتها مرّةً واقفةً ويدها كتاب، تقول لزوجها بصوتٍ فاطر إنها لا تدري هل تستطيع إعداد العشاء. أثار ذلك غضبَ الزوج فأخذ يوبّخها. وتعليقُ مريضتنا: «طريقتي أفضلُ بكثير؛ لا أحد يلومني بهذه الصورة لأنني مشغولةٌ من الصباح إلى الليل. وإن تأخّر الغداء عندي، فلا حقّ لأحد في الاعتراض لأن لديّ دائماً مكالماتٍ تستغرق وقتاً طويلاً. فهل أتخلّى الآن عن طريقتي؟»

يمكننا أن نرى الآن ما يجري في داخلها: إنها تحاول، بوسيلةٍ بريئةٍ نسبياً، إحرازَ تفوّقٍ ما، مع البقاء بمنأى عن اللوم، عبر استدرار الاعتبار على الدوام. وحيث إن هذه الاستراتيجية «ناجحة»، يبدو غيرَ منطقيٍّ أن نطلب منها التخلّي عنها؛ غير أنّ لسلوكها أبعاداً أعمق: فطلب الاعتبار (وهو في الوقت نفسه محاولةٌ سيطرة) لا يُقابلُه جهدٌ كافٍ، الأمر الذي يجرّ إلى مشكلاتٍ كثيرة. فإذا ضاع شيءٌ في البيت أحدثت ضجّةً عارمةً؛ وليكثر ما «عليها» من العمل تُصاب بالصداع دائماً؛ ولا تنامُ نومًا عميقًا لما يلازمها من القلق على أعمالها الماضية والحاضرة والآتية. وصار قبولُ دعوةٍ عشاءٍ بذاته شأنًا جسيمًا يتطلّب تحضيراتٍ ضخمة؛ وما دام كلُّ فعلٍ يبدو لها بالغ الأهميّة، فإن الذهاب إلى



حفل عشاءٍ مهمةٌ شاقّةٌ تستغرق ساعاتٍ وأيامًا. ويمكن التكهّن - بشيءٍ من اليقين - بأنها إمّا ستعتذر وإمّا ستتأخر. ومن ثمّ فشعورُها الاجتماعي لا يتجاوز حدودًا بعينها.

وفي الحياة الزوجية تطرأ مواقفٌ تغدو ذاتَ شأنٍ خاصٍ بسبب هذا «النداء إلى الاعتبار». فمن المعقول مثلاً أن يضطرّ أحدُ الزوجين إلى الخروج لعملٍ أو موعدٍ مسائي أو اجتماعٍ نادٍ. فإذا تُركَ الآخرُ في البيت، أتعَدّ هذه مخالفةً للودّ؟ للوهلة الأولى قد يُقال إن الزواج يقتضي مكوثَ الشريكين في البيت قدر المستطاع. ومع ما في هذا من جاذبيةٍ جزئيّة، فإن الإفراط فيه يخلقُ صعوباتٍ لا تُحتمل لمن له مهنة. والمتاعبُ في مثل هذه الحالات تكاد تكون محتمّة، وقد حدثت هنا سريعاً؛ إذ حاول الزوجُ أن يعودَ متأخراً فيسهو دون إزعاجها، فإذا بها يقظةٌ تُفيضُ عتاباً.

لا حاجة إلى الإطالة، فهذه المشكلة معروفة؛ ويجدر التأكيدُ كذلك على أنّ مثل هذه «الألعيب» لا تقتصر على النساء، فكثيرٌ من الرجال يُشبهونهنّ فيها. غايتنا أن نبيّن كيف يتّخذ طلبُ الرعاية والاهتمام مساراً آخر قليلاً. ففي حالة مريضتنا قد يكون النمط كالاتي: لنفترض أن الزوج مضطّرٌ للخروج مساءً، فتقول له: «لا تقلق بشأن العودة مُبكراً يا عزيزي؛ أنت قليلُ الاختلاط، فاجعل مساءك سعيداً». تبدو كلماتها مازحةً، لكنها - في حقيقتها - ذاتُ معنى جدّي. إنها مخالفةٌ لما نعرفه عنها، غير أن التدقيق يُظهر الصلة: لا تريد أن تُرى «مُطالبية». في الظاهر مقنعةٌ وصادقة، لكنّ المعنى الحقيقي لقولها أنها هي من حدّدت الشرط، وأنّ خروجه إلى وقتٍ متأخّرٍ إنما يجري بإذنها؛ فتكون هي الطرفَ المُسيّر، ويغدو الزوجُ - حتّى في علاقاته الاجتماعية - مُعلّقاً برغبتها وإرادتها.

فلنربط الآن هذا التوقُّ إلى الحنان والاهتمام بفكرتنا الجديدة، وهي أنّ هذه المرأة لا تُحسن التصرف إلا في المواقف التي تكون فيها «هي المسيطرة». سرى أنها مُصمّمة -

طوال حياتها – على ألا تكون ثانويةً لأحد، وأن تحتفظ دومًا بزمام الهيمنة، وألا تُسقط من مكانتها الراسخة بلوم، وأن تبقى مركزَ عالمها الصغير. ستظهر هذه العزيمة في كلِّ موضعٍ من حياتها: فمثلًا، متى اضطُرَّت إلى استقدام عاملةٍ نظافةٍ جديدةٍ استبدَّ بها الحماس – لأن المسألة، عندها، هي إبقاء السيطرة التي كانت لها على السابقة. وكذلك حين تخرج من البيت تغادر مجالَ سيطرتها إلى عالمٍ لا تُفصح فيه الأشياء عن خضوعها، حيث ينبغي أن تتفادى سيارةً هنا، وأن تقبل دورًا ثانويًا هناك. وحين نفهم «طغيانها» المنزلي يستبين سببُ توتُّرها ومعناه.

غير أن هذه السمات قد تظهر في صورةٍ مُرضيةٍ إلى حدٍّ لا يخطر معه للذهن أولٌ وهلةٍ أن صاحبةًها تُعاني؛ لكن المعاناة قد تبلغ مَبْلَغًا. تخيّل هذا الضغط إذا تضخّم: يوجد أناسٌ يخافون ركوب الحافلة لأنهم لا يملكون فيها زمامَ مصيرهم؛ وقد يشتدّ الخوف حتى يمنعهم من مغادرة بيوتهم.

ويتجلّى تطوُّرٌ آخر يُظهر أثرَ انطباعات الطفولة في حياة الفرد. لا يسوغ إنكارُ أنها – من وجهة نظرها – على «حق». فإذا كانت حياة المرء كلها موجَّهةً بقوةٍ نحو تحصيل الدفء والاحترام والشرف والحنان، فإن التصرّف كما لو أنها مثقلةٌ ومرهقةٌ دائمًا ليس وسيلةً سيئةً لهذه الغاية: بل طريقةٌ ممتازةٌ لدفع النقد، وإلزام الجميع باللطف معها، مع تجنّب كلِّ ما قد يُخلّ بتوازنها النفسي المترجرج.

وإذا عدنا إلى الوراثة في حياتها وجدنا أنها – حتى في المدرسة – كانت، متى عجزت عن أداء واجباتها، تنتابها حدةٌ تُرغم مُعلِّمتها على الرفق الشديد بها. وكانت كُبرى ثلاثة أطفالٍ لها أخٌ وأختٌ أصغر، وكان بينها وبين أخيها شدُّ دائم، إذ بدا هو المفضّل دائمًا.

وكان يؤلمها أن يُشاد بواجباته المدرسية، فيما يُقابل عملها - وهي في الأصل مجتهدة - بفتور. وأخيرًا لم تُعدّ تحتمل، فألحّت تسأل: لِمَ لا يُقدَّر إنجازها؟

هكذا نفهم أن هذه الفتاة كانت تطلب «المساواة»، وأنها - من أول أمرها - استشعرت نقصًا وسَعَت لتجاوزه. وكانت وسيلتها في المدرسة للتعويض أن تصير «تلميذة فاشلة»؛ حاولت أن تُنافس أخاها بنتائج متدنية! لم يكن ذاك محبوبًا لديها، لكنها تصرّفت - بحسب فهمها الطفولي - بعقلانية: إذ بدا ذلك طريقًا ممتازًا لاجتذاب انتباه الوالدين. وبعضُ حيلها كان واعيًا؛ فقد صرّحت بأنها تريد أن تكون فاشلة!

ومع ذلك لم يَعْنِ الوالدان كثيرًا بإخفاقاتها المدرسية، فحدث أمرٌ لافت: إذ أظهرت فجأةً تفوقًا ملحوظًا، وكانت أختها الصغرى قد ظهرت على المسرح بدورٍ جديد؛ فهي الأخرى أخفقت، لكنّ أمّها أولت إخفاقاتها اهتمامًا كبيرًا كما أولت نجاح أخيها. ذلك أن إخفاق الأخت سلك طريقًا آخر: فبينما كانت مريضتنا تنال تقارير سيئة في العمل الأكاديمي فحسب، كانت أختها تُؤتي تقارير سيئة في السلوك والتصرّف - وهذا ذو أثرٍ اجتماعيٍّ مختلف؛ إذ تستتبع تلك التقارير «طوارئ» تُجبر الوالدين على ترك كلِّ شيءٍ والانشغال بالطفلة.

لقد خسرت معركة المساواة مؤقتًا؛ وخسارتها لا تُفضي إلى سلامٍ دائمٍ - فلا أحد يحتمل وضعًا كهذا. ومن ثمّ وجدت طرقًا أخرى لاجتذاب الانتباه، وتركت هذه الطرق آثارًا باقيةً في شخصيتها. الآن نفهم معنى «الضجّة» و«العجلة» و«التشبّث بصورة المشغولة دومًا»: كانت موجّهة في الأصل إلى أمّها بهدف صرفٍ اهتمام الوالدين عن أخيها وأختها، وهي في الوقت نفسه ملامةٌ تُلقِيها عليهما لِمَا رآته من حَيْفٍ.

ويمكن الرجوعُ أبعـد: فلها ذكرى طفوليةٌ جليّةٌ أنها رغبت – وهي في الثالثة – أن تضربَ أخاها الرضيعَ بقطعةِ خشب، ولولا تدخُّلُ الأم لأصابته. كانت قد أدركت حتى في تلك السن أنها أقلُّ تقديرًا لأنها «مجردُ فتاة». وتذكّر كم مرّةٍ أعلنت أنها تريد أن تكون «صبيّة». لم يُخرج قدومُ أخيها إيّاها من دفءِ عشّها فحسب، بل أشعرها بإهانةٍ أيضًا، إذ كان يُعامل – بوصفه صبيًّا – معاملةً أرفع. وفي سعيها لتعويض هذا النقص لجأت إلى حيلةِ الظهور «دومًا مثقلّةً بالعمل».

فلنُترجم الآن أحدَ أحلامها لنبيّن مدى رسوخ النمط: رأت نفسها في البيت تُحدث زوجها، غير أن الزوج بدا لها «امرأة». إنه ترميزٌ لموقفها من تجاربها وعلاقاتها: لقد تحقّقت المساواة مع زوجها؛ لم يُعد الرجلُ المهيمن – كما كان أخوها – بل صار «امرأة»: لا فرق في المنزلة. لقد حقّقت في الحلم ما تمنّته منذ طفولتها.

بهذه الطريقة ربطنا نقطتين في التطوّر النفسي للفرد، واكتشفنا «أسلوب حياته» ومسارَه ونمطَ سلوكه، واستطعنا أن نكون صورةً موحّدةً يمكن تلخيصها في الآتي: نحن بإزاء شخصٍ يسعى إلى دور المسيطر بوسائلٍ وديّة – «قبضةً من حديدٍ في قفازٍ مخملي».

## الخصائص النفسية

### الاستعداد للحياة

من المبادئ الأساسية في علم النفس الفردي أن جميع الظواهر النفسية تصبّ في غايةٍ محددة. وفي مسار النمو النفسي، كما أسلفنا، نرى استعدادًا دائمًا لمستقبلٍ يُفترض فيه أن تتحقّق رغباتُ الفرد؛ وهذه خبرة إنسانيةٌ كونيةٌ لا يكاد أحد يفلت منها. فالملاحم والأساطير والحكايات التي تُصوّر حاليًا مثاليةً آتيةً تدور كلّها حول هذا المعنى؛ والإيمانُ بيومٍ تُستعاد فيه “جنّةٌ” مفقودة، وتردّدُ صدهاء في شتى الأديان، وكذا الاعتقادُ بخلود الروح

أو بتناسخها – كلُّ ذلك يشهد لقناعةٍ راسخةٍ بقدرة النفس على بلوغ حالٍ جديدةٍ تمامًا. وحتى الحكايةُ الخرافية ذات النهاية السعيدة إنما تشهد على أن رجاء البشر في غدٍ مُبهج لم يَخْبُ قط.

وفي نموِّ الطفل، تبدو ظاهرةٌ ذاتُ شأنٍ تُجسِّد الاستعداد للمستقبل أوضح تجسيد: هي «اللعب». فلا ينبغي عدُّ الألعاب اختراعاتٍ عَرَضِيَّةً للآباء أو المعلمين، بل وسائلَ تعليمٍ ومحفِّزاتٍ لخيال الطفل ونفسيته ومهاراته الحياتية؛ فكلُّ لعبةٍ تدريبٌ للمستقبل. وطريقةُ تعامل الطفل مع لعبته، واختياره لها، والقدْر الذي يَسْمِها بالأهمية – كلُّها تكشف موقفه من بيئته وكيف يتصرّف إزاء إخوانه من البشر؛ هل هو ودودٌ أم عدائي؟ وهل تُبدي لعبه نزوعًا إلى القيادة أم لا؟ ومن خلال مراقبة اللعب يمكننا، في الغالب، لمسَ موقف الطفل الكامل من الحياة؛ فاللعبُ – بهذا المعنى – قيمةٌ قصوى لكل طفل.

غير أن اللعب أكثرُ من تهيئةٍ للحياة؛ فهو قبل كل شيء تمرينٌ جماعيٌّ يُنمي الشعور الاجتماعي. والأطفالُ الذين يفرّون من اللعب أو يفسدونه على الآخرين يثيرون، على الدوام، شبهةً ضعف التكيّف؛ إذ ينسحبون عن طيب نفس، أو، إن خالطوا أقرانهم في الملعب، قلبوا المتعةَ نكدًا. وأشيحُ علل ذلك ثلاثة: الكبر، وقلةُ الثقة بالنفس، والخوفُ – الطافي منه والخفي – من «الخطأ». وعلى الجملة، تكفي متابعةُ اللعب لنستدلّ بدرجةٍ كبيرة من اليقين على مدى الشعور الاجتماعي لدى الطفل وكيفيته.

ويتجلّى «هدفُ التفوّق» في اللعب كذلك؛ إذ يظهر في نزوع الطفل إلى القيادة والتنظيم. ويمكن اكتشافه بملاحظة كيف يدفع نفسه إلى الصدارة، وإلى أيِّ حدٍّ يفضّل الألعاب التي تتيح له إشباعَ رغبته في دور القائد. ونادرًا ما تخلو لعبةٌ من واحدٍ على الأقل من هذه العوامل الثلاثة: الاستعداد للمستقبل، أو تنمية الحسّ الاجتماعي، أو السعي إلى الهيمنة.

ومع ذلك، ثمة عاملٌ آخر حاضرٌ في اللعب: هو فسحة التعبير عن الذات. فالأطفال، إلى حدِّ ما، تُركوا لبداهتهم في أثناء اللعب، ويحفز احتكاكهم بغيرهم أداءهم، بل هناك طائفةٌ من الألعاب تُبرز هذا الجانب الإبداعي بجلاء. وفي التهيؤ لمهنةٍ آتية، تزداد قيمة الألعاب التي تفسح المجال لروح الابتكار؛ وليس نادرًا، في سير الحياة، أن ترى من كان يصنع في طفولته ثيابًا لدمي، ثم يصير في الكبر خياطًا لثياب الكبار.

واللعب وثيقُ العلائق بالنفس؛ فهو - إذا صحَّ التعبير - «مهنة» ينبغي أن تُحترم كذلك؛ لذا ليس هيئًا أن تُقاطع طفلًا في لجة لعبه، ولا أن تُعامل اللعب محضَ تمضية وقت. وعلى صعيد الاستعداد للمستقبل، يحمل كلُّ طفلٍ في داخله شيئًا من سمات الرشد الذي سيصير إليه، ومن ثمَّ كنَّا - حين نقيِّم الأفراد - أدقَّ نظرًا وأحكمَ تقديرًا كلما أخطنا بعلم طفولتهم.

## الاهتمام والتثيت

الانتباه من أبرز سمات النفس الإنسانية، وهو في طليعة إنجازات البشر. فعندما نركز على حدثٍ ما في داخلنا أو خارجنا، نشعر بتوترٍ خاص لا يسري في الجسد بأسره، بل ينحصر في حاسةٍ معينة كالعين مثلاً، فنحسُّ كأن معلوماتٍ تُعالج في موضعٍ محدد. وحين نُثبت نظرنا، يأتينا هذا الشعور المميز بالتوتر.

وإذا أثارت محاولة التركيز توترًا في جزء من النفس أو في عضلةٍ بعينها، فإن سائر التوترات الأخرى تُستبعد تلقائيًا؛ فبمجرد أن نريد الانتباه إلى أمرٍ معين، نسعى في الوقت نفسه إلى إقصاء كل ما سواه من مُشتتات. الانتباه، من منظور النفس، استعدادٌ للتعامل مع واقعٍ أو موقفٍ محدد، قد يكون استعدادًا للهجوم، أو على الأقل حشدًا لكل الحواس نحو غايةٍ واحدة.

وكل إنسان، مهما كان مرضه النفسي، يمتلك هذه القدرة. فلماذا إذن يوجد كل هذا العدد من "غير المنتبهين"؟ الأسباب متعددة. فالتعب والمرض يضعفان الانتباه، وكذلك قد يعزف بعض الأفراد عن التركيز لا لعجزٍ فيهم، بل لأن ما يُطلب منهم لا ينسجم مع نمط حياتهم، بينما تراهم ينتبهون بقوة إذا تعلق الأمر بما يُلائم أهدافهم. وهناك من يفتقر إلى الانتباه بدافع المعارضة؛ فكثير من الأطفال يُبدون ميلًا فطريًا إلى العرقلة، يجيبون بـ "لا" على كل اقتراح. هنا يبرز دور المربي الحصيف الذي يربط المواد التعليمية بميل الطفل فيجعلها أقرب إلى أسلوبه في الحياة.

وإذا كان بعض الناس يلتقطون كل مثير بصري أو سمعي، فإن الأغلب تغلب عليهم حاسة واحدة. فهناك من يعيش عبر عينيه أكثر من أي شيء آخر، وآخرون لا يكادون يرون شيئًا لكنهم يصغون إلى أدق الأصوات. ولهذا قد نرى من يبدو غافلاً في موقف يتطلب الانتباه الكامل، لا لضعفٍ في قدرته، بل لأن المثير لم يلمس حاسته السائدة.

وأعمق ما يوقظ الانتباه هو الاهتمام الحقيقي بالعالم. فحيثما وُجد الاهتمام، وُجد الانتباه معه، وصار وسيلةً لتوسيع المعرفة نحو غايةٍ محددة. لكن الاهتمام لا ينشأ دائماً في الاتجاه الصحيح؛ فقد يترسخ في النفس كاهتمامٍ مشوّه إذا وُجّه إلى ما لا يخدم الاستعداد للحياة. فإذا انصرف المرء إلى جسده أو إلى قوته، بات منتبهًا لكل ما يخص هذا الجانب، حيثما وجد مكسب أو حيثما استشعر تهديداً. وهنا نفهم كيف يستيقظ انتباه الأطفال فجأةً حين تكون مكانتهم على المحك، بينما يتبدد بسرعة إذا شعروا بأن وجودهم غير مُجدٍ.

ولذلك لا يصح القول بأن أحداً "لا يستطيع التركيز"، بل الأدق أنه لا يريد التركيز على ما يُطلب منه، ويستبدل به موضوعاً آخر يستغرقه. حتى ضعف الإرادة أو قلة الطاقة، مما

يُظن أنه عجز في التركيز، ليس إلا إصرارًا وعننًا في وجهة مغايرة. والتعامل مع هذه الحالات لا يتم إلا بتغيير نمط حياة الفرد كله. ففي كل مرة نتأملها، نجد أننا إزاء اضطراب لا ينبع من نقص في القدرة، بل من انحراف الهدف.

ولئن أصبح الإهمال عادةً راسخة، فهو في حقيقته صورة من صور هذا التشيت المقصود، فكم نصادف أناسًا إذا أُوكلت إليهم مهمة إما رفضوا إنجازها، أو أنجزوها على نحو ناقص، أو تهرّبوا منها، حتى غدوا عبئًا دائمًا على غيرهم. هكذا يتحول الإهمال، مع تكراره، إلى سمة شخصية ثابتة تطلُّ برأسها كلما طُلب منهم عمل.

## الإهمال الجنائي والنسيان

نميل إلى الحديث عن الإهمال الجنائي حين تُعرّض الصحة أو السلامة للخطر بسبب إغفال الاحتياطات الواجبة؛ وهو ظاهرة تكشف أقصى درجات ضعف الانتباه، وتستند في جوهرها إلى فتور الاهتمام بالآخرين. ويمكننا، بملاحظة دلائل الإهمال في لعب الأطفال، أن نميّز هل يفكر الطفل في ذاته وحدها أم يراعي حقوق من حوله؛ فهذه العلامات مؤشرات دقيقة على الوعي الاجتماعي والشعور بالانتماء. ومن لم تتطوّر لديه الروح الاجتماعية بالكفاية لا يكاد يلتفت إلى زملائه إلا بمشقة، حتى تحت وطأة العقوبة؛ أمّا إذا كان الشعور الاجتماعي سليمًا ناميًا، فإن هذا الالتفات يغدو بديهيًا. لذا فالإهمال الجنائي تعبير عن نقص في الشعور الاجتماعي، ومع ذلك لا يسوغ لنا الإدانة قبل أن نلمس سبب خفوت عناية الفرد بإخوانه عمّا نتوقعه منه.

كما نستطيع أن نتسبب في النسيان، أو نُهيئ لفقدان الأشياء القيّمة، عبر تضيق نطاق انتباهنا؛ فالمواقف العدائية قد تقيد إمكان يقظة الانتباه والاهتمام، فتجعل النسيان حتميًا، أو على الأقل أكثر وقوعًا. هكذا، حين يضيع الأطفال كتبهم المدرسية، يكون



جليًا أنهم لم يألّفوا بعد محيطهم المدرسي؛ والذين يُكثرون فقدان المفاتيح أو وضعها في غير موضعها غالبًا ما لم يسلموا أنفسهم لمسؤولية دورهم. والنسيان، في المعتاد، وسيلة من يرفض التمرد علنًا، غير أن نسيانه يفضحه إذ يدل على قلة الاكتراث بواجباته.

كثيرًا ما تصف حالاتنا أناسًا لا يفقهون آلية عقولهم؛ فالمرء اليقظ نادرًا ما يسعه أن يخبرك لماذا يفكر على هذا النحو. وبعض العمليات العقلية تجري خارج نطاق الوعي: نستطيع أن نفرض الانتباه بإرادة واعية إلى حد ما، لكن باعث هذا الانتباه لا يكمن في وعينا بل في مصلحتنا، وهذه بدورها تكون في الغالب راسية في منطقة اللاوعي. وعلى هذا الاتساع، يغدو هذا جانبًا مهمًا من حياة النفس.

يجوز لنا أن نفتش عن نمط سلوك الأشخاص في لاوعيتهم فنظفر به هناك، إذ لا يكون في حياتهم الواعية إلا انعكاسًا، كالسالب الفوتوغرافي، نتعامل معه. فالمرأة المغرورة، مثلاً، لا تعي غالبًا مواطن غرورها، وستتصرف بحيث تقدم للعالم صورة تواضعٍ آسر؛ وليس لزامًا على المرء أن يعرف غروره كي يكون مغرورًا. بل إن معرفتها بذلك لا تُغني، لأنها لن تستمر لو صارت واعيةً به على هذا النحو. ومن الحيل التي تمنحنا أمنًا زائفًا أن نصرف انتباهنا إلى أمر خارجي أو غير ذي صلة، فتجري العملية كلها في الخفاء. ولو حدثت رجلاً مغرورًا عن غروره لشقّ عليك الحديث؛ إذ يميل إلى المراوغة والالتفاف، فيتخذ فورًا وضعًا دفاعيًا اتقاءً لانكشاف لعبته الصغيرة.

يمكن تقسيم الناس، على وجه التقريب، إلى نمطين: من يعلمون أكثر من المتوسط عن حياتهم اللاواعية، ومن يعلمون أقل. وغالبًا ما نرى أفراد النمط الثاني محصورين في مجال ضيق من النشاط، بينما يسكن أصحاب النمط الأول عالمًا ذهنيًا أوسع، وتتسع اهتماماتهم بالأشخاص والأشياء والأحداث والأفكار. أمّا من يشعرون بالتهميش فيكتفون

بجزء صغير من الحياة، إذ يستبدّ بهم إحساس الغريب في أرضٍ غريبة، فلا يبصرون مشكلات الحياة كما يبصرها مَنْ “يلعبون لعبة الحياة وفقاً لقوانينها”. هؤلاء رفقةٌ عسيرة، وأقل قدرةً على التقاط دقائق الحياة؛ وبسبب ضيق اهتمامهم لا يدركون إلا جزءاً يسيراً من مشكلاتها، خشيةً أن يُفضي الأفق الأوسع إلى خسارة القوة الشخصية.

وكثيراً ما يجهل الناس مهاراتهم الحياتية لأنهم يُنقصون من أقدار أنفسهم، كما نجد كثيرين لا يدركون عيوبهم إدراكاً كافياً؛ فقد يحسب المرء نفسه صالحاً وهو يفعل كل شيء بدافع الأنانية، وقد يرى نفسه أنانياً حيث تُظهر التحليلات الدقيقة أنه في غاية الطيبة. وليس العبرة بما تظنه بنفسك ولا بما يظنه الآخرون بك، بل بموقفك العام من المجتمع، لأنه هو الذي يحدد رغباتك واهتماماتك وأنشطتك قاطبة.

ونحن، مرةً أخرى، بإزاء نمطين: فهناك من يعيشون حياةً أوعى، يتناولون مشكلات الحياة بموضوعية ووضوح، وهناك من يتعاملون معها بعينٍ متحيزةٍ فلا يرون إلا جزءاً صغيراً منها. ويُفصح سلوك هؤلاء وحديثهم دائماً عن مواقف لا واعية؛ وقد يلقي اثنان يعيشان معاً صعوباتٍ لأن أحدهما، أو كلاهما، يكون معرقلًا على الدوام، وهو أمر مألوف ربما أكثر مما نتصور. وكل طرفٍ لا يعي عرقلته، ويجزم أنه على حق، وأن كل ما يبتغيه حياة هادئة؛ غير أن الوقائع تدحضه، إذ لا يكاد ينطق بكلمة إلا وقد هاجم شريكه، ولو لم يبدأ هجومه بيئاً للغرباء. وبالتدقيق نكتشف أنه استسلم لعدوانية دائمة.

ينمّي البشر في ذواتهم قوى تعمل باستمرار من غير وعيٍ منهم؛ وهذه القدرات الكامنة تؤثر في حياتنا، وقد تجرّ عواقب وخيمة ما لم تُكشف وتُعالج. وقد وصف دوستويفسكي ذلك وصفاً بارعاً في “الأبله”، حتى ظلّ علماء النفس يُعجبون به: ففي مجلس اجتماعيٍّ تُمازح سيدة بطل الرواية محذرةً من إفساد مزهرية صينية نفيسة إلى جواره؛ يطمئنّها، ثم

لا تلبث المزهرية أن تتحطم. ولا يرى أحدُ الحادثِ محضَ مصادفة، بل يحسّون أنه وقع “باحتامية” متناسقة مع شخصيته التي شعرت بالإهانة من مزحتها.

وعند الحكم على الناس، لا ينبغي أن نقف عند أفعالهم الواعية وتعبيراتهم، إذ كثيرًا ما تمنحنا التفاصيل الصغيرة في التفكير والسلوك، التي لا يلاحظونها هم أنفسهم، فهمًا أعمق لطبيعتهم. فمن يقضمون أظفارهم أو يعبثون بأنوفهم، مثلًا، لا يدرون أنهم يكشفون عن عنادٍ مستحكم، لأنهم لا يفهمون الدافع إلى هذه العادات؛ ويمكن الافتراض أن الطفل قد وُبخ مرارًا عليها، فإذا استمسك بها بعد التوبيخ دلّ ذلك على الشدة في العناد. وبمزيد من الخبرة نستطيع، من هذه الجزئيات الكاشفة، أن نستخلص أحكامًا بعيدة المدى عن الشخص كله.

وتُبين الحالتان الآتيتان أهمية بقاء خبراتٍ لا شعورية في اللاوعي لصون السلامة النفسية. فالنفس قادرة على التحكم في الوعي: ترفع ما تريد إلى السطح، وتدع ما تريد في القاع، بل تُزحج ما يُقلقها إلى اللاوعي حفاظًا على راحة الفرد.

الحالة الأولى لفتى أكبر الأبناء نشأ مع أختٍ أصغر، توفيت أمّه وهو في العاشرة، فتولّى الأب - وهو رجل مستقيم طيب ذكي - تربيته، وكرّس جهده لصوغ طموحه، فصار الفتى الأول في صفّه، متفوقًا خاصةً في العلوم، مستقيم الخلق، قائدًا بالفطرة، فكان سرور أبيه به عظيمًا وتوقع له شأنًا كبيرًا. غير أنّ الأختَ غدت منافسةً عنيدة، تُحسن استثمار ضعفها لجذب الانتباه داخل البيت، فاكتمبت مهاراتٍ منزلية واسعة لا يسهل على أخيها مجاراتها فيها؛ وعانى الفتى في الفوز بالتقدير داخل البيت كما فاز به خارجه. ثم لاحظ الأب عليه موقفًا اجتماعيًا غريبًا يزداد مع البلوغ: حذرٌ من كل علاقة جديدة، وهربٌ من الفتيات، وانكماشٌ حتى لا يكاد يخرج إلا ليلاً، ثم انطواءً حتى امتنع عن

تحية معارفه، مع بقاء موقفه في المدرسة، وتجاه أبيه، بلا مطعن. ولمّا استعصى أمره أخذ إلى الطبيب، فكشفت جلسات قليلة أن الفتى يعتقد أن أذنيه صغيرتان وأن الناس يعدّونه قبيحًا؛ وكانت أذناه، في الواقع، طبيعيتين، فلما أبطل عذره بالأذنين استجار بأسنانٍ وشعرٍ “قبيحين” أيضًا! وكان طموحه شديدًا، واعيًا به، ويراه من غرس أبيه؛ وخططه المستقبلية أن يصير عالمًا كبيرًا. ولتحقيق ذلك قرّر – لا وعيًا – أن يستبعد من حياته كل “مُلهٍ” غير ضروري، فجعل افتقاره المزعوم للجاذبية ذريعةً لتعليل انسحابه الاجتماعي، إذ لا يسعه أن يصرّح: “سأعيش كالناسك لأتفرغ لهدفي”، لأن مثل هذا التصريح يُضحكه الناس ويُضعف شعوره بالأمان، فأثر أن يدير الدفة من تحت الوعي. ولو كشفت له هذا الدافع لزعزعت اتزانَه؛ فالمرء لا يبوح إلا بما يخدم موقفه، ويُلقى إلى اللاوعي كل ما يعوقه.

أما الحالة الثانية فلفتى في الثامنة عشرة، حفّزه أبوه المعلم منذ الصغر ليكون الأول، فكان سلسلة من الانتصارات أينما حلّ، محبوبًا، ذا أصدقاء كثيرين؛ ثم طرأ عليه انقلاب: اكتئاب، فتور، عزلة، قطعٌ للصدقات، مع تباطؤٍ دراسي وإخفاقٍ جامعي. وقد عزّا كل ذلك إلى أبيه الذي “سلبه” البهجة، ورأى أن انسحابه مبرّرٌ لسوء تربيته؛ وهكذا رصّ حجبًا تحفظ كرامته: ماضٍ مجيد يمنع أن يُتهم بنقص الموهبة، وحاضرٌ متعثرٌ “ذنبه” على الأب. وتعمل هنا فكرةٌ لا واعية أشبه بأن يقول المرء لنفسه: “ما دمتُ لن أستطيع أن أظل الأول، فالأولى بي أن أنسحب قبل أن أُهزم”، غير أنه لا يصرّح بها، بل يلوذ بتأثير الأب ليستبقي تقدير الذات.

ولوقتٍ طويل ظن الناس أن الأحلام تُتيح أن نستخلص من بنيتها شخصية الحالم، وقد بالغ ليشتنبرغ حين قال إن شخصية المرء تُستخرج من أحلامه أدقّ من أفعاله وأقواله؛ فوجهة نظرنا أن الظواهر النفسية لا تُفهم إلا في سياقٍ واسعٍ يعضده دليلٌ من وجوه أخرى. ومحاولات تفسير الأحلام قديمة قدم التاريخ، وكان العامة أمهر منا بها في عصورٍ سالفة،

وللأحلام في أدب الإغريق والكتاب المقدس شأنٌ معروف. ونحن لا نعتمد دلالة الحلم إلا إذا عضدتها ملاحظاتٌ أخرى دقيقة. ومع بقاء الاعتقاد بطابع "مستقبلي" للأحلام، نرى أن الحلم لا يعدو أن يكون جسراً بين الأمس والغد؛ فإذا عرفنا موقف الشخص من الحياة وكيف يصل الحاضر بالمستقبل أمكن، في الغالب، فهم هندسة هذا الجسر في أحلامه.

وقد رأينا نماذج لذلك: زوجةٌ تحلم بأن زوجها نسي ذكرى الزواج - وهي في الواقع لا تحدث - فتجلو لنا مخاوفها من الإهمال، وميلاً إلى اللوم بفرضياتٍ مستقبلية؛ ثم حلمُ الدرج الشاهق والدوار الذي يغدو استعارةً لخوف "السقوط" العاطفي. وكذلك حلمُ غوته في "أغنية الزواج"، حيث يُعبّر اللاوعي بصورة مصغرة عما سيُقرّره اليقظ في نهاره. وعلى المنوال نفسه نقرأ حلمَ الرجل ذي العقدة القديمة، الذي غمرته الهزائم والصرامة في طفولته، فحلم بسفينة تغرق وأمتعة ينقذها، وهاوية ينزلق على جدرانها وحبالٍ لا يجروء على قبضها؛ وهو تصويرٌ بليغٌ لانسحابه من التعاون، وتمسّكه بممتلكاته النفسية "الثمينة"، وخوفه من الاعتماد المتبادل.

ويبقى أن كثيراً من الأحلام لا يفهم بلا إرشادٍ وتأويلٍ مُحكم، وأن قيمتها الكبرى في أنها تُكثّف الدوافع وتمنح الحالم دفعةً في الاتجاه الذي مهّد له نمطُ حياته؛ فالحلم عمودٌ دخانٍ يدل على نارٍ تحت السطح، ومن خبر الدخان عرف نوع الحطب، كما يعرف الطبيب النفسي من بنية الحلم نمطَ سلوك صاحبه. وخلاصته أنه لا يكشف فحسب عن سعي الحالم إلى حلّ مشكلته، بل يكشف كذلك عن طريقته في المعالجة، وبخاصة مقدار شعوره الاجتماعي ونزعتَه إلى السيادة؛ وهما القوتان اللتان تصوغان علاقته بالعالم والواقع.

وعند درس الخصائص التي تُعيننا على فهم الأفراد، لم نتطرق بعدُ إلى القدرات الفكرية؛ وقد آثرنا ألا نعلق وزنًا كبيرًا على ما يقول المرءُ أو يظنّه عن نفسه، لعلنا بأن كلاً منا يُجمل صورته بأساليب خفية متنوّعة. ومع ذلك يجوز لنا أن نستنبط استنتاجاتٍ محدودة من بعض العمليات الفكرية والتعبير اللغوي، فلا يستقيم أن نستبعد الفكر والكلام إذا أردنا حكمًا أدقّ.

أما ما نسمّيه “الذكاء” – أي القدرة الخاصة على إصدار الأحكام – فقد كان موضوعًا لاختباراتٍ كثيرة للأطفال والراشدين؛ غير أن هذه الاختبارات لم تؤت ثمرًا يُعوّل عليه: فنتائج الصف تكاد تُدرك بالملاحظة دون حاجة إلى اختبارات، وفوق ذلك فإن نموّ قدرات الحكم لا يسير على وتيرة واحدة، فيُخفق من ينجح اليوم وينجح من أخفق أمس. ويؤثر الوسط الاجتماعي والثقافي في الاستعداد لهذه الاختبارات، فيحصد أبناء المدن والأسر الميسورة درجاتٍ أعلى لا لأنهم “أذكى” بالضرورة، بل لاتساع خبراتهم؛ وقد دلّت تجارب برلين وهامبورغ على أن طلابًا حازوا درجاتٍ عليا في اختبارات الذكاء تعثروا تعثرًا شديدًا لاحقًا، مما يُضعف قيمة هذه الأدوات كمؤشّرٍ مستقبلي. وعلى الضد، أثبت منهج علم النفس الفردي وجاهته، إذ لم يَسعَ إلى قياس درجة جامدة، بل إلى فهم العوامل الإيجابية التي تنهض بالنموّ، ومنح الأطفال، عند اللزوم، فرصًا عملية لتحسين أوضاعهم. ومبدؤه ألا تُفصل قدرات الحكم والتفكير عن سائر عناصر النفس، بل تُفهم دائمًا في سياق الشخصية كلّها.

## ذكور وإناث

### الرجال والنساء وتقسيم العمل

من خلال تأملاتنا السابقة، أدركنا أن هناك اتجاهين رئيسيين يسيطران على جميع الأنشطة النفسية للإنسان. هذان الاتجاهان هما: الشعور الاجتماعي، والسعي الفردي وراء السلطة والتفوق. وكلاهما يؤثر في كل نشاط بشري، ويصغ سلوك الأفراد في سعيهم إلى تحقيق الأمن، كما يوجّه استجاباتهم للتحديات الثلاثة الكبرى في الحياة: الحب، والعمل، والعلاقات الاجتماعية. وعندما ندرس آليات النفس البشرية، يجب أن نتقن تحليل العلاقة الكمية والنوعية بين هذين العاملين إذا أردنا أن نفهم طبيعة النفس الإنسانية فهمًا صحيحًا. إن توازن العلاقة بين الشعور الاجتماعي والرغبة في السلطة هو ما يحدد مدى قدرة الأفراد على إدراك منطق الحياة الجماعية، وبالتالي مدى استعدادهم للخضوع لتقسيم العمل الذي تفرضه متطلبات هذه الحياة المشتركة.

إن تقسيم العمل عنصر حيوي لبقاء المجتمع البشري واستمراره. فلا بد لكل فرد، في وقت ما أو في مكان ما، أن يضطلع بدوره. ومن يرفض أداء دوره، أو ينكر قيمة الحياة الجماعية، يصبح، بحكم التعريف، عنصرًا معاديًا للمجتمع، رافضًا للانتماء إلى الجماعة البشرية. في الحالات البسيطة، يظهر هذا الموقف في صور الأنانية، أو الضغينة، أو إثارة المتاعب. أما في الحالات الأكثر تعقيدًا، فإنه يتجلى في صورة الغرابة والانطواء، أو الكسل واللامبالاة، أو حتى السلوك الإجرامي. وتنبع الإدانة العامة لهذه المواقف من إدراك أصولها وفهمها؛ إذ يشعر الناس بأن هذه السمات لا تنسجم مع متطلبات الحياة الاجتماعية المشتركة.

ومن هنا، فإن قيمة كل إنسان تُقاس بموقفه تجاه إخوانه في الإنسانية، وبمدى مشاركته في تقسيم العمل الذي تقتضيه الحياة الجماعية. فقبوله لهذه الحياة المشتركة يجعله عنصرًا نافعًا للآخرين، وحلقة في السلسلة الكبرى التي تربط المجتمع بأسره. وتحدد مكانة الأفراد في هذه السلسلة بحسب ما يملكون من قدرات. غير أن هذه الحقيقة البسيطة قد شابها الكثير من الالتباس، لأن نزعة التسلط والسعي إلى الهيمنة دفعت إلى إدخال مقاييس زائفة في تقسيم العمل الطبيعي. فالرغبة في السلطة شوّهت صورة التعاون الجماعي، وأقامت أسسًا خاطئة للحكم على القيم الإنسانية.

لقد أفسد الأفراد مبدأ تقسيم العمل حين رفضوا التكيف مع أدوارهم الطبيعية في المجتمع. ونشأت صعوبات أخرى من الطموح الأناني والجشع إلى السلطة لدى أولئك الذين تدخلوا في الحياة المشتركة لمصالح شخصية بحتة. كما أن التباينات الطبقيّة في مجتمعاتنا أضافت تعقيدات جديدة؛ إذ أثرت القوة الفردية والمصلحة الاقتصادية على بنية تقسيم العمل، فاحتكرت جماعات بعينها المناصب الأفضل، أي تلك التي تمنح أكبر قدر من السلطة، بينما استبعدت جماعات أخرى منها استبعادًا متعمدًا. إن إدراك هذه العوامل التي تعيق التوازن الاجتماعي يجعلنا نفهم لماذا لم ينجح تقسيم العمل في تاريخ الإنسانية في أن يسير بسلاسة كاملة. فالقوى الفاعلة دائمًا ما تعمد إلى إرباك هذا التقسيم، ساعيةً إلى فرض امتياز لمجموعة بعينها، وتبعية لمجموعة أخرى.

وإلى جانب هذه التحديات، يفرض الاختلاف بين الجنسين - كون البشر رجالًا ونساءً - نوعًا آخر من تقسيم العمل. ولأسباب مادية بحتة، استبعدت النساء عبر التاريخ من بعض الأنشطة، بينما لم تُسند إلى الرجال بعض المهام بحجة أنهم أصلح لأداء أعمال أخرى. كان من المفترض أن يستند هذا التقسيم على مبدأ النزاهة والعدالة. وعندما تناولت حركات تحرير المرأة هذه المسألة بموضوعية، أدركت منطوق هذا المبدأ. فليس الهدف



من تقسيم العمل أن يُسلب من المرأة جوهر أنوثتها، أو أن تُمس العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة. إن الصورة المثالية تكمن في أن تُتاح الفرصة للجميع، رجالاً ونساءً، ليؤدوا الأدوار التي تتوافق مع طبيعتهم وقدراتهم على أفضل وجه.

لقد نشأ هذا التقسيم في مسار الحضارة البشرية الطويل بوصفه وسيلة لتمكين كل طرف من القيام بدوره بما يخدم الطرف الآخر. فتولت المرأة بعض المهام بما يسمح للرجل أن يعمل بفاعلية أكبر في مجالات أخرى، والعكس صحيح. ومن هنا، فإن تقسيم العمل لا يستحق الإدانة ما دام يُمارس بإنصاف، وبعيداً عن سوء استخدام القدرات أو هدر الموارد، وما دام يُبنى على أساس التعاون الطبيعي بين الجنسين.

## هيمنة الذكور

نتيجةً لتطور ثقافتنا نحو السلطة الشخصية، لا سيما من خلال جهود بعض الأفراد وفئات المجتمع الراغبة في ضمان امتيازات لأنفسها، تبيّن تقسيم العمل هذا أنماطاً مميزة أثرت على حضارتنا بأكملها. ونتيجةً لذلك، تُشدّد أهمية الرجل بشدة في ثقافة اليوم. يُؤمن تقسيم العمل الفئة المتميزة - الرجال - بمزايا مُعيّنة، وهذا يُؤدّي إلى هيمنتهم على النساء في تقسيم العمل. وهكذا، يُوجّه الرجل المُهيمن نشاط النساء بطريقة تجعل الرجال ينالون دائماً نعيم الحياة، بينما تُكلّف النساء بالمهام التي يُفضّل الرجال تجنبها. في الوضع الراهن، هناك سعيّ مُستمر من جانب الرجال للسيطرة على النساء، واستياءً مُقابل من هيمنة الرجال على النساء. ونظراً لترابط الجنسين، يسهل فهم كيف يُؤدّي هذا التوتر المُستمر إلى الشقاق والاحتكاك، اللذين لا بدّ أن يكونا مؤلمين للغاية لكلا الجنسين.

جميع مؤسساتنا، ومواقفنا التقليدية، وقوانيننا، وأخلاقنا، وعاداتنا، تشهد على أن ذكوراً ذوي امتيازات يُحددونها ويحافظون عليها لمجد الهيمنة الذكورية. تمتد هذه المؤسسات حتى إلى حضانة الأطفال، ولها تأثير بعيد المدى على نفسية الطفل. لا يحتاج الأطفال إلى فهم كامل لهذه التأثيرات حتى تتأثر حياتهم العاطفية بها بشدة. هذه المواقف جديرة بالتأمل عندما نرى، على سبيل المثال، صبياً صغيراً ينفجر غضباً عندما يُطلب منه ارتداء ملابس "بناتية". إذا سمحت لرغبة الصبي في السلطة أن تصل إلى مستوى معين، فستجده بالتأكيد يُظهر تفضيلاً للامتيازات الذكورية التي، كما يُدرك، تضمن تفوقه في كل مكان.

سبق أن ذكرنا أن تربية الأطفال في عائلاتنا هذه الأيام غالباً ما تُبالغ في تقدير السعي وراء السلطة. وينشأ الميل الناتج عن ذلك إلى الحفاظ على الامتيازات الذكورية والمبالغة فيها بشكل طبيعي، لأن الأب عادةً ما يكون رمز القوة في الأسرة. يثير ذهابه وإيابه الغامض اهتمام الأطفال أكثر بكثير من الوجود الدائم للأم. يدرك الأطفال بسرعة الدور البارز الذي يلعبه والدهم. يلاحظون ما إذا كان الأب يحدد الوتيرة ويضع جميع الترتيبات ويظهر في كل مكان كقائد. يرون كيف يطيعه الجميع ويرون كيف قد تطلب الأم نصيحته. من كل زاوية، يبدو الأب هو القوي والمقتدر. هناك أطفال يتطلعون إلى آبائهم لدرجة أنهم يعتقدون أن كل ما يقوله الأب يجب أن يكون صحيحاً؛ ويثبتون صحة آرائهم الخاصة بمجرد تأكيد أن والدهم قال ذلك ذات مرة. وحتى في تلك الحالات التي يبدو فيها تأثير الأب أقل وضوحاً، فإن الأطفال سوف يظلون يشعرون بهيمنة الأب إذا بدا أنه يتحمل العبء الكامل للمسؤولية العائلية، في حين أن تقسيم العمل هو الذي قد يمكنه في الحقيقة من استخدام سلطاته لتحقيق مصلحة أفضل.

فيما يتعلق بتاريخ نشأة الهيمنة الذكورية، يجب الإشارة إلى أن هذه الظاهرة لا تحدث بشكل طبيعي. ويؤكد هذه الحقيقة الكم الهائل من التشريعات اللازمة لضمان هيمنة الذكور. كما أنها مؤشر على أنه قبل إنفاذ الهيمنة الذكورية قانونيًا، لا بد من وجود أوقات أخرى لم يكن فيها الامتياز الذكوري مضمونًا على الإطلاق. ويؤكد التاريخ ذلك. في أيام النظام الأمومي، كانت الأم - المرأة - هي التي لعبت الدور المهيمن، وخاصة فيما يتعلق بالأطفال. في ذلك الوقت، كان على كل رجل في العشيرة واجب احترام المكانة المرموقة للأم. لا تزال بعض العادات متأثرة بهذه المؤسسة القديمة، على سبيل المثال في بعض الثقافات، يحدث تقديم جميع الرجال الغرباء للأطفال بلقب "عم" أو "ابن عم". لا بد أن معركة شرسة قد سبقت الانتقال من النظام الأمومي إلى الهيمنة الذكورية. سيفاجأ الرجال الذين يعتقدون أن امتيازاتهم وصلاحياتهم تطورت طبيعيًا عندما يعلمون أنهم لم يمتلكوا هذه الامتيازات منذ البداية، بل اضطروا إلى النضال من أجلها. تزامن انتصار الرجال مع إخضاع النساء، ويتجلى ذلك بوضوح في تطور القانون، الذي يشهد على هذه العملية الطويلة من الإخضاع.

لذا، فإن الهيمنة الذكورية ليست أمرًا طبيعيًا. هناك أدلة تُثبت أنها تطورت أساسًا نتيجةً للمعارك المستمرة بين الشعوب البدائية، والتي تولى فيها الإنسان دور المحارب الأبرز، واستغل في النهاية تفوقه المكتسب حديثًا للاحتفاظ بالقيادة لنفسه ولأغراضه الخاصة. وتزامن مع هذه العملية تطور حقوق الملكية والميراث التي أصبحت أداةً للهيمنة الذكورية، حيث كان الإنسان عادةً هو المالك والمقتني للملكية.

مع ذلك، لا يحتاج الأطفال في طور النمو إلى قراءة كتب حول هذا الموضوع. فرغم أنهم لا يعرفون شيئًا عن التاريخ القديم، إلا أنهم يشعرون بأن الذكر هو العضو المتمتع بامتيازات في الأسرة. ويحدث هذا حتى عندما يرفض الآباء والأمهات، بفطنة واسعة،

تلك الامتيازات الموروثة من الماضي، سعيًا وراء مساواة أكبر. من الصعب جدًا إقناع الأطفال بأن الأم العاملة في المنزل لا تقل أهمية عن الأب الذي يقوم بعمل مسؤول خارج المنزل.

تخيّل ما يعنيه لصبيّ صغير يشهد هيمنة الذكورة منذ نعومة أظفاره. منذ ولادته، قد يُستقبل بحماس أكبر من الفتاة، لأن الآباء غالبًا ما يُفضّلون الذكور. يشعر الصبي في كل خطوة أنه، بصفته الابن والوريث، يحدثت بامتيازات أكبر وقيمة اجتماعية أعلى. تُلفت الملاحظات والحوادث العرضية انتباهه باستمرار إلى أهمية الدور الذكوري. كما تتضح له هيمنة الذكور عندما يرى عاملات يقمن بأعمال شاقة، وتعزز انطباعاته عدم اقتناع النساء من حوله بمساواتهن بالرجال.

السؤال الأهم الذي ينبغي على جميع النساء طرحه على أزواجهن قبل الزواج هو: "ما هو موقفك من سيطرة الرجل، وخاصةً في الحياة الأسرية؟". مع ذلك، نادرًا ما يُطرح هذا السؤال، بل وأكثر ندرة في الإجابة عليه. أحيانًا نجد النساء يسعين إلى المساواة، وأحيانًا نجد درجات متفاوتة من الاستسلام. في المقابل، نرى رجالًا مقتنعين منذ الصغر بأن لديهم دورًا أهم. يُفسرون هذا الاقتناع كواجب ضمني، ويركزون على مواجهة تحديات الحياة والمجتمع بأسلوب ذكوري متميز.

يستوعب الأطفال كل موقف ينشأ عن هذه العلاقة. وما يخرجون منه هو صورٌ متعددة عن طبيعة المرأة، تظهر فيها المرأة في أغلب الأحيان بصورةً بائسة. وهكذا، يكون لنمو الصبي تأثيرٌ ذكوريٌّ واضح. ما يعتقده الصبي أهدافًا جديرة بالاهتمام في سعيه نحو السلطة هي صفاتٌ ذكوريةٌ بحتة ونظرةٌ ذكورية. ينشأ الموقف الذكوري النموذجي من هذا ويكشف بوضوح عن أصوله. تُصنف بعض سمات الشخصية على أنها ذكورية،

وأخرى أنثوية، مع عدم وجود أساس موضوعي لهذه التقييمات. إذا قارنا سيكولوجية الصبيان والفتيات ووجدنا أدلةً تبدو داعمةً لهذا التصنيف، فإننا لا نتعامل مع ظواهر طبيعية، بل مع أفرادٍ وُجِّهوا عبر مسارٍ ضيقٍ للغاية، ضيّقت أنماط حياتهم وسلوكهم بمفاهيم محددة عن السلطة. وقد أشارت لهم هذه المفاهيم بقوةٍ مُلِحَّةٍ إلى مكانتهم في منظومة الأشياء.

لا مبرر للتمييز بين السمات الشخصية "الذكورية" و"الأنثوية". سنرى كيف تُستخدم كلتا المجموعتين من السمات لإشباع السعي وراء السلطة. بمعنى آخر، سنرى أن الشخص قد يسعى وراء السلطة من خلال ما يُسمى بالسمات "الأنثوية" كالطاعة والخضوع، تمامًا كما أن المزايا التي يحدثع بها الأطفال المطيعون أحيانًا تجعلهم أكثر بروزًا من الأطفال العاصين، مع أن السعي إلى السلطة موجود في كلتا الحالتين. غالبًا ما تُصعب هذه الحقيقة من تحقيقنا النفسية، وهي أن السعي إلى السلطة يمكن أن يعبر عن نفسه بأكثر الطرق تعقيدًا.

مع تقدم الصبي في السن، تصبح الرجولة واجبًا هامًا. فطموحه ورغبته في السلطة والتفوق مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بواجب الرجولة. بالنسبة للعديد من الصبية الطامحين للسلطة، لا يكفي مجرد إدراك رجولتهم؛ بل يجب عليهم إثبات أنهم رجال، وبناءً على ذلك يجب أن يحدثتوا بامتيازات. قد يحققون ذلك من جهة ببذل الجهود للتفوق؛ ومن جهة أخرى، قد ينجحون بالسيطرة على جميع الإناث من حولهم بكل الطرق الممكنة. وحسب درجة المقاومة التي يواجهونها، يلجأ هؤلاء الصبية إما إلى العناد والتمرد أو إلى الدهاء والمكر لتحقيق أهدافهم.

بما أن كل إنسان يُحكم عليه وفقاً لمعايير الذكر المتميز، فلا عجب أننا نرفع هذا المعيار دائماً أمام الصبي. لا مفر من أنه يقيس نفسه وفقاً له، ويلاحظ نفسه في العمل ويتساءل عما إذا كانت أنشطته "ذكورية" بما فيه الكفاية، وما إذا كان "رجلاً كاملاً". ما نعتبره "ذكورياً" في هذه الأيام، قبل كل شيء، شيئاً أنانياً بحثاً، شيئاً يرضي حب الذات ويجلب شعوراً بالتفوق والهيمنة على الآخرين. إنه يحقق كل ذلك بمساعدة خصائص إيجابية ظاهرياً مثل الشجاعة والقوة والتفاني في أداء الواجب وتحقيق جميع أنواع الانتصارات (خاصة على النساء)، واكتساب المناصب والأوسمة والألقاب، ومقاومة ما يسمى بالميول "الأنثوية"، وما إلى ذلك. هناك معركة دائمة من أجل التفوق الشخصي لأن الهيمنة تُعتبر فضيلة "ذكورية".

بهذه الطريقة، يُقلد كل صبي الصفات التي يراها في الرجال البالغين، وخاصة والده. ويمكننا أن نرى تداعيات هذا الوهم المُصطنع بالعظمة في مجتمعنا. في سن مبكرة، يُدفع الصبي إلى تأمين احتياطي من السلطة والامتياز لنفسه. هذا ما يُسمى "الرجولة". وفي الحالات السيئة، يتدهور هذا الوهم إلى غطرسة ووحشية.

إن مزايا كونك رجلاً، في ظل الظروف الحالية، مغرية للغاية. لذا، لا ينبغي أن نندهش عندما نرى العديد من الفتيات اللواتي يحدثسكن بمثل رجولية إما كرغبة بعيدة المنال أو كمعيار للحكم على سلوكهن. قد يتجلى هذا المثال كنمط لكل من السلوك والمظهر. يبدو أن العديد من النساء في ثقافتنا يرغبن في أن يكنّ مثل الرجال! في هذه المجموعة تحديداً، نجد فتيات لديهن رغبة جامحة في تمييز أنفسهن في ألعاب وأنشطة تناسب الأولاد أكثر لأسباب جسدية. يتسلقن الأشجار، ويفضلن اللعب مع الأولاد، ويتجنبن كل نشاط "أنثوي" باعتباره أمراً منجلاً. لا يجدن الرضا إلا من خلال الأنشطة الذكورية.

يمكننا أن نفهم تفضيلهن للرجولة عندما ندرك أن هدف التفوق يتعلق أكثر بالمعنى الذي نعلقه على الأنشطة منه بالأنشطة نفسها.

## النقص المزعوم للمرأة

دأب الرجل على تبرير هيمنته، ليس فقط بزعم أن هذا الوضع طبيعي، بل أيضًا بأن هيمنته تنبع حتمًا من دونية المرأة. هذا المفهوم لدونية المرأة منتشر على نطاق واسع لدرجة أنه يؤثر على جميع الأعراق. ويرتبط بهذا التحيز شعورًا ما بعدم الارتياح لدى الرجال، والذي ربما نشأ في زمن الحرب على النظام الأمومي عندما كانت قوة المرأة مصدر قلق حقيقي. ونصادف باستمرار دلائل على ذلك في الأدب والتاريخ. يكتب كاتب لاتيني: "Mulier est hominis confusio"، أي "المرأة هي حيرة الرجل". وكان من المواضيع الشائعة في النقاشات اللاهوتية مسألة ما إذا كانت للنساء أرواح، وكُتبت أطروحات علمية حول مسألة ما إذا كانت المرأة إنسانًا بالفعل. وتشهد قرون من مطاردة الساحرات بحزن على الأخطاء والمخاوف والالتباس حول مثل هذه الأسئلة، طوال تلك الحقبة المخزية.

غالبًا ما اعتُبرت النساء مصدر كل شر، كما في المفهوم التوراتي للخطيئة الأصلية، أو كما في إيذاة هوميروس. وقد أظهرت قصة هيلين كيف يمكن لامرأة واحدة أن تُلقي بأمم بأكملها في حالة من الفوضى والكوارث. وتتناول الأساطير والقصص الخيالية على مر العصور الدونية الأخلاقية للمرأة، وشرها ونفاقها، وغدرها وتقلبها. بل استُخدم مفهوم "حماقة المرأة" كحجة في القضايا القانونية. وإلى جانب هذه الأحكام المسبقة، يُضاف إلى ذلك استخفاف بقدرتها وعملها وذكائها. وتمتلئ الأمثال والحكايات والشعارات والنكات، في جميع الآداب وبين جميع الشعوب، بالإشارات المهينة للمرأة. وأُتهمت النساء بالحقْد والدناءة والغباء، وما إلى ذلك.

يمكن للرجال بذل جهود استثنائية للشهادة على دونية المرأة. وقد تضخمت صفوف رجال مثل ستريندبرغ وشوبنهاور الذين أيدوا هذه النظرية بعدد لا يُستهان به من النساء اللواتي استسلمن لفكرة دونيتهن. هؤلاء هنّ مناصرات واجب الخضوع للمرأة. ويتجلى تدهور المرأة وعملها في حصولها في كثير من الأحيان على أجر أقل من الرجل، بغض النظر عن تساوي قيمة عملهما. وبمقارنة نتائج اختبارات الذكاء والقدرات، وُجد أن الأولاد أظهروا موهبةً أكبر في بعض المواد، كالرياضيات، بينما أظهرت البنات كفاءةً أكبر في مواد أخرى، كاللغات. في الحقيقة، يُظهر الأولاد موهبةً أكبر من البنات في الدراسات التي تُؤهلهم للمهن التي تُعتبر تقليديةً ذكورية؛ لكن هذه الموهبة ظاهرةً أكثر منها حقيقية. وإذا دققنا النظر في وضع الفتيات، نجد أن قصة ضعف قدرات النساء كذبةٌ واضحة.

تعرض الفتيات يوميًا لحجج مفادها أنهن أقل قدرة من الأولاد، وأنهن قادرات فقط على القيام بأنشطة تافهة. لذا، ليس من المستغرب أن يقتنعن عاجلاً أم آجلاً بأن مصيراً مريئاً لا مفر منه محكوم عليهن بالنساء، ويؤمنن بنقصهن. بهذه الطريقة، تتجه الفتاة نحو المهن "الذكورية"، هذا إن أُتيحت لها الفرصة أصلاً، بعقلية منغلقة. تفترض، أولاً، أنها لن تهتم بها بما يكفي. وإذا اهتمت بها، فسرعان ما تفقد حماسها لقلة التشجيع والثقة بنفسها.

في ظل هذه الظروف، قد يبدو ما يُسمى بإثبات ضعف قدرة المرأة مُقنعاً. وهناك سببان لذلك. أولاً، يتفاقم هذا الخطأ لأن قيمة الإنسان غالباً ما تُحكم عليها من منظور تجاري بحت، أو لأسباب أحادية الجانب وأنانية بحتة. مع هذه الأحكام المسبقة، يصعب علينا فهم مدى توافق الأداء والقدرة مع النمو النفسي. وهذا يقودنا إلى النقطة الرئيسية الثانية المسؤولة عن مغالطة ضعف قدرة المرأة. كثيراً ما يُغفل عن أن الفتيات يولدن بتحيز يتردد



في أذهانهن، مُصمم فقط لسلبهن إيمانهن بقيمتن، وتحطيم ثقتهن بأنفسهن، وتدمير أملهن في القيام بأي شيء ذي قيمة. إذا تعزز هذا التحيز باستمرار، وإذا رأت الفتيات مرارًا وتكرارًا كيف تُسند إلى النساء أدوارًا خاضعة، فليس من الصعب فهم كيف يفقدن شجاعتهن، ويفشلن في الوفاء بالتزامتهن، ويحجمن عن مواجهة مشاكل الحياة. بعد كل هذا، فلا عجب أن تبدو الفتيات عديمات الفائدة وغير قادرات!

ومع ذلك، لو اقتربنا من أي إنسان، وقوّضنا احترامه لذاته فيما يتعلق بعلاقته بالمجتمع، وزرعنا فيه شعورًا باليأس من تحقيق أي شيء، ودمرنا شجاعته، ثم اكتشفنا أنه لم يُحقق شيئًا يُذكر، لما تجرؤنا على الادعاء بأننا كنا على حق منذ البداية. لا بد أننا سنعترف بأننا نحن من تسببنا في كل محنته!

من السهل في حضارتنا أن تفقد الفتاة شجاعتها وثقتها بنفسها. ومع ذلك، كشفت بعض اختبارات الذكاء عن حقيقة مثيرة للاهتمام وهي أن مجموعة معينة من الفتيات، تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة، أظهرن موهبة وذكاء أكبر من أي مجموعة أخرى، بما في ذلك الأولاد. وأظهرت أبحاث أخرى أن هؤلاء الفتيات جميعهن من عائلات كانت الأم فيها إما المعيل الوحيد أو ساهمت بشكل كبير في ميزانية الأسرة. كانت هؤلاء الفتيات في بيئة منزلية كان فيها التحيز تجاه ضعف قدرة المرأة إما غائبًا أو طفيفًا. كان بإمكانهن رؤية مكافآت عمل أمهاتهن الجاد بأعينهن، ونتيجة لذلك فقد تطورن بحرية أكبر واستقلالية أكبر بكثير، غير متأثرات تمامًا بتلك الموانع المرتبطة حتمًا بالاعتقاد بأن قدرات المرأة أقل.

هناك حجة أخرى تُفند صحة هذا التحيز، ألا وهي العدد الكبير من النساء اللواتي حققن مكانة مرموقة مساوية للرجال في مجالات واسعة، لا سيما في الأدب والفنون والحرف

والطب. إلى جانب هؤلاء النساء المتميزات، هناك بالطبع عدد مماثل من الرجال الذين لا يُحققون أي إنجاز، بل هم عاجزون تمامًا لدرجة أننا نستطيع بسهولة الاستشهاد بهم كدليل (وهمي بالطبع) على أن الرجال كانوا الجنس الأدنى.

من العواقب المريرة للتحيز المتعلق بنقص المرأة التقسيم الواضح للمفاهيم وتصنيفها: فكلمة "مذكر" تعني الجدير بالاهتمام، والقوي، والمنتصر، والقادر؛ بينما كلمة "أنثوي" مرادفة للطاعة، والخضوع، والتبعية. وقد ترسخت هذه الفكرة في الفكر البشري لدرجة أن كل ما هو محمود في حضارتنا يحمل دلالة "ذكورية"، بينما يُطلق على كل ما هو أقل قيمة أو مُهين اسم "أنثوي". جميعنا نعرف رجالاً يشعرون بإهانة بالغة إذا أخبرناهم أنهم يحدثون بصفات أنثوية، بينما لا يُعتبر قولنا لامرأة إنها تتمتع بصفات ذكورية إهانة. وينصب التركيز دائماً على أن كل ما يميز المرأة يبدو دونياً.

إن السمات الشخصية التي يُزعم أنها تثبت الادعاء الزائف بنقص المرأة، تكشف عند التدقيق أنها ليست سوى مظاهر لنمو نفسي مُكبّل. لا ندّعي قدرتنا على تحويل جميع الأطفال إلى ما يُسمى أفراداً "موهوبين"، ولكننا نستطيع دائماً تحويلهم إلى بالغين "غير موهوبين". ولحسن الحظ، لم نفعل ذلك بأنفسنا قط. ومع ذلك، نعرف آخرين نجحوا بامتياز. ومن السهل إدراك أن هذا المصير يصيب الفتيات أكثر من الأولاد في عصرنا. إضافة إلى ذلك، كثيراً ما رأينا هؤلاء الأطفال "غير الموهوبين" ظاهرياً يصبحون فجأة موهوبين للغاية لدرجة أن الأمر بدا أشبه بمعجزة!

## رفض دور المرأة

لقد تسببت المزايا الظاهرة للرجل في اضطرابات حادة في النمو النفسي للمرأة، فأفضت إلى استياء شبه عام من دورها. ويسير نمو المرأة العقلي، في الجملة، على النحو نفسه

وبحسب القواعد ذاتها تقريبًا التي يسير عليها نمو الرجل حين يشعر بنقص شديد في منزلته في الحياة؛ غير أنّ الفتاة تواجه تعقيدًا إضافيًا ومفارقة مصدره التحيز القائل بدونية وضعها الأنثوي المزعومة.

وإن نالت فتياتٌ كثيرات ضربًا من التعويض، فذلك بفضل شخصياتهن وذكائهن، وأحيانًا بفضل امتيازات مكتسبة؛ وهو ما يبيّن بوضوح كيف يمكن لخطأ واحد أن يجرّ إلى أخطاء أخرى. ومن هذه الامتيازات الإعفاءات الخاصة وإسقاط الالتزامات ورفاهيات تُكسب مظهرًا من التميّز كأنها إبداءٌ لاحترامٍ كبيرٍ للمرأة؛ ولعل فيها مسحةً من المثالية، إلا أنها في جوهرها مثالٌ صاغه الرجال لمصالحهم. وقد وصفت جورج ساند ذلك ببلاغة إذ قالت: «فضيلة المرأة من مبتكرات الرجل الباهرة».

ويمكن، على وجه العموم، تمييز ثلاثة أنماط من ردود أفعال النساء إزاء الصورة النمطية للأنثوية. وقد أشرنا إلى أحدها من قبل: الفتاة التي تتطور في اتجاه «ذكوري» نشط؛ فتغدو بالغة النشاط والطموح، وتكافح أبدًا لنيل مكافآت الحياة، وتجتهد في التفوق على إخوتها وأقرانها الذكور، وتختار أنشطة يختارها الرجال عادةً، وتميل إلى الرياضات التي يهيمنون عليها، إلى غير ذلك. وغالبًا ما تتجنّب علاقات الحب والزواج؛ وإن دخلت فيها عرضتها للاضطراب بسعيها إلى التفوق على زوجها. وقد تُبدي نفورًا شديدًا من أعمال البيت كلّها، وتصرّح به تصريحًا مباشرًا أو تومئ إليه ادّعاءً للعجز واليأس؛ فتثبت رأيها كل يوم بإظهار عدم كفاءتها المنزلية.

هذا هو النمط الذي يعوّض شرور الموقف الذكوري باستجابة «ذكورية»؛ فهي أبدًا في موقف دفاعي. وتُوصف بـ«المسترجلة» أو «الفتاة الولد» أو «المرأة الرجولية»، إلى آخر تلك التسميات المبنية على تصوّر خاطئ. يظن كثيرون أنّ عاملاً فطريًا في تركيبهن، كإفراز

«ذكوري» معين من الغدد، يفسّر هذا الموقف «الذكوري». غير أنّ تاريخ الحضارة برّمته يُظهر أنّ الضغط الواقع على النساء والقيود التي يُلزمُن بها - حتى اليوم - لا يطبقها إنسان، وأنها تُثير التمرد دائماً؛ فإذا تجلّت هذه الثورة في الاتجاه الذي نسمّيه «ذكورياً»، فسبب ذلك ببساطة أنه لا يُتاح في ثقافتنا سوى دورين جنسيين ممكنين: نموذج «المرأة المثلى» أو «الرجل الأمثل». وعلى هذا، يبدو رفض دور المرأة «ذكورياً»، والعكس بالعكس؛ وليس ذلك بفعل إفراز غدي غامض، بل لغياب أدوار أخرى. ولهذا ينبغي ألا نغفل صعوبات نمو الفتاة النفسي؛ فإلى أن نكفل لكل امرأة مساواةً مطلقة بالرجل، لا يسوغ أن نطلب منها تبني جميع أنماط السلوك المتوقّعة اجتماعياً.

والنمط الثاني هو المرأة التي تحيا في موقف استسلام؛ تُظهر درجة لا تُصدّق من التكيف والطاعة والتواضع، فتبقى - في ظاهر الأمر - في مكانها وتؤدي ما يُطلب منها، لكنها تُبدي من الخرق والعجز ما يجعلها لا تُجز شيئاً قط؛ وقد تُظهر أعراضاً عصبية لثري العالم ضعفها واحتياجها إلى الحماية، فتعلن، ضمناً: «انظروا إليّ، أنا أجتهد؛ ليس ذنبي أنني مريضة ولا أستطيع التكيف». وبحجة «المرض» تعجز عن مجابهة أيّ من تحديات الحياة مجابهةً مُرضية. وخضوعها وتواضعها وإنكارها لذاتها صادرٌ - في أصله - عن روح التمرد عينها التي عبّرت عنها صاحبة النمط الأول؛ ثورةٌ تقول بجلاء: «هذه ليست حياة لي!»

أما النمط الثالث فهو المرأة التي لا تتمرد على الدور الأنثوي بأي وجه، لكنها تحمل في داخلها وعياً مُعدّباً بأنها محكومٌ عليها بنقصٍ وتبعية؛ فهي مقتنعة بدونية المرأة، كما هي مقتنعة بأن الرجال وحدهم مدعوون إلى الأعمال الجليلة، فُتسلّم بمكانتهم المميّزة وتُضخّم جوقه الإشادة بالرجل فاعلاً مُنجزاً وتطالب له بمقامٍ خاص، وتُظهر ضعفها كأنها

تطلب جزاءً وتلتمس عوناً إضافياً؛ غير أنّ هذا الموقف مبدأ انتقامٍ مدبرٍ منذ زمن، إذ تُلقَى مسؤولياتها على زوجها وتعقّب ساخرةً: «هذا يحتاج إلى رجل!»

وعلى الرغم من أنّ قوماً يعدّون المرأة دونية، فإن تربية الأطفال تُوكل إليها - في الأغلب - إلى حدٍّ بعيد. فلنتخيّل هذه الأنماط الثلاثة في صلتها بهذه المهمة البالغة الأهمية والصعوبة؛ هنالك يتبيّن الفارق. فقد تكون نساء النمط الأول - ذوات الموقف «الذكوري» - شديداً الصرامة، مشغولات بالعقاب، فيفرضن على أطفالهن ضغوطاً هائلة يفرون منها بطبعهم؛ ومآل هذا اللون من التربية، في أحسن أحواله، تدريبٌ عسكريٌّ لا قيمة له. وغالباً ما يرى الأطفال أنّ الأمهات من هذا الصنف آباء سيئات؛ فالصراخ والضوضاء يسيئان أبداً، مع خطر أن تشبّه البنات بأمهاتهن وأن ينفر الأولاد من النساء. ونرى فيمن اکتوا بطغيان هذه الأمهات رجالاً يفرون من النساء فراراً الطاعون كأنهم لا يطيقون الثقة بأي امرأة؛ والنتيجة قسمةٌ جليةٌ بين الجنسين - وهو ما يسهل فهمه، على الرغم من حديث بعض الباحثين عن «توزيع خاطئ للعناصر الذكورية والأنثوية».

وأما النمطان الآخريان فغيرُ فاعلين أباً وأماً بالسواء؛ فقد بيدون من التردّد ما يكتشف معه الأطفال سريعاً افتقارهم إلى الثقة بالذات فيسقط سلطانهم؛ فتجدد الأمُّ جهدها وتكثر من النقد والتوبيخ وتهديد اللجوء إلى الأب. وطلبها «رجلاً» لفرض الانضباط خيانةٌ لنفسها مرّة أخرى، إذ تُظهر عدم ثقتها بمهاراتها التربوية، وتلقَى - عملياً - بمسؤوليتها على الزوج والمعلمين وكأنها تُبرر رأيها بأن الرجال وحدهم قادرون على كل شيء، ومنها تربية الأطفال؛ وقد تنفادى هذه النساء كل جهد تربوي وتُحيله إلى الأزواج والمدرسين من غير ندم، لشعورهن بالعجز عن النجاح فيه.

ويتجلى السخط على دور المرأة أوضح ما يكون في الفتيات اللواتي يفرن من الحياة لأسباب تُسمى «أسمى»؛ فالراهبات - وكلُّ من اختار مهنةً تشترط العزوبة - مثالٌ بيّن؛ إذ يكشف هذا الاختيار عن عدم قبولٍ للدور الأنثوي. وعلى المنوال ذاته تلتحق فتيات كثيرات بالعمل مبكرًا، لأن الاستقلال الذي يمنحه العمل يوفر - في الظاهر - حمايةً من خطر الزواج؛ وهنا أيضًا يكمن الدافع في النفور من أداء دور المرأة.

فماذا عن الحالات التي يقع فيها الزواج - حيث قد نظنُّ قبولاً للدور الأنثوي طوعاً؟ إن الزواج لا يعني - بالضرورة - أن الفتاة قد تصالحت مع دورها؛ ومثال امرأة في السادسة والثلاثين كاشف: جاءت تشكو أعراضاً عصبيةً متعددة. كانت البكر لزواج بين رجلٍ مسنٍّ وامرأةٍ شديدة التسلُّط؛ وحقيقةً أن أمًّا شابةً بالغة الجمال تزوّجت رجلاً عجوزاً تكفي للريبة في أن نفوراً من الدور الأنثوي كان عاملاً في ذلك الزواج، الذي لم يفضُ إلى سعادة. فقد حكمت الأمُّ البيتَ حكمَ «العذراء»، وأصرّت على إنفاذ ما تريد كائنًا ما كان، غير مبالية بمشاعر أحد، ودُفع الرجل العجوز إلى الزاوية عند كل فرصة؛ حتى إن الابنة روت أن أمها لم تكن لتدع أباهما يستلقي على الأريكة ليرتاح. وقد كرّست الأمُّ نشاطها لحفظ «مبادئ الاقتصاد المنزلي» كما تراها، فعدت قوانين مطلقاً للأسرة.

نشأت مريضتنا طفلةً كُفءًا محبوبَةً لدى أبيها؛ وأما أمُّها فلم ترضَ عنها قط، بل بدت عليها خصومتها لها دائماً. ثم وُلد أخٌ كانت الأمُّ إليه أحنَّ وأرفق، فغدا الجوّ لا يُطاق. وأدركت الصغيرة أن أباهما حليفها - على تواضعه وانزوائه - إذا تعلق الأمر بمصلحتها، فاشتدَّ كرهها لأمها.

وفي هذا الصراع المرير كانت نظافة الأم المفرطة نقطة الهجوم المفضّلة عند الابنة: فالأمُّ مترمّنة لا تدع حتى الخادمة تمسُّ مقبضَ الباب قبل مسحه، والبنْتُ تتعمّد الاتساح

وسوء الهندام، وتكدر النظام كلما سنحت الفرصة.

وقد طوّرت كل الصفات التي تُضادُّ توقعات أمها تمامًا؛ وهذه الحقيقة تنقض - بدهاءة - فرضية السمات الموروثة؛ فلو لم يُنمَّ الطفل إلا الصفات التي تُغيظ أمّه وتُحبطها إلى حدّ لا يُطاق، لوجب أن تكون وراء ذلك خطة واعية أو غير واعية. واستمرّ عداؤ الأم وطفلتها عداً لا يُتصوّر أشدُّ منه.

ولما بلغت الثامنة كان المشهد على صورته: الأبُّ أبداً في صف ابنته، والأمُّ تجوسُّ بوجهٍ عابسٍ وتعليقاتٍ لاذعةٍ تقيم القواعد وتُعاتب الصبية، وهذه - في مرارةٍ وعدوان - تسلّط لسانها الساخر لتؤذي أمها. وزاد الأمر تعقيداً مرض القلب الخَلقيُّ للأخ الأصغر المدلّل، فاستدرّ مزيداً من عطف الأمّ وانتباهها. ولم يكن الوالدان على وفاقٍ مع الطفلين.

ثم مرضت الفتاة بعلّةٍ عصبيةٍ لُغزٍ؛ وعَرَضُها الرئيس أفكارٌ شريرةٌ عن أمها تُعدها عن كل عمل. ثم استولى عليها - فجأةً - شغفٌ دينيٌّ شديد بلا طائل، فغابت تلك الأفكار، وظنّ أن للأدوية فضلاً، والأرجح أن الأمّ دُفعت إلى موقفٍ دفاعيٍّ؛ غير أن آثار تلك الأفكار بقيت في خوفٍ طاغٍ من الرعد والبرق. وكانت الفتاة تعتقد أن الرعد والبرق عقابٌ ضميرها، وأنهما سيوردانها الهلاك لأنها حملت أفكاراً شريرةً نحو أمها؛ ومن السهل أن نرى كيف كانت تكافح للتخلّي عن كرهها لها. ومضت في تقدّمٍ ظاهر، حتى قالت معلمتها كلمةً كان لها وقعٌ بعيد: «هذه الفتاة تستطيع أن تفعل كل ما تعزم عليه!»؛ وهي عبارةٌ أهميتها - هنا - أنها بدت للصبية: «أستطيع كلّ شيءٍ إن اجتهدت»، فاشتدّ صراعها مع أمها.

وجاءت المراهقة، فصارت شابةً جميلةً معجّباً بها، غير أنّ كل صلواتها بالجنس الآخر انقطعت لحدّتها في القول؛ ولم تجذبها إلا شخصيةً رجلٍ مسنّ في الحي، وخيف أن

تنتهي إليه، لكنه رحل، وبقيت حتى السادسة والعشرين بلا حبيب - وكان هذا لافتاً في محيطها - إذ لم يفهم أحدٌ تاريخها. لقد شبت مشاكسةً لا تُطاق؛ القتالُ متعتها الوحيدة؛ يُرعبها سلوكُ أمها ويُوقد توقُّها إلى الانتصار عليها؛ وكانت أعظم لذتها السجلاتُ اللاذعةُ التي أظهرت فيها كبرياءها؛ وكان «موقفها الرجولي» يتجلّى في أنها لا تُقدم على تلك المعارك إلا حيث يغلب الظن بأنها الظافرة.

ثم تعرّفت - وهي في السادسة والعشرين - رجلاً مهذباً لم ينفر من حدّتها وخاطبها جاداً، وكان متواضعاً خاضعاً في معاملته؛ وضغط الأقارب للزواج، فكانت تشرح أن لا قبّل لها به، ثم - بعد عامين من المقاومة - قبلته على يقينٍ بأنها قد استعبدهت وأنها تصنع به ما تشاء، وكانت تأمل سرّاً أن تجده نسخةً ثانيةً من أبيها تستسلم لها متى شاءت.

وسرعان ما بان خطؤها؛ فما لبث الزوج أن استقرّ في البيت يدخن غليونه ويقرأ صحيفته في أريحية، يذهب إلى المكتب ويعود في الميعاد للطعام، ويتذمّر قليلاً إن لم يجده، ويطلب - بالحاح - بالنظافة والحنان والانضباط في الوقت؛ وكلُّ ذلك عندها غيرُ معقولٍ وليست مستعدةً له؛ ولم تُشبه علاقتهما - ولو من بعيد - علاقتها بأبيها.

فوقعت على الأرض من علٍ؛ فكلما زادت مطالبها قلّ تجاوبُ زوجها، وكلما أصرّ على مسؤولياتها المنزلية قلّ نشاطها فيها؛ ولم تفتّها فرصةٌ لتذكره بأنه لا حقّ له - في رأيها - في تلك المطالب، حتى صرّحت أنها لا تُحبُّه؛ فلم يُبال؛ وأدام مطالبه بعنادٍ جعلها تنظر إلى المستقبل بعين القلق. لقد خطبها - وهو في سُكرٍ من نكران الذات - فلما «امتلكها» تلاشى ذلك النكران.

ولم يتحسن الحال حين صار لها ولد؛ فقد فُرضت مسؤولياتٌ جديدة، وازدادت خصومتها مع أمها التي تولّت زمام الأمور صراحةً «نيابةً» عن صهرها. واشتدّ القتال في



بيتها بأسلحةٍ ثقيلة، حتى إن الزوج - وليس ذلك بمدهش - صار أحياناً سيئ السلوك مُهملاً، فكانت شكواها محقّةً حيناً؛ وكان سلوكه نتيجةً مباشرةً لعدم قدرتها على الاقتراب - وهو بدوره مظهرٌ من عدم تقبلها أنوثتها؛ فقد حسبت أول أمرها أنها تستطيع أن تؤدّي دور «الأميرة المدللة» أبداً، وأن تحيا مع عبدٍ ينفذ رغباتها؛ ولم تكن تتصور الحياة إلا على هذا المنوال.

فماذا تصنع الآن؟ أتطلق زوجها وتعود إلى أمها معلنةً الهزيمة؟ لم تكن قادرةً على الكسب، فلم تُعدّ له قط؛ وكان الطلاق ضربةً لكرامتها وغرورها؛ وباتت حياتها بائسةً بين نقد الزوج من جهة وضغط الأم من جهة، تُنادي بالنظافة والترتيب بكل قوتها.

ثم - فجأةً - غدت هي الأخرى «نظيفةً مرتبةً»! تقضي يومها في الجلي والتلميع؛ كأنها أبصرت النور وأدركت، أخيراً، دروس أمها المتطاوله؛ وفي البدء لا بدّ أن الأمّ والزوج سرّاً لهذا التبدّل، إذ رأيا هذه الشابة تنظّف البيت تنظيف الربيع؛ لكن «خييراً كثيراً يُفسد»: فمضت تغسل وتُنظّف كل شبر حتى لمع، تُعطّل الجميع ويُعطّلونها؛ فإن غسلت شيئاً ولمسه أحدٌ أعادت غسله، وكان لا أحد غيرها يحسن العمل.

وهذا الاضطراب المتجلي في الغسل والتنظيف المستمرين شائعٌ جدّاً عند من يرُدّدن على أنوثتهن ويحاولن - بغير وعي - أن يترفّعن «بنظافتهن اللافتة» على من هنّ أقلُّ حرصاً؛ وغايته - في اللاوعي - إزعاج الأسرة لا النظافة؛ وقلّ أن أسرةً ابتليت بإيداءٍ أشدّ مما أنزلته هذه المرأة بأهلها؛ فلم يكن مقصدها النظافة، بل إقلاق البيت بأسره.

ونستطيع أن نساق أمثلةً كثيرةً على تصالح ظاهريٍّ فحسب مع الدور الأنثوي؛ وحقيقةً أن مريضتنا لا صديقات لها، ولا تُطبق التوافق مع أحد، ولا تُراعي غيرها، تنسجم تماماً مع النمط المتوقع من حياتها.

وسيكون لزاماً أن نُطوّر أساليب أحسن لتربية الفتيات كي يصبحن أقدر على التكيّف مع الحياة؛ وحتى في أحسن الظروف لا يتيسّر هذا التكيّف دائماً - كما رأينا - لأن وهم «دونية المرأة» مُرسّخ في عصرنا بقوانين وتقاليد - وإن أنكره كلُّ ذي بصيرةٍ نفسية - ومن ثم ينبغي أن نكون على أهبةٍ للتصدّي لأمثلة هذا الوهم وتصحيح المواقف الخاطئة التي تُفضي إليه؛ لا احتراماً مُبالغاً فيه للمرأة على غير صدق، بل لأن ذلك الموقف يناقض منطق حياتنا الجماعية كله.

ولنغتتم الفرصة لبحث مسألةٍ أخرى تُتخذ - كثيراً - ذريعةً لإهانة المرأة: ما يُسمّى «سنّ الخطر»، أي الفترة المحيطة بالخمسين، وما يصحبها من بروز سماتٍ شخصيةٍ بعينها؛ ففي سنّ اليأس تبدو التحوّلات الجسدية - في عين كل امرأة - علامةً على فقدان ما كان لها من دعوى الأهمية؛ فتسعى - في ظل ثقافةٍ لا تُقدّر إلا الأداءَ الراهن - سعيًا مضاعفًا إلى حفظ مكانتها، وقد غدت أوهى من ذي قبل، فيلقى المتقدمون في العمر - لا سيما النساء - صعوباتٍ جسامًا.

والأذى الذي يلحق بالمرأة المُسنّة من هذا الانتقاص يمسُّ كلَّ إنسان؛ إذ لكل حياةٍ فتراتٍ غير مُثمرة، وما أنجزه المرءُ في أوج عطائه ينبغي أن يُنسب إليه في سنيّ انحداره؛ ومن الخطأ أن نحرم الناس - لمجرد السن - من متع المجتمع الروحية والمادية. وفي حال المرأة يرقى ذلك إلى الإهانة والاستعباد؛ فتخيّل قلقَ مراهقةٍ تنظر إلى هذه المرحلة من عمرها! إن الأنوثة لا تنقضي بانقطاع الطمث، وكرامة الإنسان وقيمته تمتدان إلى ما بعد هذا السن، ويجب أن يُكفل له الاحترام اللائق.

## التوتر بين الجنسين

كلُّ هذه الأوضاع البائسة ثمرةُ أخطاءِ حضارتنا؛ فمتى ساد تحيُّزٌ ما حضارةٌ اتَّسع أثره حتى يمسَّ كلَّ جانبٍ من جوانبها، وتنهض الشواهد عليه في كل موضع. وإن وهمَ دونية المرأة وما يلحق به من تفوُّقٍ مزعومٍ للرجل ليقوِّضُ على الدوام الانسجامَ بين الجنسين، فيُتحم في جميع العلاقات الجنسية توتُّراً شاداً يُهدِّد كلَّ إمكانٍ للسعادة بل يفتك به، حتى يغدو وجودنا كلُّه في هذه الصلات مسموماً، مشوّهاً، آيلاً إلى التآكل بفعل ذلك التوتُّر؛ ومن هنا قلَّةُ الزيجات المنسجمة، ومن هنا أيضاً نشأةُ كثيرٍ من الأطفال على اعتقادٍ أنّ الزواج عملٌ عسيرٌ وخطير. والأحكامُ المُسبقة على النحو الذي وصفناه قد تحوّل بين الأطفال وبين إدراك معنى الحياة إدراكاً سليماً؛ فتصوّر كم من فتياتٍ صغيراتٍ ينظرن إلى الزواج كأنه منفذٌ طوارئ من الحياة، وكم من رجالٍ ونساءٍ لا يرون فيه إلا شراً لا بدَّ منه! وقد اتَّسع اليوم نطاقُ الصعوبات الناشئة أصلاً من هذا التوتُّر؛ فكلّما قلَّ استعدادُ النساء لأداء دور «الأنثى الخاضعة»، وكلّما تمسَّك الرجال بمكانتهم المميّزة - مهما كانت زائفة - اشتدَّ التوتُّر.

والرفقةُ والصدقةُ سمتان لازمتان للتوافق الحقّ مع الدور الجنسي وللتوازن الصحيح بين الجنسين؛ أمّا تبعيةُ أحد الطرفين للآخر فغيرُ مُحتملةٍ في العلاقات الجنسية كما هي غيرُ مُحتملةٍ بين الأمم؛ لذا يتعيّن على الجميع أن يدرسوا هذه المعضلة بعناية، لأن أيَّ موقفٍ خاطئٍ يجرُّ على الشريكين مشاقَّ جمّة؛ وهذا الجانبُ من الحياة خطيرُ الشأن، ونحن جميعاً معنيون به، وتزداد تعقيداته في أيامنا بفعل أنماطٍ تربوية تُرغم الأطفال منذ الحضانه على السلوك بمنطق الانتقاص من الآخرين ورفضهم. ولا ريب أن التربية الهادئة الرزينة قادرةٌ على تذليل كثيرٍ من هذه العوائق؛ غير أننا نحيا في زمنٍ متعجِّلٍ شحيح

بالأساليب التربوية المجربة الموثوقة، وتزيد الأمر سوءاً الروح التنافسية التي تسم حياتنا برمتها وتمتد حتى قاعات الحضانة؛ وكل ذلك يرسم بدقة أسلوب العيش في ما يأتي من الأعمار. إن الخوف الذي يصد كثيرين عن بناء علاقات عاطفية مرده - في جانب كبير - إلى ضغط غير مبرر يفرض على كل رجل أن يثبت رجولته في كل ظرف، ولو بالخبث والمكر أو بالقوة. ومن الواضح أن هذه العوامل تتعاقد فتقوض الصراحة والثقة في العلاقات؛ ف«دون جوان» مثال رجل لا يطمئن إلى رجولته، يطلب الطمأنينة في انتصارات متواصلة؛ وانعدام الثقة السائد بين الجنسين يحول دون تبادل الصراحة، فتدفع الإنسانية جمعاء الثمن. إن المثال الذكوري المغالى فيه يُشيع تحدياً دائماً وحافزاً مستداماً وقلقاً لا ينقطع، لا يفضي في النهاية إلا إلى الغرور وتمجيد الذات وصون موقف الامتياز؛ وكل ذلك - بطبيعة الحال - على تضاد مع منطق الحياة الجماعية السوية. وليس فينا ما يصدنا عن مناصرة أهداف حركات تحرير المرأة؛ بل إن واجبنا أن نؤازرها في كفاحها من أجل الحرية والمساواة، لأن سعادة الإنسانية قاطبة معلقة - في خاتمة المطاف - على تهيئة ظروف تتيح للمرأة أن تحيا طاقتها كاملة، وللرجل أن يبني معها علاقات مريحة سعيدة.

## ماذا يمكننا أن نفعل؟

من بين جميع المؤسسات التي أنشئت لتحسين العلاقة بين الجنسين، يظل التعليم المختلط أهمها. وهذه المؤسسة لم تحظ بعد بقبول عام، إذ لها أنصار وخصوم. فالحجة الرئيسة لمؤيديها أن التعليم المختلط يُتيح للفتية والفتيات فرصة التعارف في سن مبكرة، وأن هذا التعارف المبكر قد يسهم في تبديد التحيز إلى حد ما ويجنب الكثير من القلق في ما بعد. أما معارضوه فيزعمون عادة أن الفتیان والفتيات يأتون إلى المدرسة مختلفين

تمامًا، وأن الجمع بينهم في التعليم يُفاقم هذه الفروق، إذ يُحسّ الفتیان بالضغط، ذلك أنّ الفتيات يتقدّمن نموًّا عقليًّا أسرع في سنوات الدراسة الأولى؛ والفتيان، وهم مُلزمون دائمًا بإثبات أهمّيتهم والتفوّق على غيرهم، يُصدمون حين يكتشفون أنّ تفوّقهم المزعوم وهمّ لا حقيقة له. وأكّد بعض الباحثين كذلك أنّ الفتیان في ظلّ التعليم المختلط يُصابون بالقلق في صحبة الفتيات ويفقدون شيئًا من ثقّتهم بأنفسهم.

ولا شك أنّ في هذه الحجج شيئًا من الصحّة، غير أنّها لا تنطبق إلا إذا فهمّ التعليم المختلط على أنه ساحةٌ منافسة بين الجنسين على الجوائز والمواهب والقدرات العليا. فإذا كان هذا هو مغزاه عند المعلمين والتلاميذ، فهو مبدأٌ ضارٌّ. ولكي ينجح التعليم المختلط حقًّا، لا بدّ من معلمين يُدركون معناه الأعمق، إذ إنّ جوهره تدريبٌ وإعدادٌ للتعاون المستقبلي بين الجنسين في مهامٍ مشتركة، لا مضمائرُ تفوّقٍ أو استعلاء. فإذا غاب هذا الفهم، أخفق التعليم المختلط، ووجد خصومه سندًا في اعتراضهم.

ولا يسع الشاعر وحده أن يلتقط جميع الفروق الدقيقة في هذا الموقف المتشابك بين الجنسين؛ أمّا نحن فلا يكفينا إلا أن نُبيّن أبرز النقاط. فالفتاة المراهقة تسلك سلوك من هو أدنى منزلة، وكلّ ما قيل عن آليات التعويض عن العيوب الجسدية ينطبق عليها كامل الانطباق. غير أنّ الفارق هنا أنّ الاعتقاد بالدونية يُفرض عليها فرضًا من بيئتها ومحيطها. وهي تُساق إلى هذا المسلك سوقًا لا رجعة فيه، حتى إنّ بعض الباحثين ذوي البصيرة الواسعة انخدعوا أحيانًا فوقعوا في وهم الاعتقاد بنقصها. وكانت النتيجة أن انجرف الجنسان معًا إلى مستنقع «سياسة الهيبة»، فصار كلُّ منهما يحاول لعب دورٍ لا يليق به، وتعدّدت حياتهما، وزالت عنها الصراحة، وامتلأت بالمغالطات والأحكام المسبقة التي تُبطل كل رجاء في السعادة.

## البنية الأسرية

لطالما أُثير انتباهنا إلى أنه قبل أن نحكم على الناس ينبغي أن نعرف ظروف نشأتهم. ومن أهم هذه الظروف موقع الطفل داخل أسرته. فبعد قدر كافٍ من الخبرة، غالبًا ما يمكننا أن نصنّف الأفراد وفقًا لترتيبهم في العائلة: أهو الابن الأكبر، أم الأوسط، أم الأصغر، أم الوحيد... إلخ.

ومنذ أزمته بعيدة، أدرك الناس أن الطفل الأصغر حالة خاصة؛ وقد انعكس هذا الإدراك في الأساطير والقصص الشعبية والحكايات الدينية التي لا تُحصى، حيث يظهر الأصغر دائمًا بصورة مميّزة. فهو بالنسبة لوالديه طفلٌ مدللٌ، يتلقى رعاية استثنائية، ويُنظر إليه على أنه الأضعف والأكثر عجزًا. وبما أن إخوته سبقوه إلى النمو والاستقلالية، فإنه ينشأ عادةً في جو أدفأ وأكثر حنانًا مما حظي به سواه. ومن هنا تتكوّن في شخصيته سمات خاصة تترك أثرًا واضحًا على موقفه من الحياة. غير أن ثمة مفارقة لافتة: فمع أن الأصغر يحظى بالدلال، فإنه لا يطيق أن يبقى دائمًا في مرتبة العاجز، فيتولد لديه دافع قوي لإثبات قدرته، وغالبًا ما يتحوّل إلى شخص مصمم على التفوق، يسعى أن يكون الأفضل في كل شيء. ولهذا لا يُستبعد أن يتجاوز الأصغر جميع أفراد العائلة كفاءةً وتأثيرًا.

ومع ذلك، فثمة نمط آخر من الصغار أقل حظًا؛ فهم يحملون التوق نفسه إلى التفوق لكنهم يفتقرون إلى الطاقة أو الثقة بالنفس، فتثقلهم علاقاتهم بإخوتهم الأكبر، وتتركهم مترددين متخاذلين، كثيري الشكوى، ميّالين إلى التهرب من المسؤولية. هؤلاء قد يبدوون جبناءً، ويبحثون عن أنشطة جانبية ليتجنبوا بها مواجهة التحديات الحقيقية. وفي كلتا الحالتين، يظل الشعور بالنقص ملازمًا لهم، وهو شعور أشبه بما يعانيه من وُلد بعاهة

جسدية. وما يهمّ هنا ليس حقيقة النقص، بل تفسير الطفل لوضعه، إذ تمتلئ الطفولة بالتصورات الخاطئة وسوء الفهم.

ومن هنا يتحدد واجب المربين: فهل من الصواب أن يشجعوا هؤلاء الأطفال بالثناء المفرط أو بالدفع المستمر إلى الصدارة؟ التجربة تبين أن ذلك ليس حلاً، بل ربما يزيد الطين بلة. الأجدى أن نُرسخ في أذهانهم أن التفوق ليس معياراً جوهرياً، وأن قيمة الحياة لا تُقاس دائماً بكون الفرد الأول أو الأفضل، وإلا نشأ الطفل منحازاً، يعيش في قلق دائم على مكانته، مفعماً بالحسد والغيرة. هذا الميل التنافسي يظهر في أبسط سلوكياتهم، مثل رغبتهم المستمرة في التقدّم الموكب ورفضهم أن يسبقهم أحد.

ولقد قدّمت القصص الدينية مثلاً رائعاً على الابن الأصغر في قصة يوسف، حيث جمع النص سمات هذه الحالة بجلاء بالغ، بما يسبق في دفته ما توصلت إليه بحوث العصر الحديث. ومع ذلك، ليس جميع الأصغر طموحين ناجحين؛ فبعضهم، حين يفقد الشجاعة، ينزل إلى التخاذل والتهرّب، فيعجز عن أي إنجاز، ويرع في اختلاق الأعذار. هؤلاء يفشلون في كل صراع جاد، ويلجؤون إلى ميادين آمنة لا يُطلب فيها منافسة حقيقية.

أما الابن الأكبر، فله خصائص أخرى؛ فهو غالباً ما يُمنح مكانة مرموقة، ويُكلف بمسؤوليات منذ نعومة أظفاره، فيتشرب فكرة السلطة والنظام ويصير ميّالاً إلى المحافظة. والتاريخ الاجتماعي يؤكد ذلك: من البكر في الأسر الفلاحية الذي يتهيأ لوراثة المزرعة، إلى البكر في العائلات الأرستقراطية الذي يرث اللقب والمقام، إلى حتى البكر في البيوت المتواضعة الذي يُعتمد عليه في مساعدة الوالدين. وهكذا يغدو مفهوم السلطة بالنسبة إليه قيمة فطرية راسخة.

أما الابن الثاني، فيعيش تحت ضغط دائم، إذ يرى أمامه دائماً من سبقه ونال الامتياز. لذا يقضي عمره في صراع مستمر، محاولاً اللحاق والتفوق. وإن لم يفلح، فقد ينكسر ويُصاب باضطرابات عصبية أو بعقد نفسية. هذا الوضع يشبه حسد الطبقات الفقيرة تجاه الأغنى منها: موقفٌ ممزوج بالاحتقار والمرارة، وقد يقود إلى معاناة طويلة. وقد صُوّر هذا الصراع في أسطورة عيسو<sup>(1)</sup> ويعقوب بجلاء بليغ.

أما الطفل الوحيد، فظروفه أدق وأصعب. إذ يتركز اهتمام والديه كله عليه، فيغدو موضع دلال مفرط وحماية زائدة، فينشأ اتكالياً، قليل الاحتكاك بالصعوبات، يميل إلى رؤية العالم مكاناً عدائياً. وبسبب ذلك يفتقر إلى القدرة على الاستقلالية، ويصبح أكثر عرضة للفشل والإخفاق أمام تحديات الحياة. وغالباً ما يُصاب بعجز عن المشاركة الفعالة في المجتمع.

وتتضاعف تعقيدات الموقف حين يكون هناك إخوة كثر أو حين يختلف التوازن بين الجنسين داخل الأسرة، كما في حالة صبي وحيد بين أخوات. عندئذ قد يجد نفسه مهدداً ومقموعاً، فينمو بشعور مزمن بعدم الأمان، وقد يدفعه ذلك إما إلى العجز والانسحاب أو إلى سعي محموم لإنجازات كبرى تعويضاً عن وضعه.

ويتبين من كل ذلك أن موقع الطفل في الأسرة يُشكّل عاملاً أساسياً في نموه النفسي والاجتماعي، وأن أثره قد يغلب أحياناً على العوامل الوراثية. فالمشكلات الناشئة عن الإعاقات الجسدية مثلاً تزداد حين يقترن ضعف الطفل بتجارب أسرية تتركس الشعور بالنقص. ولهذا فإن الواجب التربوي يحتم علينا أن ندرك كيف يمكن أن تُشوّه هذه الظروف مسار النمو، وأن نعمل على تنمية الشعور الاجتماعي لدى الأطفال ليحميهم من الانحرافات.



بهذا الفهم، نغدو أكثر حذرًا وتواضعًا في إصدار أحكامنا الأخلاقية على الآخرين. فما نراه من أخطاء ليس إلا نتائج نموّ معوّج أو ظروف أسرية قاسية. ومن هنا يكون موقفنا الأصح هو التعاطف والفهم والسعي إلى الإصلاح. إن إدراكنا لهذه العوامل يُزوّدنا بأدوات تربوية وتعليمية ثمينة، تتيح لنا أن نفهم ماضي الأفراد ونستشرف مستقبلهم، فنراهم كائنات بشرية حيّة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، لا صورًا كرتونية سطحية، ونستطيع بالتالي أن نُقدّر قيمتهم الإنسانية تقديرًا أعمق وأصدق.

---

[1←] عيسو شخصية توراتية مرتبطة بيعقوب عليه السلام، وليس نبي الله عيسى المسيح عليه السلام - (توضيح المترجم).

## الجزء الثاني

### علم الشخصية

#### اعتبارات عامة

#### كيف نصبح من نحن؟

ما نسميه سمة شخصية هو تعبير عن جانب من جوانب محاولة الناس التكيف مع العالم الذي يعيشون فيه. فالشخصية في جوهرها مفهوم اجتماعي، ولا يمكننا الحديث عن سمة شخصية إلا عند النظر إلى الأفراد من خلال علاقتهم ببيئتهم. لن يُحدث وجود روبنسون كروزو وحده فرقاً يُذكر في شخصيته - على الأقل حتى التقى بيوم الجمعة - لأن الشخصية هي في الأساس موقف نفسي، إنها نوعية وطبيعة تعامل الأفراد مع البيئة التي يعيشون فيها، وهي نمط السلوك الذي يُجسّد من خلاله سعيهم إلى الأهمية بما يتناسب مع شعورهم الاجتماعي.

لقد رأينا كيف أن هدف التفوق والسيطرة وقهر الآخرين كثيرًا ما يوجّه نشاط البشر. هذا الهدف يلون نظرتهن إلى العالم، ويشكل نمط سلوكهم، ويوجه أفكارهم ومشاعرهم في مسارات محددة. فالسمات الشخصية ليست سوى مظاهر خارجية لأسلوب حياة الفرد ولطرائق سلوكه، وهي أدوات تستخدمها الشخصية لاكتساب التقدير والأهمية. واستخدام هذه الأدوات يشبه إلى حد بعيد امتلاك "تقنية" للعيش.

السمات الشخصية ليست موروثه كما يظن كثيرون، ولا يولد بها الإنسان. إنها بمثابة مخطط للوجود، يُمكن كل فرد من عيش حياته والتعبير عن شخصيته في أي موقف دون

حاجة إلى التفكير الواعي في كل مرة. إنها ليست تعبيرات عن قوى أو ميول فطرية، بل تُكتسب لمواجهة الحياة بطريقة معينة. على سبيل المثال، لا يولد أي طفل كسولاً؛ بل يصبح الأطفال كسالى لأن الكسل يبدو لهم أيسر وسيلة لتسهيل حياتهم، وفي الوقت نفسه وسيلة للحفاظ على شعورهم بأهميتهم. حتى السعي وراء السلطة قد يجد تعبيراً ما في نمط الكسل. وقد يلجأ بعض الأفراد إلى لفت الانتباه إلى إعاقة بدنية ليحفظوا ماء وجههم قبل أن يواجهوا الهزيمة. النتيجة النهائية لمثل هذا التفكير الداخلي تكون عادة من قبيل: "لو لم يكن لدي هذا العيب لتفتحت مواهبي ببراعة، لكنني للأسف مُعاق". وعلى نحو موازٍ، فإن من ينخرط في صراع طويل مع بيئته بدافع السعي غير المنضبط إلى السلطة، سوف يُطوّر ما يحتاج إليه من أسلحة نفسية تخدم غايته: كطموح زائد، وحسد دائم، وشعور بعدم الثقة، وما شابه ذلك. هذه السمات ليست أولية ولا موروثية، بل ثانوية ومكتسبة، وقد فرضتها الغاية الخفية للشخصية. لذلك يجب الحكم عليها دائماً من منظورها الغائي، أي الهدف النهائي الذي تخدمه.

وعند استرجاع ما عرضناه سابقاً، نجد أن أسلوب حياة الأفراد وأفعالهم ومواقفهم في العالم جميعها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهدفهم النهائي. فلا يمكننا التفكير في أمر أو الإقدام على فعل دون أن يكون في وعينا مقصد واضح، وهذا المقصد حاضر بالفعل في أعماق نفسية الأطفال منذ وقت مبكر جداً، فيوجّه نموهم النفسي ويوجه حياتهم. هذا الهدف يعطي حياتهم شكلاً محدداً، ويضفي عليها طابعاً فردياً يميز كل إنسان عن سواه. فجميع أفعالهم وتعبيراتهم في الحياة تصدر في اتجاه هدف خاص واحد. ومعرفة الهدف تمكّننا من معرفة الشخص.

أما الوراثة فلا تؤدي إلا دوراً ضئيلاً في تشكيل نفسية الإنسان وشخصيته. فلا دليل قوي يؤيد القول بأن السمات الشخصية موروثية. صحيح أن الشخصية تبدأ بالتشكل في سن

مبكرة جدًا حتى تبدو وكأنها فطرية، لكن أقصى ما يمكن قوله هو أنها تُكتسب عبر الملاحظة والتقليد. وما يجعل بعض السمات متشابهة بين أفراد أسرة أو أمة أو عرق هو أن كل فرد يكتسبها بالتقليد أو من خلال المشاركة في أنشطة مشتركة. الأطفال والمراهقون على وجه الخصوص أمهر الناس في التقليد.

إن تعطش الطفل للمعرفة – الذي يُعبر عنه أحيانًا برغبته في الرؤية – قد يتخذ شكل الفضول عند الأطفال ضعاف البصر. لكن إذا اقتضت أنماط سلوك هذا الطفل ذلك، فقد يتحول هذا التعطش للمعرفة إلى سمة مختلفة تمامًا، فقد ينشغل بتفكيك الأشياء وتجزئتها، أو قد ينمو في بيئة أخرى ليصبح مثقفًا مولعًا بالكتب. وبالمثل، يمكن أن نفهم نشوء ميول عدم الثقة لدى الصم؛ فبسبب حرمانهم في حضارتنا من جوانب كثيرة من الملمات، وبسبب تعرضهم للسخرية أو معاملتهم على أنهم ضعفاء النفوس، ليس غريبًا أن يطوروا شخصية يسودها عدم الثقة. ولكن من الخطأ الجسيم افتراض أنهم ولدوا بهذه السمة.

وعلى هذا النحو أيضًا يمكن دحض النظريات القائلة بأن الإجرام فطري. فوجود عائلات يُنتج أفرادها مجرمين لا يثبت شيئًا؛ ذلك أن ما يحدث غالبًا هو أن الأطفال يتعلمون السلوك المعادي للمجتمع من الكبار في عائلاتهم عن طريق القدوة، فبنشأ الصغار على تقليد هذه الأنماط. يتعلمون منذ نعومة أظفارهم أن السرقة، على سبيل المثال، وسيلة ناجعة لكسب العيش، فيستمر التقليد جيلًا بعد جيل.

وينطبق الأمر كذلك على السعي وراء التقدير. فجميع الأطفال يواجهون عقبات في حياتهم، وكلهم يسعون بطريقتهم إلى أن يكتسبوا شعورًا بالأهمية. غير أن هذا السعي يتخذ صورًا مختلفة من شخص إلى آخر. فإذا لاحظنا أن شخصية الطفل تشبه شخصية

والده، فالأمر ببساطة أنه، في بحثه عن الأهمية، يقلد من حوله ممن يحظون بالتقدير والاحترام. وهكذا يتعلم كل جيل من سابقه، ويحتفظ بما تعلمه، رغم ما قد يتولد من ذلك من تعقيدات أو صعوبات ناجمة عن السعي إلى السلطة.

إن غاية التفوق غاية خفية؛ فوجود الشعور الاجتماعي لدى الفرد يمنعها من الظهور علناً، ففضل تنمو في الخفاء وراء واجهة مقبولة. ومع ذلك، يجب التأكيد على أن هذا المسار ما كان ليزدهر لو أننا نحن البشر عرفنا كيف نفهم بعضنا بعضاً فهماً صحيحاً. لو كانت لدينا القدرة على اختراق الأقنعة وكشف حقيقة جيراننا، لما استطعنا حماية أنفسنا وحسب، بل لصعّبنا عليهم المضي في سعيهم إلى السلطة، ولما وجدوا فيه جدوى. في ظل هذه الظروف، كان الصراع المستتر على التفوق ليتلاشى. ومن هنا تأتي أهمية تعميق فهمنا لهذه العلاقات والاعتماد على الأدلة التجريبية التي أتاحها لنا الملاحظة.

لكننا نعيش في ظل ظروف ثقافية بالغة التعقيد تجعل التربية الصحيحة على مدى الحياة أمراً عسيراً. فقد حُرّم الناس من أهم وسيلة لتنمية بصيرتهم النفسية. فما زالت وظيفة المدارس، حتى يومنا هذا، محصورة في تقديم المعارف الخام للأطفال، وتمكينهم من أن يأخذوا منها ما يستطيعون أو ما يرغبون، دون أن يُبذل جهد كافٍ لإثارة اهتمامهم أو ربط المعرفة بحياتهم. ولا يكاد يكون لدينا ما يكفي من هذه المدارس أصلاً. وهكذا، أُهمل إلى الآن أهم أساس لفهم الطبيعة البشرية. بدلاً من ذلك، تعلمنا منذ الصغر أن نقيس البشر بمقاييس المدرسة الفكرية القديمة: نفرّق بين الخير والشر، دون أن نتعلم كيف نراجع أحكامنا. ومن هنا حملنا معنا هذا المفهوم المغلوط إلى الحياة كلها، وما زلنا نعاني تبعاته حتى اليوم.

وبلغنا سن الرشد ونحن ما نزال نُسقط أحكام طفولتنا ومغالطاتها على كل ما نصادف، كما لو كانت قوانين مقدسة. لم ندرك بعد أننا جرفنا في تيار ثقافة معقدة مليئة بالأوهام، وأنها تبنينا رؤى يستحيل أن تؤدي إلى فهم صحيح. في النهاية، نتعامل مع كل شيء من زاوية تعزيز ثقتنا بأنفسنا، ومن منطلق السعي إلى تأكيد قدراتنا الذاتية.

## الشعور الاجتماعي وتنمية الشخصية

إلى جانب السعي وراء السلطة، يلعب الشعور الاجتماعي الدور الأهم في تنمية الشخصية، ويتجلى، كما هو الحال مع السعي وراء الأهمية، في البدايات النفسية الأولى للأطفال، وخاصة في رغبتهم في التواصل والحنان. وقد سبق أن أوضحنا شروط نمو الشعور الاجتماعي، ونرغب في الإشارة إليها بإيجاز هنا. يتأثر روح الجماعة أو الشعور الاجتماعي بمشاعر النقص لدى الفرد وبالسعي التعويضي نحو السلطة، فالبشر عرضة لأشكال مختلفة من عقد النقص. وتبدأ عملية النمو النفسي، وما يرافقها من قلق يسعى إلى التعويض والأمان، منذ لحظة ظهور هذه المشاعر. لذا ينبغي أن تأخذ قواعد تربية الأطفال في الاعتبار إدراكنا لمشاعر النقص لديهم، ويمكن تلخيص هذه القواعد في أن الأطفال يجب ألا يُعرضوا في وقت مبكر لظروف قاسية أو تجارب مظلمة، بل أن تُتاح لهم خبرات إيجابية تُنمّي لديهم إحساسًا بمتعة الحياة، حتى لا تتعزز مشاعر النقص لديهم. ومع أن تطبيق هذه القاعدة قد لا يكون ممكنًا دائمًا لأسباب اقتصادية، إلا أن ذلك لا يُنقص من أهميتها، فكثير من الأطفال ينشؤون في ظل الفقر والعوز، كما أن الإعاقات الجسدية تُؤدي دورًا بالغ الأثر، إذ تحدّ من فرص العيش الطبيعي وتُوحى للأطفال بأنهم في حاجة إلى امتيازات خاصة، ومن ثم يشعرون بأن الحياة قد أساءت معاملتهم، ما يعرض شعورهم الاجتماعي للخطر.

ولا يمكن أن نحكم على البشر إلا من خلال مفهوم روح الجماعة باعتباره معيارًا نقيس عليه أفكارهم وأفعالهم، لأن كل إنسان في جسد المجتمع البشري ملزم بالالتزام بوحدة ذلك المجتمع. نحن في قلب جماعة بشرية، ومن ثم علينا أن نحيا وفقًا لمنطق الوجود الجماعي، وهو المنطق الذي يحدد حاجتنا إلى معايير واضحة نحكم بها على أقراننا. إن مدى تطور الشعور الاجتماعي لدى الفرد هو المعيار الوحيد الصالح عالميًا لقياس القيم الإنسانية، ولا يمكن إنكار أن اعتمادنا النفسي على هذا الشعور أمر لا مفر منه، إذ لا يستطيع أي إنسان أن يتجاهله تمامًا.

فكلنا نعي أن لنا واجبًا تجاه إخواننا البشر، وشعورنا الاجتماعي يُدكّرنا بذلك باستمرار، وهذا لا يعني أنه حاضر في وعينا بشكل دائم، لكنه يتطلب جهدًا خاصًا لإنكاره أو تجاهله. وإلى جانب ذلك، فإن هذا الشعور عالمي إلى درجة أن أحدًا لا يستطيع أن يبدأ نشاطًا ما دون أن يجد له مبررًا، إذ تنبع الحاجة إلى تبرير كل فكرة أو فعل من شعورنا اللاواعي بالانتماء إلى الوحدة الاجتماعية. وهذا يفسر سبب بحثنا الدائم عن ظروف مخففة لتسوية تصرفاتنا. ومن اللافت أن الشعور الاجتماعي أساسي وراسخ إلى حد أننا حتى عندما لا نُنمّي هذه القدرة كما ينبغي، فإننا نحاول على الأقل أن نتظاهر بامتلاكها. وقد يُستغل هذا التظاهر أحيانًا لإخفاء نزعات أو أفعال معادية للمجتمع، وهنا تكمن الصعوبة في التمييز بين الأصيل والزائف، وهو ما توضحه بعض الأمثلة.

فقد روى شاب ذات مرة كيف سبح مع رفاقه إلى جزيرة في البحر، وبينما كان أحدهم متكئًا على حافة جرف فقد توازنه وسقط في الماء، فاكتفى الشاب بمشاهدته وهو يغرق دون أن يُحرّك ساكنًا. وعندما استعاد الواقعة لاحقًا لم يجد في سلوكه ما يثير استغرابه. ورغم أن ذلك الرفيق نجا، فإن الحادثة تبين أن الشعور الاجتماعي لدى الراوي كان ضعيفًا إلى حد كبير، ولن يغير من هذا الحكم أن يكون قد عاش حياته من غير أن يؤدي

أحدًا أو أنه أقام صداقات مقربة، فالمعيار هنا أكثر عمقًا. ويؤكد ذلك أيضًا ما كان يتكرر في أحلامه من أنه يعيش منعزلًا في كوخ جميل وسط الغابة، وهي صورة مفضلة له في رسومه كذلك، ما يكشف بوضوح نقصًا في روح الجماعة.

وفي حكاية أخرى، انزلت سيدة مسنة على الثلج وهي تحاول اللحاق بحافلة، فعجزت عن النهوض، ومرّ بها كثير من الناس دون التفات، حتى جاء رجل وساعدها. عندها خرج رجل آخر كان يراقب الموقف وقال لمنقذها: "الحمد لله، أخيرًا وجدت إنسانًا لائقًا! لقد انتظرت خمس دقائق أراقب الناس، وأنت أول من فعل شيئًا". هنا نلمس كيف يمكن استخدام مظهر الشعور الاجتماعي للادعاء أو التفاخر دون القيام بالفعل.

وهناك حالات أكثر تعقيدًا تتطلب تحقيقًا عميقًا قبل الحكم. مثلاً، جنرال يرسل آلاف الجنود إلى حتفهم رغم يقينه بخسارة المعركة، مدعيًا أنه يتصرف لمصلحة الأمة. ورغم أن الكثيرين قد يوافقونه، فإن من الصعب اعتباره صاحب شعور اجتماعي سليم أو إنسانًا صالحًا حقًا، لأن معيار الحكم يجب أن يكون المنفعة العامة للبشرية، لا مجرد المبررات الظاهرية.

فمفهوم المصلحة العامة، أو ما يُعرف بالمنفعة الاجتماعية، هو المنظور الذي يقدمه علم النفس الفردي للحكم الصحيح على هذه الحالات، إذ نستطيع بواسطته التمييز بين ما هو صادق وما هو زائف في سلوك البشر.

يتجلى الشعور الاجتماعي في كل نشاط إنساني، وقد يظهر في أبسط التعبيرات اليومية، كمنظرات العيون أو المصافحة أو نبرة الحديث، وقد يترك الشخص بانطباع لا يُمحى نشعر به حدسيًا، فنستنتج منه الكثير من أحكامنا على الآخرين. وإدخال هذه المعرفة



الحدسية إلى الوعي يتيح لنا اختبارها وتعديلها، ويحمينا من الوقوع في الأحكام المسبقة التي غالبًا ما تتشكل في اللاوعي حيث لا نملك عليها سلطانًا.

وهنا نؤكد أنه لا يجوز تقييم شخصية الفرد خارج سياق حياته وظروفه، لأن انتزاع ظواهر معزولة والحكم عليها وحدها لا يؤدي إلا إلى أخطاء جسيمة. وهذه نقطة أساسية لأنها تُسقط عن كاهل البشرية عبئًا ثقیلاً من الأحكام الأخلاقية الجائرة. فالمعرفة الصحيحة بالنفس تجعلنا أقدر على التعقل وأحسن استثمارًا للحياة، وتمكننا من التدخل الإيجابي في حياة الآخرين، ولا سيما الأطفال، لإنقاذهم من مصائر مظلمة. وإذا نجحنا في ذلك فلن يُحكم على أحد بأن يعيش حياة بائسة لمجرد نشأته أو ظروفه العائلية. عندها يمكن أن ينبثق جيل جديد يعيش بلا خوف، مدركًا أنه سيد مصيره بحق.

## كيف تتطور الشخصية

ينبغي أن تتلاءم السمات البارزة للشخصية مع خط تطور النفس منذ الطفولة المبكرة. فقد يسير هذا التطور في خط مستقيم أو يتخذ مسارًا متعرجًا مليئًا بالانعطافات. في البدايات، يسعى الأطفال إلى بلوغ أهدافهم مباشرة، فيظهرون شخصية نشطة وجرأة هجومية، وغالبًا ما تتسم مراحل الطفولة الأولى بسمات القوة والمبادرة والاندفاع. لكن هذا المسار يمكن أن ينحرف بسهولة أو يتعرض للتعديل تبعًا للعقبات التي يواجهها الطفل.

تبدأ الصعوبات حين تمنع القوى المقاومة الطفل من بلوغ هدفه بالاندفاع المباشر. وعندها يلجأ إلى سلوكيات ملتوية أو طرق التفاوضية، وهذه بدورها ترسم ملامح سمات شخصية جديدة. ولا يقتصر الأمر على العقبات الظاهرة؛ فالعيوب الجسدية أو الهزائم المتكررة أو المعاملة القاسية من المحيطين تترك أثرًا مماثلاً. ويضاف إلى ذلك أثر البيئة

الأوسع - المجتمع بعاداته ومطالبه وتوقعاته - التي تُسهم بدور حاسم في تشكيل الشخصية، إذ إن كل أسلوب تربوي يوجه الطفل نحو ما يُعتبر مناسبًا في الحياة الاجتماعية والثقافية المحيطة به.

إن وجود العقبات يقطع خط النمو المباشر للشخصية. ففي غيابها، يتعامل الطفل مع الحياة بجرأة وصراحة، أما عند حضورها، فيميل إلى الالتفاف والمراوغة. يمكننا أن نميز هنا بين نوعين من الأطفال: النوع الأول (أ) يواجه مشكلاته وجهًا لوجه بثبات وشجاعة، أما النوع الثاني (ب) فيفتقر إلى هذه الشجاعة، وقد أدرك مبكرًا أن النار تحرق وأن الناس قد يصدونه أو يؤذونه، فيسلك طرقًا ملتوية إلى غايته في الاعتراف أو السيطرة. وتحدد درجة انحرافه عن الطريق المباشر شكل شخصيته المقبلة، أكان ميلاً إلى الحذر والحيطة أم إلى تجنب الحياة ومشكلاتها بالكلية.

كثيرًا ما تجتمع ملامح النوعين في الفرد الواحد، خاصةً حين تكون الشخصية في طور التكوين بعد، حيث يظل الطفل مترددًا، يجرب مسارات مختلفة، ويتنقل بينها حتى يستقر على أسلوب بعينه.

إن الاستقرار الأسري الهادئ هو الشرط الأول لتكيف الطفل مع المجتمع. فإذا خفف الوالدان من سعيهما الشخصي وراء السلطة ولم يرهقا الطفل بصراعاتهما، وإذا فهما مبادئ نموه النفسي، فسيمكنهما تجنبه التطرف: فلا تنقلب شجاعته إلى وقاحة وأنانية، ولا تتحول طاعته إلى خضوع مشلول. أما إذا أثقل الطفل بالضغط والتأنيب، فإن طاعته لا تكون إلا ظاهرية، ويغدو عاجزًا عن قول الحقيقة خوفًا من العقاب.

تتجلى شخصية الطفل في طريقة تعامله مع هذه العقبات، وتترك كل تجربة بصمتها عليه. وغالبًا ما يعجز الأطفال عن تقييم المؤثرات التي تخترق حياتهم، كما يعجز الكبار

من حولهم عن فهمها أو تداركها. وهكذا تتشكل الشخصية من تفاعلٍ دائمٍ بين العقبات وبين ردود الفعل تجاهها.

ويمكن تقسيم الناس لاحقًا بحسب موقفهم من الحياة إلى فئتين بارزتين: المتفائلون والمتشائمون.

المتفائلون هم أولئك الذين سار تطورهم في خط أقرب إلى الاستقامة، فواجهوا العقبات بشجاعة دون أن تُثنيهم. يحتفظون بثقتهم بأنفسهم، ويظلون في الغالب ذوي نظرة مشرقة، مطمئنين إلى أن كل خطأ قابل للإصلاح. يتميزون بسهولة التواصل مع الآخرين، وبقدرتهم على بناء الصداقات، فلا تسيطر عليهم الريبة أو الحذر. ولو أردنا تصويرهم رمزيًا، لكانوا أشخاصًا بأذرع مفتوحة، يرحبون بالبشر بلا تردد.

المتشائمون على النقيض من ذلك، هم الذين أورثتهم تجاربهم المبكرة شعورًا عميقًا بالنقص، فانعكست على رؤيتهم للحياة نظرة قاتمة. يظلون دائمًا في حاجة إلى الدعم، غير قادرين على الوقوف بمفردهم، يحملون في سلوكهم صدى بكاء الطفولة الدائم طلبًا للمعونة. إنهم حذرون أكثر مما ينبغي، يخشون مواجهة الحياة مباشرة، يعانون من قلق واضطراب في النوم، كأنهم دائمًا في حالة استنفار من خطر وشيك.

ويمكن تقسيم البشر أيضًا إلى عدوانيين ومدافعين. العدوانيون يبالغون في إظهار قوتهم، يلجؤون إلى العنف أو التصلب، يرفضون إظهار أي مظهر من الحنان أو اللطف باعتباره ضعفًا. تبدو شخصياتهم متغطرة متعالية، لكن هذه القوة الظاهرة تخفي وراءها هشاشة عميقة وشعورًا بعدم الأمان. وغالبًا ما يقودهم غرورهم إلى صراعات متواصلة، حتى ينكسروا عند أول هزيمة كبيرة، فيتوقف نموهم النفسي.

أما المدافعون فهم أولئك الذين جُربوا العدوان من قبل فارتدوا عنه بعد أن صدمتهم الهزائم. يتسمون بالحذر والجبن، يحاولون دائماً التراجع، ويختلقون الأعذار للانسحاب من مواجهة الحياة. قد ينجح بعضهم - ممن لم يفقد زمام المبادرة بالكلية - في إبداع عالم بديل من الخيال والفن، لكن الغالبية تستسلم للصعوبات، وتظل أسيرة الشك والريبة. يترددون قبل أي قرار، وينظرون إلى الآخرين بريية دائمة، ويستشعرون في كل مكان تهديداً خفياً. ومن ملامحهم المشتركة الحسد والجشع والانطواء، بل إنهم قد يجدون في سعادة غيرهم ما يثير ألمهم الداخلي.

إن هذه الأنماط، على اختلافها، تكشف كيف أن الشخصية ليست شيئاً يُولد به الإنسان مكتملاً، بل هي نتيجة لمساره في مواجهة الحياة. فهي ثمرة صراعه مع العقبات، وطريقته في التعامل معها، ومدى تمتعه بالشعور الاجتماعي الذي يحميه من السقوط في متهاتات العدوان أو الجبن.

## المدرسة القديمة لعلم النفس

من الممكن - نظرياً - محاولة فهم الطبيعة البشرية من غير وعي واضح بالاتجاه الذي يتخذه البحث. فالطريقة التقليدية كانت تقف عند نقطة واحدة في مسار التطور النفسي، وتضع بناءً عليها "أنماطاً" عامة تُستعمل كعلامات للتصنيف. ويمكن - على سبيل المثال - تقسيم البشر إلى مفكرين وفاعلين. فالمفكرون أميل إلى التأمل والانغماس في الخيال، يعيشون داخل عالم ذهني، ويتهربون من مواجهة الواقع. وغالباً ما يكون من الصعب دفعهم إلى العمل أو الإنجاز مقارنةً بالفاعلين. أما الفاعلون فهم أقل ميلاً للتفكير المتأمل، ونادراً ما يقفون للتفحص النظري، إذ ينشغلون بأسلوب عملي مباشر، ويواجهون مشاكل الحياة بواقعية ونشاط.

هذه الأنماط موجودة بالفعل، ولا يمكن إنكارها. لكن لو التزمنا بهذا النوع من التصنيف الذي تبنته المدرسة القديمة، فسوف ينتهي بحثنا عند هذا الحد، شأننا شأن غيرنا من علماء النفس الذين يكتفون بالقول إن أحد الأنماط يتطور في الخيال، بينما يتطور الآخر في العمل. غير أن هذا الوصف السطحي لا يكفي لتقديم بيان علمي متماسك. نحن بحاجة إلى مفاهيم أعمق تشرح لنا لماذا تتكون هذه الأنماط، وهل هي حتمية بالفعل أم يمكن تعديلها أو تجنب آثارها. ولهذا السبب، فإن مثل هذه التصنيفات المُصطنعة، على الرغم من أنها تلتقط بعض الفروق القائمة بين الناس، لا تصلح أساسًا لدراسة عقلانية للطبيعة الإنسانية.

أما علم النفس الفردي فقد وجه اهتمامه إلى نقطة النشوء الأولى للمظاهر النفسية في الطفولة المبكرة. وقد بين أن هذه المظاهر – سواء ظهرت متفرقة أو مجتمعة – تصطبغ دومًا بإحدى قوتين أساسيتين: إما سيطرة الشعور الاجتماعي، وإما اندفاع السعي إلى السلطة. وبهذا الاكتشاف، وُضع بين أيدينا مفتاح لفهم البشر من خلال مبدأ بسيط وشامل. وبفضله يمكن تصنيف كل إنسان ضمن هذا الإطار، الذي يتسم باتساع مجال تطبيقه وعمق دلالاته.

بطبيعة الحال، يتطلب الأمر التعامل مع كل حالة بقدر كبير من الدقة والملاحظة المتأنية، كما يليق بعلم النفس. لكن هذا المبدأ يمدنا بمعيار صالح للحكم على أي مظهر نفسي: هل يتضمن قدرًا كافيًا من الشعور الاجتماعي والسعي البناء إلى التقدير، أم يغلب عليه الطموح الأناني الذي لا ينتج إلا شعورًا زائفًا بالتفوق والهيبة الشخصية؟ على هذا الأساس يصبح من الممكن أن نفهم بوضوح سمات شخصية كانت تُفسَّر من قبل على نحو مضطرب أو ناقص، وأن نحكم عليها وفق مكانتها داخل الشخصية ككل.

يتيح لنا هذا الفهم، فوق ذلك، أداة عملية لتعديل السلوك وتوجيه الفرد نحو تكامل أفضل.

## المزاج والغدد الصماء

إن تصنيفات "الأمزجة" من أقدم المحاولات في دراسة الظواهر النفسية وسمات الشخصية. ومع ذلك، يظل من العسير تحديد المقصود بالمزاج بدقة: أهو سرعة التفكير والكلام والفعل؟ أم القوة والإيقاع الذي نواجهه به مهمات الحياة؟ وعند البحث في الأدبيات النفسية نجد أن تفسيرات علماء النفس لجوهر المزاج لا تزال قاصرة. والواقع أن العلم لم يتخلص بعد من مفهوم "الأمزجة الأربعة" الذي ورثناه عن العصور القديمة، حين بدأ الإنسان يدرس طبيعته. فقد قسّم أبقراط البشر إلى دمويين ولونيين وكثيبين وبلغميين، ثم تبنى الرومان هذا التصنيف، وبقي أثرًا تقليديًا مقدسًا في علم النفس حتى اليوم.

المتفائلون هم الذين ينعمون بشيء من البهجة في حياتهم. لا يأخذون الأمور على محمل الجد، ولا يدعون الأعباء تثقلهم، بل يسعون لرؤية الجانب المشرق في كل حدث. يحزنون عندما يكون الحزن مبررًا، من دون أن ينهاروا، ويستمتعون حين يحين الفرح، من دون أن يندفعوا إلى فقدان صوابهم. وإذا وصفناهم بدقة فلن نجد سوى أنهم أصحاب البدن والنفس، خالون من عيوب خطيرة. أما الأنماط الأخرى فلا يمكن الحكم عليها بهذه البساطة.

أما ذوو المزاج الغضوب فقد صوّرهم الشعر القديم بأنهم من يركل الحجر في الطريق بعنف، بينما يميل المتفائل إلى الالتفاف حوله بهدوء. وفي لغة علم النفس الفردي هم الأشخاص الذين يسعون إلى السلطة والهيمنة باندفاع، فيواجهون العقبات بعنف

ويشعرون بضرورة إثبات قوتهم دائمًا. يبدأ هذا الميل في الطفولة المبكرة، حين يُجرب الطفل مشاعر العجز، فيتعلم أن يُعوّضها باستعراض القوة.

أما أصحاب المزاج الكئيب فيبدون صورة مختلفة كليًا. فإذا صادفوا نفس الصخرة في الطريق، وقفوا أمامها وتذكروا ذنوبهم الماضية، وأثقلهم الحزن حتى يعودوا أدراجهم. إنهم أشخاص مترددون، يشكّون في قدرتهم على تجاوز الصعاب، ويميلون إلى الثبات في مكانهم بدل خوض مغامرة جديدة. يغلب عليهم التفكير في ذواتهم، الأمر الذي يحول بينهم وبين بناء علاقات إنسانية سليمة، وينشغلون بتأملات حزينة وحنين لا طائل منه.

أما البلغميون فيبدون غرباء عن صخب الحياة. يجتازون تجاربهم من غير أن يخرجوا منها بعبرة، بالكاد يهتمون بشيء، ولا يسهل تكوين صداقات معهم، وكأن علاقتهم بالعالم واهية إلى أبعد حد.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن النمط المتفائل وحده هو الأقرب إلى أن يكون "مزاجًا سليمًا". ومع ذلك، نادرًا ما نجد شخصًا ينتمي إلى مزاج واحد صرف، بل غالبًا ما يكون المزيج بين مزاجين أو أكثر هو السائد. ولهذا، تبقى نظرية الأمزجة محدودة القيمة. ثم إن هذه المزاجات ليست ثابتة، فقد يبدأ الطفل غضوبًا ثم يميل إلى الكآبة، وينتهي به المطاف إلى بلغمية واضحة. وغالبًا ما يكون الأمر مسألة ظروف وحظ: فالمتفائلون مثلًا هم الأقل تعرضًا لمشاعر النقص في طفولتهم، والأقل إصابة بالعلل الجسدية، ما منحهم نموًا أكثر هدوءًا وشعورًا أوسع بالطمأنينة.

وهنا يدخل العلم ليعلم أن "المزاج" مرتبط بالغدد ذات الإفراز الداخلي. ومن أبرز مكتشفات الطب الحديث أن لهذه الغدد - مثل الدرقية، والنخامية، والكظرية، وجارات الدرقية، وجزر لانغرهانس في البنكرياس، والغدد الجنسية - أثرًا مباشرًا في نمو الإنسان

ونشاطه. فهي تفرز موادها في الدم لتصل إلى كل خلية، وتعمل كمنشطات للحياة. لكن معرفتنا بوظائفها ما زالت ناقصة، وعلم الغدد الصماء لا يزال في بداياته.

من الحقائق الواضحة أن اضطراب الغدد يترك آثاره على الجانب النفسي أيضًا. فالمصاب بقصور في الدرقية مثلًا - كما في حالة الفدامة - يُظهر ملامح بلغمية: بطء، وخمول، وفقدان للمبادرة، إضافة إلى التغيرات الجسدية المميزة. ومع ذلك، لا يمكن القول إن كل مزاج بلغمي يرجع إلى قصور درقي، فالتاريخ النفسي للفرد يظل الفارق الأهم. وكثيرًا ما يكون ما نسميه بالمزاج البلغمي مجرد آلية دفاعية يلجأ إليها الشخص الحساس لحماية ذاته من الإهانات والانكسارات.

الأمر نفسه يصدق عند فرط نشاط الغدة الدرقية، كما في تضخم الغدة الجحوظي (مرض بازيدو): حيث نرى فرطًا في النشاط العصبي، وقلقًا واضحًا، وارتعاشًا، وتسارعًا في النبض. ورغم التشابه الظاهري مع القلق العصابي، فإن مصدر الأعراض مختلف: فالأول عضوي، والثاني نفسي محض.

وينطبق الأمر كذلك على الغدد الجنسية. صحيح أن خللها العضوي قد يصاحبه ضعف في التكيف النفسي، لكن هذا لا يعني أن الشخصية تُبنى على الغدد وحدها. فحالات الخلل المرضي نادرة، والتجارب النفسية السابقة تظل هي العامل الحاسم في رسم الاتجاهات.

لقد بالغ بعض الباحثين في نسبة الشخصية إلى الغدد الصماء، لكن الواقع يُظهر أن أية إعاقة جسدية أو ضعف بدني ليست حُكمًا نهائيًا على المصير. فالإنسان قادر دائمًا على تجاوز العوائق بالخبرة والتربية. والمهمة الحقيقية لعلم النفس ليست الاكتفاء بالبحث في الوراثة أو الغدد، بل في دراسة الفرد داخل سياقه الاجتماعي والنفسي، حيث يبرز معياران



أساسيان لتقييم الشخصية: أولهما مقدار ما يظهر من الشعور الاجتماعي وروح الجماعة، وثانيهما قوة النزعات الساعية إلى التفوق والسيطرة. ومن خلال هذا التفاعل بين الاتجاهين تتحدد شخصية الإنسان في صورتها النهائية.

## سمات الشخصية العدوانية

### الغرور والطموح

بمجرد أن يتغلب السعي وراء الأهمية على النفس، يثير توترًا نفسيًا متزايدًا. ونتيجةً لذلك يبرز هدف السلطة والتفوق بوضوح متنامٍ لدى الأفراد الذين يلاحقونه بعنف وضراوة، ويعيشون حياتهم على أمل انتصارات عظيمة. يفقد هؤلاء إحساسهم بالواقع، وينصرفون عن الحياة الحقيقية لانشغالهم الدائم بسؤال: ماذا يظن الآخرون فيّ؟ وأيُّ انطباعٍ أتركه في العالم؟ وهكذا تتقلص حريتهم في التصرف، وتغدو السمة الأبرز في شخصياتهم: الغرور.

وربما لا يخلو إنسان من شيء من الغرور؛ ومع ذلك، لا يُعدّ إظهاره سلوكًا لائقًا، لذا يتخفى أو يتنكر. فهناك مثلاً ضربٌ من الحياء هو في جوهره غرورٌ مُقنّع. وقد ترى شخصًا مغرورًا إلى حدٍّ لا يعبا معه بأحكام الناس، بينما يسعى آخر بشراهةٍ إلى الشهرة العامة ويستغلها لمصالحه.

وإذا تمادى الغرور صار خطرًا بالغًا. فهو، إضافةً إلى دفع صاحبه إلى أنشطةٍ عقيمة تهتم بالمظهر دون الجوهر، ويجعله منهمكًا بنفسه أو بآراء الناس فيه، يفصله عن الواقع: يختل فهمه للعلاقات الإنسانية ويتشوه موقفه من الحياة، ويغفل واجباته كبشر في مجتمعٍ أكبر. ما من رذيلةٍ أبرع تصميمًا في تعطيل النمو الحرّ للإنسان من الغرور الشخصي الذي يجعل المرء يواجه كل شخص وكل حدث بسؤال واحد: «ما الذي سأربحه من هذا؟».

ولتلطيف حقيقة الغرور، تُستبدل لفظة «الغرور» كثيرًا بلفظةٍ أطف: الطموح. تخيل كم من حولك يفاخرون «بطموحهم»! وتشيع أوصافُ كـ«نشيط» و«حيوي». وما دامت هذه الطاقة نافعةً للمجتمع فالقيمة مُعترفٌ بها؛ لكن كثيرًا ما تُستخدم عبارات «الجدّ والاجتهاد» و«النشاط» ليس إلا لستر مقدارٍ مفرطٍ من الغرور.

وسرعان ما يدفع الغرورُ أصحابه إلى الامتناع عن اللعب وفق القواعد، بل إلى تعطيل لعب الآخرين. فتجد من لم يُشبع غروره يسعى جاهدًا إلى حرمان الناس من الاستمتاع الكامل بحياتهم. والأطفال الذين ما زال غرورهم في طور النمو يستعرضون «شجاعتهم» في المواقف الخطرة، ويتلذذون بإظهار قوتهم على الأضعف. وأطفالٌ آخرون، وقد وقعوا في شيء من الإحباط، يحاولون إرواء غرورهم بشتى التوافه الغامضة؛ يفرون من ساحة العمل الرئيسة، ويبحثون عن بطولةٍ على هامش الحياة تستهويهم. وينتمي إلى هذه الفئة أولئك الذين لا ينقطعون عن الشكوى من مرارة الحياة وسوء حظهم، يريدوننا أن نصدّق أنّهم – لولا تعليمٌ سيئٌ أو نازلةٌ عارضة – لكانوا قادة. إنهم يختلقون الأعذار لبيتعدوا عن خط المواجهة الحقيقي؛ وربما كان الرضا الوحيد لغرورهم في الأحلام التي ينسجونها لأنفسهم.

ويعسر على الناس التعامل مع هؤلاء لأنهم لا يعرفون كيف يقيمونهم أو ينتقدونهم. فالمغرورون يُتقنون دومًا إلقاء التبعة على غيرهم: هم دائمًا على حقّ، وسواهم مخطئ. غير أنّ الحياة اليومية لا تُفرّق كثيرًا بين من هو «على حق» ومن هو «على باطل»؛ الأهم أن تُنجز الأعمال وأن نُسهم في حياة الآخرين. وبدلًا من الإسهام ينشغل المغرورون بالشكاوى والمعاذير والجدال. إننا بإزاء أساليب نفسية شتى لحماية شعورٍ متضخّمٍ بالتفوق وصور الغرور من أيّ إهانة.

وقد شاع الاعتراض: لولا «الطموحات» الكبرى لما تحققت عظمى الحضارة. وهذه رؤية خاطئة من زاوية خاطئة. فليس أحدٌ خاليًا تمامًا من الغرور؛ لكن الغرور ليس هو الذي يوجّه نشاط البشر نحو غايةٍ نافعةٍ للجميع، ولا هو الذي يمدّهم بالقوّة لإنجاز الأعمال العظيمة. إنما تُنجز تلك الأعمال بدافع الشعور الاجتماعي. ولا يغدو العمل العبقري ذا قيمة إلا في سياقه الاجتماعي. وأيّ غرورٍ يلتصق بالإبداع لا يزيده إلا نقصًا؛ وفي العمل العبقري الحقّ، دور الغرور ضئيل. وفي مناخ عصرنا الاجتماعي يستحيل التخلّي الكامل عن شيءٍ من الغرور؛ غير أنّ إدراكنا الواعي لهذه الحقيقة مكسبٌ عظيم. وهنا نمسّ موضعَ علّةٍ في حضارتنا: مصدرَ شقاءٍ دائمٍ لكثيرين ممّن لا يتعايشون مع أحدٍ ولا يتكيّفون مع الحياة لأنّ همهم الأوّل أن يبدوا أهمّ ممّا هم عليه. وليس عجبًا أن يكونوا غالبًا على خلافٍ مع الجميع؛ إذ لا يشغلهم إلا صيتهم عند الآخرين. وحتى في أعقد الحالات، تنكشف المشكلة الأساسية: محاولة فاشلة لإشباع الغرور. وحين نفكك شخصيةً معقدةً يلزم أن نحدد مقدار الغرور واتجاهه وأدواته. وعندئذٍ يتضح لنا دائمًا مقدار الأذى الذي يلحقه الغرور بالشعور الاجتماعي. فالغرور لا يتعايش مع الالتفات إلى إخواننا البشر؛ هاتان الصفتان على طرفي نقيض، لأن الغرور يأبى الخضوع لحاجات المجتمع.

الغرور - في جوهره - أنانية. لكن نموّه مهّدّدٌ باعتراضاتٍ منطقية تفرّضها الحياة الجماعية، وهي مبادئ لا تُنكر. لذا يُضطر إلى التخلّي مبكرًا، فيسلك طرقًا ملتويةً إلى غايته. ويبقى صاحبه فريسةً لشكوكٍ عميقةٍ حول قدرته على تحقيق الانتصارات التي يتطلبها غروره؛ وبينما يحلم ويُطيل التأمّل يمرّ الوقت. فإذا انقضى الزمن احتجّ بأنّه لم تُتَح له فرصةٌ إظهار ما يستطيع.

وغالبًا ما تسير الوقائع هكذا: يطلب صاحبنا مكانةً خاصة، فينأى عن صخب الحياة، ويراقب الناس كلهم برييةً كأنّ كلَّ إنسانٍ خصم. ويُضطرُّ إلى مواقف هجوميةٍ وأخرى دفاعية. ونراه غارقًا في اعتباراتٍ «كبرى» تبدو مُحكمةً تُكسبه مسحة الصواب، لكنه – في أثنائها – يُضَيِّع الفرص، وينقطع عن الحياة والمجتمع، ويتهرَّب من المهام التي لا بد لكل أحد من إنجازها.

ولو أمعنا النظر لرأينا خلف ذلك كله رغبةً في قهر كل شيءٍ تنعكس في آلاف الصور: في الموقف، واللباس، والكلام، وأسلوب المخاطبة. ولأن هذه المظاهر غير مُرضية، يسعى بعض المغرورين الأذكياء إلى سترها: فيبدو أحدهم متواضع الملبس مُهمل الهيئة كأنه غير مغرور! ويروى أنّ سقراط قال لخطيبٍ صعد المنصة بثوبٍ مرّقع: «يا فتى أثينا، إنّ غرورك يطلُّ من كل ثقبٍ في ثوبك!».

وكثيرون مقتنعون – ظاهراً – أنهم متحررون من الغرور، مع أنّ الغرور يكمن في أعماقهم. وقد يتجلّى في حرصهم على تصدُّر مجالسهم والاحتفاظ بالكلمة، وتقييمهم أيّ لقاءٍ اجتماعي بقدر ما ييقون في دائرة الضوء. وقد يظهر بالعكس: في تجنّب المجتمع، ورفض الدعوات، والتأخّر المتعمّد، وإلزام المضيف بالاسترضاء والإطراء. وبعضهم لا يحضر إلا بشروطٍ «حصريّة» متشددة يتباهى بها. وآخرون يُسرفون في ارتياد كل محفل. ليست هذه التفاصيل تفاهات؛ بل جذورٌ نفسيّة، وتشي بانعدام الشعور الاجتماعي، بل بعداءٍ للمجتمع أكثر من مودته.

والقاسم المشترك بين وجوه الغرور كلّها: هدف غير قابل للتحقق – أن يكون المرء أهمّ وأنجح من جميع الناس. ذلك الهدف وليد شعورٍ بالنقص. وغالبًا ما يدلّ الغرور الفجّ على

ضعف تقدير صاحبه لقيمته الحقيقية. وقد يعرف بعضهم أنّ غروره نابغ من شعوره بالنقص، غير أنّ المعرفة، ما لم تُستثمر عملاً، لا طائل تحتها.

ينشأ الغرور مبكراً جداً ويحمل معه ظاهراً طفولياً واضحاً؛ لذا يبدو المغرورون في عين الرائي أطفالاً كباراً. وتتهيأ له بيئات شتى: فقد يشعر طفلاً بالإهمال لسوء التربية فيُسحق بإحساس الصغر والضعف؛ ويكتسب آخر غروراً من تقاليد أسرته إذ تُشيد له صورة «أرستقراطية» تُميّزه عن غيره وتنفخ فيه الكبر. وهكذا تنشأ «نخبة» ترى نفسها مولودة «أفضل» من سائر الناس، ذات حساسيات «أرفع»، مقدرة - بنسبها - للإبقاء على امتيازات بعينها. ويُحدّد هذا الادّعاء مسار حياتهم، لكنه يجرّ عليهم السخرية والعداء؛ فينكمشون إلى عزلة وخصوصية يسهل فيها صون وهم العظمة: «لو اختلفت الظروف لبلغتُ هدفي».

وقد تلقى أناساً أكفاء موهوبين أساؤوا استخدام مواهبهم لتغذية هذا الوهم: يشترطون شروطاً مستحيلة لتعاونهم مع المجتمع - «لو علمتُ كذا من قبل... لو تغيّر ذاك... لو فكر الرجال والنساء بطريقة أخرى...». هذه شروط لا تُلبّي، وليست إلا أعداراً مُسكّنة تُعفي من مواجهة الوقت الضائع.

ويميل هؤلاء إلى قدرٍ عالٍ من العداء ويقسون على آلام الناس؛ وهكذا يكتسبون شعوراً بالعظمة. قال لاروشفوكو: «إن أكثر الناس يطيقون آلام غيرهم بجلد». وغالباً ما يظهر العداء الاجتماعي في صورة نقدٍ لاذع؛ ولربما صقل أصحابه ألسنةً حادةً وخبرةً واسعة. لكن لساناً حاداً قد يُحدث من الأذى ما تُحدثه أيّة آلة جارحة.

وهذا السلوك المفرط في النقد تعبيرٌ عن سمةٍ شائعة: عقدة الاستخفاف - محاولة كسب شعورٍ بالتفوق بإهانة الآخرين. والاعتراف بقيمة الناس إهانةً للمتكبر؛ ومن هنا

نستدلّ على عمق شعوره بالضعف.

وبما أنّ أحدًا لا يخلو من نُتفٍ من الغرور، فليطبّق كلّ منّا هذا المعيار على نفسه؛ وإن عَسُرَ اقتلاع نزعاتٍ غذّتها تقاليدُ آلاف السنين، فمجرد وعيها خطوةٌ في الطريق.

لسنا نرغب في الانفصال عن بني الإنسان ولا في الاصطفاء لأنفسنا؛ بل نشعر أنّ قانونًا طبيعيًّا يدعوننا إلى مدّ اليد والتعاون. وفي عصرٍ يقتضي تعاونًا كثيفًا تضيق المساحة لمساعي الغرور الشخصي؛ وتتضح حماقته أكثر من أيّ حين، إذ نرى كلّ يومٍ كيف يسبق الكبرُ السقوط، فيُلقي بصاحبه في صدامٍ مع المجتمع أو في حاجةٍ إلى تعاطفه. أقلُّ ما يمكن أن نفعله أن نبحت – إن لزم – عن منافذ أقل ضررًا للغرور تُصرف في اتجاه الصالح العام.

### حالة (1): الطفلة المدلّلة و«عقدة المرض»

شابةٌ صغرى إخوتها، مُدلّلة منذ نعومة أظفارها، ضعيفةٌ الصحة. تعلّمت مبكرًا أن مرضها «قانونٌ» تُحرّك به أمّها؛ فاكتشفت في العارض الصحي «كنزًا». ومع الوقت درّبت نفسها على استحضار المرض كلما أرادت بلوغ غاية؛ فإذا رغبت في أمر جاءت أعراضُ القلق والدوار والغثيان حقًا بقوة التماهي. وهكذا أخضعت محيطها كله. تأخّرُ الفطور دقائق يستدعي زوجها مذعورًا، وتأخّرُ الزوج عن عودته دقائق يفضي إلى «انهيار» يفرض عليه دقّةً مطلقة. قد يُقال إن مكاسبها هزيلة، لكن ذلك مفتاح سائر جوانب حياتها في البيت. ومع الزمن ضاقت قدرة هذه «الحيلة» خارج الأسرة؛ فاشتدّ قلقها في المناسبات، ثم في المسرح، ثم في الشارع، حتى صارت لا تخرج إلا في «موكبها». لقد حملت معها نمط الطفلة المدلّلة وبالغت فيه حتى اصطدمت بقوانين الحياة؛ ولمّا تعاضمت كلفته لجأت

إلى العلاج وهي - في العمق - غير راغبة في التغيير: أرادت استمرار السيطرة دون ثمن القلق، وهذا محال. كان لا بد من تفكيك البناء كله، مع مقاومةٍ شديدةٍ مفهومة.

## حالة (2): طالب على أعتاب الامتحان

شابٌ في الخامسة والعشرين، قبيل امتحانه النهائي، باغته فتورٌ شديدٌ وشكٌ في قيمته، فعجز عن التقدّم. طفولته مثقلة بتوبيخاتٍ قاسية؛ ومع اقتراب الحسم ارتجف غروره: «ماذا لو فشلت؟». فأثر الانسحاب ليبقى شعوره بقيمته سليماً - ستره نجاة يحملها دائماً: «لو لا المرض والظروف لنجحت». وهو الابن الأكبر والوحيد بين أربع شقيقات، و«مشروع العائلة» الذي لا يكفّ الأب عن إذكاء طموحه. كان هدفه أن يكون «الأول»، فلما جاء الامتحان أشار الغرور إلى خطّ التراجع. هكذا يُعطّل الغرور الطموح المسير ويصطدم بالشعور الاجتماعي. ويستغرق أصحابه في خرائط متخيّلة لمدينةٍ لا وجود لها؛ يطلبون المطالب بالسلطة أو المكر، ويتحيتون إثبات خطأ الآخرين ودونيتهم، لكن الناس تقاومهم فتؤول المعركة إلى خسارةٍ أو «نصر» عقيم، ويبقى يقينهم الكاذب بتفوقهم.

وعند هذه النقطة يغدو كلُّ تواصلٍ «معركة نصرٍ أو هزيمة». وتستحيل الحياة سلسلة توتراتٍ تُذهِبُ اللذائذ الحقيقية. والسعادة لا تُنال إلا بقبول شروط الحياة؛ فإذا أُهملت تلك الشروط حُجبت طرقُ السعادة كلها، ولم يبق إلا أحلام بالتفوق والسيطرة دون سُبُلٍ إلى تحقيقها. وحتى لو ظفروا بتفوقٍ ما فلن يعدموا من ينازعهم إيّاه؛ إذ لا يُجبر أحدٌ على الإقرار بتفوق أحد. وتغدو «السمعة» حكماً غائماً لا يُمسك.

أمّا حين تُبرّر السمعة بخدمة الناس فيجيء الشرف طبيعياً ويغدو الاعتراض عليه لغواً. يستطيع أصحابه أن يحفظوه في سكون لأنهم لم يُقامروا بكل شيءٍ على الغرور. والفارق الحاسم هنا: الموقف الأناني الذي لا يرى إلا «الأخذ»، في مقابل موقفٍ اجتماعيٍّ

يسأل: «ماذا أستطيع أن أعطي؟». وهنا نفهم حكمةً قديمة: «العطاء أسعدُ من الأخذ»؛ فالرغبة في العطاء والخدمة تُحدثُ انسجامًا نفسيًا يعود إلى المعطي كذهبٍ يعود إلى صاحبه. وأما «المُكتسبون» المنشغلون دائمًا بما ينالون، غير المبالين بحاجات غيرهم، الشامتون بسوء حظ الآخرين، فلا موضع في عالمهم لتصالِحٍ مع الحياة؛ إنهم يطالبون الناس بالخضوع لقوانين أنانيتهم.

وتظهر أشكالٌ أوليّةٌ للغرور في الملابس والزينة، كما كان البدائي يُريش رأسه عند بلوغ الشرف. فالحليّ والوشوم والرموز قد تُغذي وهم التفوق. وقد يتوسّل آخرون إلى الشعور ذاته بالوقاحة أو الجفوة أو التجهم أو الانعزال. وبعض هذه القسوة قناعٌ فوق رهافةٍ مُستترة؛ لكن نُدرة الشعور ليست إلا موقفًا عدائيًا من الشعور الاجتماعي. ومن السذاجة استدرار «عاطفتهم»؛ فكثيرًا ما يكسب بعض الأطفال شعورًا بالتفوق كلما رأوا آلام آبائهم تُستدرُّ بالتوسّل.

ولأن الغرور يحبّ الأقنعة، يعمد أصحابه - كي يحكموا الناس - إلى استمالتهم أولًا: مظهرٌ ودٌّ وحنانٌ وإنسانيةٍ «زائدة» تُطمئن الخصم، ثم ينكشف القناع. ومن الحكمة الحذر من «الإحسان» الذي يبدو أكثر مما يُصدّق؛ فالتملق مُنفرٌ، وما أسرع ما يُكشَف.

### حالة (3): «التخلف» المصنوع

أخٌ وأخت. كانت الأخت موهوبةً على نحوٍ بيّن، فحُكم على الأخ بأنه «ضعيف» ورُبي على أنه لا يُجيد سوى التفاهات. حمل هذا العبء إلى المدرسة مُحاولًا إخفاء ضعفه بأي ثمن. وحين اشتدّت رغبته في أن يُعامل كرجلٍ ناضج، انساق إلى رفقة العاهرات؛ ينفق ماله، ثم يسرق من أبيه كي لا يطلب. ولما أشرف على رسوبٍ فادحٍ استولى عليه «ندمٌ» وتأثيمٌ شديدان أعاقا دراسته - وهو «عذرٌ» يقيه حكم «نقص الموهبة». صار



يستيقظ باكراً، ينعس نهاراً، ويعجز عن التركيز؛ فإن فشل فثمة «ظروف مخففة»، وإن نجح فقد «ثبت» أنه قادرٌ منذ البدء. هنا نرى الحيلة وقد اشتغلت: أساسها غرورٌ لا يطيق امتحان الكفاءة، ولو كلفه الأمر مشارف الجريمة. إن الطموح المقرون بالغرور يُنتج مثل هذه التعقيدات والحيل، ويُفسد الصراحة والفرح واللذائذ الحقيقية – كل ذلك من أجل خدعةٍ ينكشف بطلانها عند التدقيق.

## لعب دور الإله

من سمات القصص الخيالية – التي تعلّمنا منها جميعاً الكثير عن الطبيعة البشرية – أنها تقدّم أمثلةً ساطعة على خطر الغرور المفرط. لنستعرض قصةً تُظهر بوضوح كيف يقود الغرور الجامح تلقائياً إلى تدمير الشخصية: إنها قصة «جرة الخل» لهانز كريستيان أندرسن. فيها يعيش صياد فقير في كوخ صغير. يصطاد سمكة، فيُطلق سراحها، فتمنحه السمكة – امتناناً – أمنية. يطلب الصياد كوخاً أوسع، فتتحقق أمنيته. لكن زوجته الطموحة، الناظمة، تُصرّ على أن يبدّل طلبه المتواضع بآخر أكبر: تطلب قلعة. ثم لا تفتأ تدفعه إلى العودة إلى السمكة مطالبةً بأن تُصبح دوقه، ثم ملكة، وأخيراً إلهة! عندها تسبح السمكة غاضبةً لهذا الطلب الأخير، وتركهما إلى الأبد على حالتهما المتواضعة الأولى.

لا حدود للغرور والطموح. ومن المثير للاهتمام أن نرى كيف يتحوّل السعي إلى السلطة – في القصص الخيالية كما في خيالات المغرورين – إلى رغبةٍ في لعب دور الإله. ولسنا بحاجة إلى طول بحثٍ لنجد مغرورين يتصرّفون كما لو كانوا إلهًا، أو على الأقل نائبه، أو يعلنون رغباتٍ لا يقدر على إنفاذها إلا الله. هذا التجلي – التشبه بالله – هو إحدى

الغايات القصوى لميولهم في شتى أنشطتهم، ويرقى إلى رغبة في تمديد ذواتهم خارج حدود شخصياتهم.

وتجد لهذه النزعة أمثلة كثيرة بين شريحة عريضة من المشتغلين بالروحانيات والبحوث «النفسية» والتخاطر وما شابهها؛ إذ يتألف هؤلاء من أناس يتوقون إلى تخطي حدود الإنسانية، ويرغبون في امتلاك قوى خارقة، وتجاوز الزمان والمكان، والتواصل مع الأرواح وأشباح الموتى.

وإذا تعمقنا قليلاً وجدنا أن شطراً كبيراً من البشر يميل إلى طلب مكانٍ عن يمين الله. ما تزال هناك مدارس تعليمية تُعدُّ «التشبه بالله» مثلاً أعلى تربوياً. في الماضي، كان هذا المثال الأعلى مقصدَ ألوانٍ من التعليم الديني على وجه الوعي. ولا يسعنا اليوم إلا أن نشهد نتائج هذا التعليم بشيءٍ من الفزع. لا شك أننا - اليوم - بحاجة إلى مثل أعلى معقول. غير أن من الممكن تماماً أن تكون هذه النزعة متجذرة عميقاً في البشرية؛ فضلاً عن أسبابها النفسية، تستمدُّ فئة كبيرة من الناس تصوّرها الأول عن طبيعة الإنسان من العبارات الشائعة الواردة في الكتاب المقدس التي تُعلن أن الإنسان خُلق على صورة الله. يسهل تخيل العواقب البالغة والخطيرة التي قد تخلّفها هذه الفكرة في نفوس الأطفال. لا ريب أن الكتاب المقدس عملٌ جليل يمكن أن نقرأه مراراً بإعجابٍ بعد نضج الإدراك؛ لكنّ الأولى ألا نعلّمه للأطفال - أو على الأقل ألا نعلّمه من غير شرح - ليتعلّموا كيف يكتفون في هذه الحياة، من دون افتراض قوى سحرية، ومن دون المطالبة بأن يكون الناس عبيداً لهم لمجرد أنهم «يعدّون الإنسان مخلوقاً على مثال إلهي»!

ويرتبط بهذا التطلّع إلى التشبه بالله مثلاً اليوتوبيا في القصص الخيالية حيث تتحقق كلّ الأحلام. نادراً ما يعتمد الأطفال على «حقيقة» هذه العوالم، لكن إذا أدركنا شغفهم

بالسحر فلن نشكّ في سهولة انجذابهم إليه وانغماسهم في الخيال. إن فكرة قوة السحر وتأثيره في الآخرين تترسخ لدى بعض الناس، وقد لا تزول إلا مع تقدّم العمر.

ولعلّ أحدًا لا يخلو تمامًا من أفكارٍ خرافيةٍ هنا؛ خذ مثلاً الاعتقاد بأن النساء يستطعن «سحر» عشاقهن. كم من رجالٍ يتصرّفون كما لو كانوا واقعين تحت تعويذة شريكاتهم! تعيدنا هذه الخرافة إلى زمنٍ كان فيه هذا الاعتقاد راسخًا حرفيًا على نحوٍ أوسع بكثير؛ يوم كان يكفي أوهى سببٍ لتوصم امرأةً بالسحر، وهو تحيّرُ خنق أوروبا كالكوايبس وأثر في تاريخها لعهودٍ طويلة. وإذا تذكّرنا أن مليون امرأةٍ كنّ ضحايا لهذا الوهم، أدركنا أنه ليس «خطأً غير مؤدّب»، بل فاجعةٌ تُقارَن - في أثرها - بأهوال محاكم التفتيش أو الحروب العالمية.

وإشباع الغرور باستغلال نزعة التعالي الديني علامةٌ فارقةٌ أخرى على طريق التشبّه بالله. يكفي أن نلاحظ مدى قابلية من عانوا انهياراتٍ نفسيةً للانزواء عن الناس والدخول في «حوارٍ شخصي» مع الله؛ هؤلاء يرون أنفسهم مقربّين، يلزم الله - بحكم صلواتهم التقوية وطقوسهم الأرثوذكسية - بالاهتمام المباشر بسلامتهم. وغالبًا ما يكون هذا العبث الديني بعيدًا كلّ البعد عن الدين الحقيقي حتى يبدو مرضًا نفسيًا خالصًا. وقد سمعنا مريضًا يقول إنه لا يستطيع النوم إلا بعد تلاوة دعاءٍ بعينه، لأنه - إن لم يُرسل هذا الدعاء إلى السماء - أصاب إنسانًا ما في مكانٍ ما مكروهٌ ما!

ولفهم هشاشة هذه الفكرة يكفي تأملُ نتيجتها: «إذا دعوتُ، لن يصيب أحدًا مكروه». هكذا تُنال بسهولةٍ نشوةُ العظمة السحرية. بهذه الحيلة البسيطة قد يُقنع المرء نفسه بأنه «درا» مصيبةً عن غيره. وفي أحلام يقظة هؤلاء المتدينين تتكرّر ميولٌ تتجاوز حدود البشر:

إيماءاتٌ فارغة، و«بسالة» عاجزة لا تغير طبيعة الأشياء، لكنها تنجح - ببراعة - في إبعاد الحالمين عن الواقع.

وفي حضارتنا شيءٌ واحد يبدو كأنه يملك قوى سحرية: المال. كثيرون يعتقدون أن المال قادرٌ على فعل ما يرغبون. لذا ليس عجيبيًا أن ينشغلوا بالمال والممتلكات في طموحهم وغرورهم. في هذا السياق يغدو سعيهم الحثيث لاقتناص متاع الدنيا مفهوميًا - وإن بدا لنا مرضيًا - إذ هو شكلٌ من أشكال الغرور يحاول - بتكديس المُلْك - الاقتراب من امتلاك قوة الساحر. وقد اعترف رجلٌ بالغ الثراء - بعد أن أصابه اضطرابٌ نفسي - قائلاً: «نعم، للمال قوةٌ تجذبني مرارًا وتكرارًا». لقد فهم ذلك الرجلُ نفسه، فيما لم يجرؤ كثيرون سواه على هذا الفهم. إن امتلاك السلطة، اليوم، وثيق الصلة بامتلاك المال؛ حتى صار السعيُّ إليه «طبيعيًا» إلى حدٍّ لا ينتبه معه أحدٌ إلى أن كثيرين ممَّن يقضون حياتهم في مطاردة الذهب إنما تدفعهم رغبةٌ باطلة في قوَّة «إلهية».

الغيرة سمةٌ لافتة لفرط انتشارها. ولا نعني بها الغيرة العاطفية فحسب، بل الغيرة في سائر العلاقات الإنسانية. تراها في الطفولة حين يتنافس الأطفالُ على التفوق؛ وقد تتطور فيهم طموحاتٌ مفرطة، وكلاهما يكشف عن موقفٍ عدوانيٍّ من العالم. فالغيرة - وهي شقيقةُ الطموح - سمةٌ قد تدوم مدى الحياة، وتنشأ من شعورٍ بالإهمال أو التفرقة.

وتشيع الغيرة بين الأطفال عند قدوم إخوةٍ أصغر يستأثرون بمزيدٍ من عناية الوالدين، فيشعر الأكبرون كأنهم «مُخلعون عن عروشهم». أطفالٌ نعموا - قبل المولود الجديد - بدفء الحبِّ الأبويِّ قد يشتدَّ فيهم الغيظ. وتُظهر حالةُ فتاةٍ في الثامنة ارتكبت ثلاث جرائم قتل إلى أي مدى قد تفضي هذه المشاعر.

كانت الطفلة رقيقةً ضعيفةً – شيئاً ما من التخلف – مُنعت من الجهد العنيف، فعاشت وضعاً مريحاً نسبياً. تبدّل هذا كله فجأةً حين بلغت السادسة ودخلت أختٌ صغيرةٌ البيت. تغيّرت شخصيتها رأساً على عقب، واضطهدت أختها بكرهيةٍ لا تلين. لم يفهم والداها سلوكها، فاشتدّا عليها يحاولان «تقويمها». ثم وُجدت طفلةً صغيرةً ميتةً في جدول القرية، وبعد زمنٍ قصيرةٍ أخرى غارقة، وأخيراً قُبض على مريضتنا متلبسةً وهي تدفعُ ثالثةً إلى الماء. اعترفت، وأدخلت مستشفىً للأمراض العقلية للمراقبة، ثم أُلحقت بمركزٍ إصلاحي. في هذه الحالة انتقلت غيرتها من أختها إلى أطفالٍ صغارٍ آخرين؛ ولوحظ أنها لم تُظهر عداً للأولاد، كأنها كانت ترى أختها في البنات. وبأفعالها القاتلة حاولت الانتقام من «إهمال» شعرت أنها تعرّضت له.

وتكثر مظاهر الغيرة بين الإخوة. وفي حضارتنا ليس مصيرُ الفتاة جذاباً بالضرورة؛ إذ قد تُتَبَّط همّتها إن استقبل مولدٌ أخيها بحفاوةٍ وحُصَّ بعنايةٍ واحترامٍ ومزايا لا تنال مثلها. علاقةٌ كهذه تُولّد عداًً طبيعياً. غير أنه ليس نادراً أن تبدي الأخت الكبرى حناناً أمومياً تجاه أخيها؛ وعلى المستوى النفسي قد لا يختلف هذا كثيراً عن الحالة السابقة؛ إذ باتخاذها هذا الموقف تستعيدُ قوةً تخولّها التصرف كما تشاء: حيلةٌ تُحوّل موقفاً خطراً إلى مصدر قوةٍ ثمين.

ويُعدّ التنافسُ المُفرط بين الأشقاء من أكثر أسباب الغيرة الأسرية شيوعاً؛ فقد تشعر فتاةٌ بالإهمال فتسعى بلا كللٍ إلى التفوّق على إخوتها، وكثيراً ما تنجح – بفضل اجتهادها ونشاطها – في التفوّق عليهم. وتساندها الطبيعة؛ فالفتاة – عقلياً وجسدياً – تسبق في المراهقة الصبي، وإن تقلّصت الفجوة لاحقاً.

والغيرة كالبروتوس الأسطوريّ متقلّبةً الوجوه: قد تظهر في انعدام الثقة ونصب الفخاخ للآخرين، وفي التقييم الناقد الدائم، وفي خوفٍ مستمرٍّ من الإهمال. ويتوقف أيُّ مظهرٍ يغلب منها على استعداد الشخص السابق للحياة الاجتماعية. قد تتجلّى تارةً في تدمير الذات، وتارةً في العناد الشديد، ومن وجوهاها إفساد متعة الآخرين، والمعارضة العنيفة، وتقييد حرية الغير وما يترتب عليه من إخضاعهم.

ووضع «قواعد سلوك» للآخرين من حيل الغيورين المفضّلة. ومن علاماتها محاولة تقييد الشريك بقيود الحب، أو بناء جدارٍ حول المحبوب، أو الإملاء عليه ماذا يرى وماذا يفعل وماذا يفكر. وقد تُستخدم الغيرة لإهانة الآخرين وتوبيخهم – وكلُّ ذلك وسيلةٌ إلى غايةٍ واحدة: سلبُ الإرادة الحرّة، وتقييدُ الغير، وإخضاعهم.

ونجد وصفًا بديعًا لهذا السلوك في رواية دوستوفسكي «نيتوتشكا نسفانوفا»، حيث ينجح رجلٌ غيورٌ في قمع زوجته طول حياتها مُمارسًا هيمنته عليها. وهنا نرى بوضوح أن الغيرة ليست إلا شكلاً صريحًا من أشكال السعي إلى السلطة.

وحيث يوجد سعيٌّ إلى الهيمنة، يوجد الحسد. وتتجلّى الهوة بين الأفراد وهدفهم المتعذّر في هيئة عقدة نقصٍ تلاحقهم وتؤثّر في سلوكهم وموقفهم حتى لتظنهم أبعد ما يكونون عن غايتهم؛ ويؤكد هذا الانطباع تقييّمهم المتدني لأنفسهم وسخطهم الدائم على الحياة. يقضون أوقاتهم يقيسون نجاحاتهم على نجاحات غيرهم، ويشغلهم ما يظنّه الناس فيهم وما بلغوه. تراهم دائماً ضحية شعورٍ بالإهمال والتفرقة – مع أنهم قد يكونون أوفر حظًا من كثيرين.

ومظاهر هذا الشعور بالإهمال علاماتٌ على غرورٍ غير مُشبع، أو رغبةٍ في امتلاك ما يفوق الجار، بل امتلاك كل شيء. وهم لا يصرّحون برغبةٍ كهذه لأن الشعور الاجتماعي يكفّهم

عن مثل هذا التفكير؛ لكنهم يتصرفون كما لو أرادوا امتلاك كل شيء.

وهذا الحسد – الذي يشتد كلما أفرطنا في قياس أنفسنا بالآخرين – لا يساعدنا على سعادة. وبما أن الشعور الاجتماعي شامل، فإن الحسد مكروه على نطاق واسع، وإن لم نخل – نحن البشر – من لمعاتٍ عابرةٍ منه. حين تمضي الحياة بسلاسةٍ قد لا يبدو ظاهراً؛ لكنه يطفو حين يتألم الناس أو يقهرون، حين يفتقدون المال أو الطعام أو الدفء أو الأمل في المستقبل.

ما تزال حضارتنا في بداياتها؛ ورغم أن أخلاقنا وأدياننا تُحرّم الحسد، لم ننضج بعدُ نضجاً يكفي لاجتثائه. نفهم جيداً حسد الفقراء للأغنياء؛ ومن ذا الذي يضمن أنه – لو كان في الموضوع نفسه – لن يحسد؟ كلُّ ما نقوله هنا أن الحسد عاملٌ من عوامل الحال المعاصرة للنفس البشرية؛ إذ ينشأ – فردياً وجماعياً – كلما قيّد نشاطُ الناس قييداً مفرطاً. فإذا ظهر في أبشع صورهِ كانت استئصاله والكرهية التي تصاحبه عسيرين. ومع ذلك، أمرٌ واضحٌ في مجتمعنا: لا ينبغي لنا أن نختبر ميل الحسد أو نستفزّها؛ علينا لياقةً ألا نُلفت الأنظار إلى أي مظاهرٍ تثيره عمدًا. قد لا يُصلح هذا النهج الكثير، لكن أقلّ ما نطلبه ألا يتباهى أحدٌ بتفوّقٍ عارضٍ يستفزّ الغير بلا طائل.

ويكشف منشأ الحسد عن وثيق الصلة بين الفرد والمجتمع: فما من أحدٍ يسمو فوق الجماعة ويُظهر سلطانه على غيره إلا أثار – في الوقت نفسه – معارضةً من يسعون لعرقلة نجاحه. ولتفادي الحسد سنّ البشر قواعدَ وتدابيرَ للمساواة. وبالعقل توصلنا إلى ما أحسنناه حدسًا: قانونٌ طبيعيٌّ بالمساواة بين جميع الناس، لا يُنتهك دون أن يثير المعارضة فوراً؛ وهو من القوانين الأساسية للمجتمع البشري.

ويسهل تبين مظاهر الحسد - أحياناً - حتى في السّمات الظاهر؛ ولغتنا العامّة ليست بعيدة عن منطقيّ نفسيّ حين نقول: «فلانٌ يَغلي حقدًا»، أو «أخضرٌ من الغيرة»، وكانّ الحسد يمسّ الدورة الدموية بانقباضٍ محيطيّ في الأوعية الشعرية.

أما من الناحية التربوية، فليس أمامنا بشأن الحسد إلا سبيلٌ واحد: ما دمنا لا نستطيع القضاء عليه تمامًا، فحريٌّ بنا تسخيرُه وتوجيهه وجهةً نافعةً دون الإخلال بتوازن الشخص النفسي - فردًا كان أو جماعة. فبالنسبة للأفراد يمكن اقتراح مهنٍ ترفع ثقتهم بأنفسهم. وعلى صعيد الأمم نجد دولًا تستشعر «الإهمال» فتحسد جيرانها الأوفر ازدهارًا؛ علينا أن نعاونها على تنمية مواردها المادية والبشرية لتتال مكانةً مرموقةً بين الأمم.

ولا يكون من عاشوا أسرى الحسد أعضاءً نافعين في المجتمع؛ فهم لا يهتمون إلا بسلب الآخرين وإيذائهم والنيل منهم، ثم يفتشون عن المعاذير لفشلهم ويلقون باللوم على سواهم. إنهم متمردون لا يُقيمون وزنًا للعلاقات الحسنة، ولا يكثرثون لأن يجعلوا أنفسهم نافعين؛ ولأنهم لا يعنون كثيرًا بأحوال الناس فهم لا يفهمون الطبيعة البشرية، ولا يحركهم أن أفعالهم تُوقَع معاناةً بغيرهم - بل قد يُهجمهم ألم الجيران.

والجشع وثيق الصلة بالحسد وغالبًا ما يقترنان. وليس المقصود به هنا اكتناز المال فحسب، بل ضربٌ أعمُّ يظهر - أساسًا - في عدم الرغبة في إسعاد الآخرين. هؤلاء بخلاء على المجتمع وعلى كل فرد؛ يبنون حول أنفسهم أسوارًا ليحفظوا كنوزهم البائسة. ومن السهل أن نرى الوشائج بين الجشع والحسد، كما نرى الروابط بين الطموح والغرور. وليس مبالغة القول إن هذه السمات كثيرًا ما تجتمع؛ فإذا كشفت واحدةً منها رجّحت وجود الأخريات.



ويكاد كلُّ فردٍ اليوم يُيدي - على الأقل - آثارًا من الجشع. وأقصى ما يفعله «المتوسط» هو أن يُخفيه وراء كرمٍ مبالغٍ فيه - لا يتجاوز الصدقات - ليعزز ثقته بنفسه على حساب الآخرين بإيماءاتٍ «سخاء».

وقد يبدو الجشع - في ظروفٍ ما - صفةً نافعةً؛ فقد «نشح» بوقتنا أو جهدنا فنقتصد، ونصنع بذلك شيئاً مفيداً. وهناك نزعةٌ ظاهرةٌ اليوم إلى دفع «إدارة الوقت» إلى الواجهة، مطالبين الجميع بالاعتقاد في الوقت والعمل. يبدو هذا حسناً نظرياً؛ لكن حينما طُبّق رأينا - دومًا - هدفًا فرديًا من التفوق والسلطة. وغالبًا ما تُساء هذه النظرية فتُوجّه «إدارة الوقت» إلى تحويل عبء العمل الحقيقي إلى أكتاف الآخرين. ولا يُحكم على هذا النشاط - كسواه - إلا بميزان نفعه للمجتمع. ومن سمات عصر التقنية أن يُعامل الناس كآلاتٍ ويُنتظر منهم الخضوع لقوانين «الحياة» كما تخضع الآلات لقوانين الفيزياء؛ وهذه القوانين - في الآلات - عامةٌ التطبيق، أمّا في البشر فتفضي - آخر الأمر - إلى العزلة والوحدة وتدمير العلاقات الإنسانية. ولذا فالأفضل أن نكيّف حياتنا بحيث نُفضّل العطاء على الادّخار؛ فإذا سعينا إلى العيش وفق هذه القاعدة واضعين الصالح العام نصب أعيننا، فلن نخطئ.

وفي هذا السياق لنغص أكثر في الحياة العملية. فالفاعلون في عالم الأعمال لا يولون - في الغالب - اهتمامًا يُذكر لرفاه المنافسين، ولا للشعور الاجتماعي الذي نعدّه جوهريًا؛ وبعض الممارسات والمشروعات التجارية يقوم على مبدأ أن مصلحة رجل الأعمال لا تتحقق إلا من طريق ضررٍ بآخر. وعلى القاعدة لا يُعاقب على سلوكٍ كهذا - حتى حين تُضمّر نيةً خبيثة - فتلحق ممارسات الجشع وغياب الشعور الاجتماعي ضررًا بالمجتمع برمته.

حتى أصحاب أحسن النيات - تحت ضغط عالم الأعمال - يضطرون إلى حماية أنفسهم قدر الإمكان، وكثيرًا ما يُتجاهل أنّ هذه «الحماية» تكون مصحوبةً بإيذاء آخرين. نشير إلى ذلك لما فيه من جلاء صعوبة ممارسة الشعور الاجتماعي تحت ضغط المنافسة. لا بدّ إذن من حلٍّ يجعل تعاون الأفراد من أجل الصالح العام أسهل لا أشقّ؛ والروح الإنسانية تعمل سعيًا إلى وضع أصلح لصونها. وعلى علم النفس أن يتعاون في درس هذه التبدّلات لفهم علاقات العمل وما يتصل بها من عمليات عقلية؛ وبهذا فقط نعرف ما هو أصلح للفرد والمجتمع.

وغالبًا ما نجد الكراهية سمةً لدى العدوانيين. وقد تبلغ ميولها - التي تظهر كثيرًا منذ الطفولة - حدّةً عاليةً كما في نوبات الغضب، وقد تبدو أخفّ كما في التذمّر والخبث. إن قابلية الفرد للكراهية مؤشرٌ مهمّ على شخصيته؛ فهي تترك أثرًا لا يُمحى، وتخبّرنا الكثير عنه.

وتتجه الكراهية جوهًا شتّى: نحو مهامّ ينبغي القيام بها، ونحو أفراد، أو أمة، أو طبقة، أو عرق، أو الجنس الآخر. ولا تظهر دائمًا ظهورًا صريحًا؛ فهي - كغرورها - بارعةٌ في التخفي، وقد تبدو - مثلًا - في هيئة موقفٍ نقديٍّ عام. وتُرى أيضًا في طريقة رفض المرء لكل فرص التواصل. وأحيانًا تنكشف القدرة على الكراهية فجأةً كوميض البرق - كما في حالة مريضٍ كان معفىً من الخدمة العسكرية، حدّثنا كم استمتع بقراءة تقارير عن مذابح فظيعة حلّت بغيره!

وللجريمة قرابةً بهذا كلّها. وفي صورها الأخفّ تلعب ميول الكراهية دورًا رئيسًا في حياتنا الاجتماعية وتظهر في أشكالٍ قد لا تكون مهينةً أو مرعبة. و«كراهية البشر» - وهي صورةٌ عداءٍ بالغٍ للإنسانية - إحدى هذه الصور المُبطّنة؛ وكم من مدارسٍ فلسفيةٍ تمتلئ بهذا

العداء حتى لتكاد تُضارع أعمالاً فظةً مكشوفة. وأحياناً يُرْفَع الستار في سير المشاهير عن الكراهية. ومن المهمّ التأمّل في حتمية هذه الحقيقة – أكثر من تذكّر أن الكراهية والقسوة قد توجدان لدى فنّانين يحتاج فنّهم إلى القرب من الإنسانية ليبقى ذا صلة.

وتُرصَد تداعيات الكراهية في كل مكان؛ وحصرتها هنا يطول. فبعضُ المهن لا يقع اختيارُها – غالبًا – إلا لمن فيهم ميلٌ إلى كراهية البشر. ولا يعني هذا أنّ الكراهية شرطٌ في تلك المهن؛ بل إن من يختار – مثلاً – المهنة العسكرية من المعادين للإنسانية تُوجّه ميولهم العدائية نحو الاندماج – ظاهريًا على الأقل – في النظام الاجتماعي، إذ يلزمهم التنظيمُ بالتعاون مع من اختار المهنة نفسها.

وأحد المجالات التي تُخفى فيها المشاعرُ العدائية جيّدًا هو الإهمال الجنائي؛ إذ يتمثّل تجاه الأشخاص أو الممتلكات في إغفال الاعتبارات التي يتطلّبها الشعور الاجتماعي. وقد أثارت جوانبه القانونية نقاشًا لا ينتهي، ولم تُوضّح توضيحًا شافيًا قط. ومن البديهي أن الفعلَ الموصوف «إهمالًا جنائيًا» ليس مطابقًا للجريمة: فأن تضع أصيصَ زهورٍ قريبًا من حافة نافذة بحيث قد يسقط بأدنى اهتزازٍ على رأسٍ مارٍّ ليس كأن تأخذه وترميه عمدًا. لكن هذا التهاون مرتبط – بلا لبس – بالجريمة، وهو مفتاحٌ آخر لفهم الناس.

وفي القانون يُعدّ «عدم القصد» ظرفًا مُخفّفًا؛ غير أنّ الفعل العدائي اللاواعي يستند – في الجوهر – إلى الدرجة نفسها من العداء التي يستند إليها الفعلُ الواعي. وعند مراقبة الأطفال في اللعب نرى دائمًا بعضهم لا يضعون مصلحة الغير في حسابانهم – فنوقن أنهم غير ودودين مع أقرانهم. ومنتظر أدلّة إضافية، فإن وجدنا أنه كلما شارك طفلٌ بعينه في لعبةٍ حدث خطأٌ ما، اعترفنا أنه لا يراعي شركاءه.

والإهمال منتشر في الأسر والمدارس والحياة عمومًا، وفي مؤسساتنا كافة. وبين حينٍ وآخر يتصدّر مهملون العناوين؛ وبالطبع لا يفلتون من العقاب - إذ يجرّ التهور عواقب وخيمة. وأحيانًا لا يأتي العقاب إلا بعد سنين طويلة - «مطاحن الآلهة تطحن ببطء» - حتى لتغيب علاقة السبب بالنتيجة، فتكثر شكاوى «سوء الحظّ»! وقد يُعزى ذلك المصير المشؤوم إلى أن الآخرين - وقد ضاقوا بإهمالهم - انفضوا عنهم.

ومهما بدا من مبرراتٍ ظاهرة لأفعال الإهمال الجنائي، يتّضح - عند التمحيص - أنها تعبيراتٌ عن كراهيةٍ جوهريةٍ للناس. خذ مثال سائقي السيارات الذين يتجاوزون السرعة فيصدمون أحدًا، فتكون حجّتهم «موعدًا مهمًا». إننا نعرف فيهم من يُقدّم شأنه الشخصيّ التافه على حياة الآخرين، ويستخفّ بالمخاطر التي يُعرض الناس لها. إن التفاوت بين مصلحة المرء ورفاه المجتمع مؤثّرٌ على مقدار عدائه للبشرية.

### سمات الشخصية غير العدوانية

تلك السمات الشخصية التي لا تُظهر عداءً صريحًا تجاه البشرية، ولكنها تُوحى بالعزلة العدائية، يُمكن تصنيفها ضمن السمات الشخصية البشرية غير العدوانية. يبدو أن تيار العداء قد حوّل؛ لدينا انطباعٌ بوجود تحويلة نفسية. لدينا هنا أفراد لا يُؤذون أحدًا أبدًا، لكنهم ينسحبون من المجتمع، ويتجنبون كل اتصال، ويفشلون، بسبب عزلتهم، في التعاون مع إخوانهم البشر. ومع ذلك، لا يُمكن إنجاز مهام الحياة في معظمها إلا بالعمل الجماعي. قد يُشتبه في أن الأفراد الذين يعزلون أنفسهم لديهم نفس العداء الذي يُشتبه به في أولئك الذين يشنون حربًا علنية ومباشرة على المجتمع. هناك مجالٌ هائلٌ للبحث هنا؛ وسنفحص بمزيد من التفصيل العديد من سماته البارزة. أول سمة يجب مراعاتها هي الخجل والانسحاب.

يظهر الانطواء والعزلة بأشكال متنوعة. فالمنعزلون عن المجتمع قليلو الكلام، أو لا يتكلمون إطلاقاً، ولا ينظرون إلى الآخرين في أعينهم، ولا يكثرثون عند التحدث إليهم. حتى في أبسط العلاقات الاجتماعية، يُظهرون برودةً تُبعدهم عن الآخرين. تتجلى هذه البرودة في تصرفاتهم وسلوكياتهم، وفي طريقة مصافحتهم، وفي نبرة صوتهم، وفي طريقة تحيتهم أو رفضهم تحية الآخرين. مع كل حركة، يبدو أنهم يُعدون أنفسهم عن بقية العالم.

في كل آليات العزلة هذه، نجد تياراً خفياً من الطموح والغرور. يحاول هؤلاء الناس رفع أنفسهم فوق الآخرين من خلال إبراز الفروقات بينهم وبين بقية المجتمع؛ لكن أقصى ما يمكنهم الحصول عليه هو مجد وهمي. يتجلى عداءٌ عدوانيٌّ واضحٌ في موقف هؤلاء المنفيين اجتماعياً، الذي يبدو غير مؤذٍ.

قد تكون العزلة أيضاً سمة للجماعات الكبيرة. فالجميع يعرف عائلات بأكملها، حياتها مغلقة بإحكام ضد أي محاولات خارجية. عداؤهم، وغرورهم، وإيمانهم بأنهم أفضل وأنبل من الآخرين، أمرٌ لا لبس فيه. قد تكون العزلة سمة للطبقات، أو الأديان، أو الأعراق، أو الأمم، وأحياناً تكون تجربةً مُنيرةً للغاية أن تتجول في مدينة غريبة وترى كيف، في بنية المنازل والمسكن نفسها، تعزل طبقات اجتماعية بأكملها نفسها عن الآخرين.

هناك نزعة راسخة في ثقافتنا تسمح للبشر بعزل أنفسهم في أمم ومذاهب وطبقات. والنتيجة الوحيدة لذلك هي الصراع، الذي يُجسّد في تقاليد بالية عاجزة. كما يُمكن هذا بعض الأفراد من استغلال الانقسامات الكامنة لإثارة الخلافات بين الجماعات، إشباعاً

لغرورهم الشخصي. هذه الطبقة، أو هذا الفرد، يعتبر نفسه متميزًا بشكل خاص، ويُقدّر خصائصه تقديرًا عاليًا، وينشغل بإظهار عيوب الآخرين.

أولئك الذين يبذلون جهدًا كبيرًا لإبراز الفروقات بين الطبقات أو الأمم، إنما يفعلون ذلك أساسًا لتعزيز غرورهم الشخصي. فإذا ما وقعت أحداث كارثية، كالحروب العالمية وما تبعاتها، فسيكون هؤلاء آخر من يتحمل مسؤولية استفزازهم. إذ يُطاردهم شعورهم بعدم الأمان، يحاول هؤلاء المشاغبون تحقيق شعور بالتفوق والاستقلال على حساب الآخرين. إن العزلة في عالمهم الصغير هي مصيرهم المؤسف؛ وغني عن القول إنهم غير قادرين على التقدم أو المساهمة في ثقافة حضارتنا.

كثيرًا ما يشكو كارهو البشر من القلق. القلق سمة شائعة جدًّا؛ فهو يلازم الأفراد من الطفولة المبكرة إلى الشيخوخة. يُعكّر صفو حياتهم إلى حد كبير، ويُبعدهم عن جميع العلاقات البشرية، ويُبدد أملهم في بناء حياة سلمية أو تقديم إسهامات مثمرة للعالم. يمكن للخوف أن يُمسّ كل نشاط بشري. قد نخشى العالم الخارجي، أو نخشى العالم الداخلي.

يتجنب شخصٌ ما المجتمع خوفًا منه، وقد يخشى آخر الوحدة. ومن بين القلقين، نجد أيضًا أفرادًا مألوفين يُفكّرون بأنفسهم أكثر من غيرهم. فبمجرد أن يتبنّى أحدهم وجهة نظرٍ تُفيد بضرورة تجنّب مصاعب الحياة، فإنه يُثير القلق في نفسه، وبمجرد أن يتغلغل فيه، يُعزّزه. هناك أشخاصٌ يكون القلق ردّ فعلهم الأول تجاه أيّ شيء جديد، سواءً كان مجرد الانتقال إلى منزل جديد، أو فراق رفيق، أو بدء عمل جديد، أو الوقوع في الحب. إنهم منفصلون تمامًا عن الحياة ومع أقرانهم، لدرجة أن كلّ تغيير في الظروف يُصاحبه الخوف.

تُعيق هذه السمة تطور شخصياتهم وقدرتهم على المساهمة في رفاهيتنا المشتركة بشكل ملحوظ. لا يعني القلق بالضرورة الارتجاف والهروب، بل قد يتجلى في التردد في التعامل مع مشكلة ما، أو التعامل مع موقف ما بتردد، أو البحث عن ذريعة لتجنبه. في أغلب الأحيان، لا يدرك الخائفون أن قلقهم يبرز في كل مرة يظهر فيها موقف جديد.

من المثير للاهتمام أن نجد أشخاصًا يفكرون باستمرار في الماضي أو الموت. يُعدّ التفكير في الماضي وسيلة خفية، وبناءً على ذلك شائعة جدًا، لكبح جماح أنفسنا. الخوف من الموت أو المرض سمة مميزة لمن يبحثون عن عذرٍ للتهرب من جميع الواجبات والالتزامات. يُعلنون بصوتٍ عالٍ أن كل شيء باطل، وأن الحياة قصيرة جدًا، وأن لا أحد يعلم ما سيحدث. وكما رأينا، قد يتجنب هؤلاء الأفراد جميع الاختبارات لأن كبرياءهم يمنعهم من الخضوع لاختبارٍ يكشف عن قيمتهم الحقيقية.

لعزاء الجنة والآخرة نفس الأثر تقريبًا. بالنسبة لمن يكون هدفهم الآخرة، تصبح حياة الدنيا صراعًا لا قيمة له، ومرحلة تافهة من مراحل التطور. مع هؤلاء الذين لا ينتمون إلى عالم الدنيا، نجد أن الإله نفسه، وهدف التفوق على الآخرين هو ما يسعون إليه، والكبرياء والطموح المتغرس نفسيهما يجعلانهم غير مؤهلين للحياة.

نجد القلق في بداياته وأكثرها بدائيةً لدى الأطفال الذين يرتعبون عند تركهم بمفردهم. لكنهم لا يكتفون بمجيء أحدهم إليهم؛ بل همهم الحقيقي هو استخدام نفوذهم. إذا تركت الأم أطفالها القلقين بمفردهم، فإنهم يستدعونها بقلق واضح. هذه البادرة تُثبت أن شيئًا لم يتغير. لا يهم وجود الأم أم غيابها. فالأطفال أكثر اهتمامًا بدفعها لخدمتهم. وهذه علامة على أن الأطفال لم يُمنحوا أي استقلالية، بل اعتادوا، نتيجةً لتنشئة خاطئة في طفولتهم المبكرة، على طلب الخدمة من الآخرين.

إن تعابير قلق الطفولة معروفة على نطاق واسع. تتجلى بوضوح في الظلام، الذي يعزل الأطفال عن العالم. صرخة قلقهم تربطهم بالعالم من جديد. لم يعودوا وحيداً ومنسيين. إذا أسرع إليهم أحد، يشعرون بالسعادة، لأنهم يُظهرون قوتهم. يريدون أن يُضاء النور. يريدون من يجلس معهم ويلعب معهم، وهكذا. ما داموا مُطيعين، يتبدد قلقهم، ولكن ما إن يُهدد شعورهم بالتفوق، حتى يعودوا للقلق، ويستخدمونه لتعزيز مكانتهم.

هناك ظواهر مشابهة في حياة البالغين. هناك أفراد لا يحبون الخروج بمفردهم. يمكننا تمييزهم في الشارع من خلال حركاتهم القلقة ونظراتهم القلقة. بعض الناس لا يتحركون من مكان إلى آخر، بينما يبدو آخرون وكأنهم يركضون في الشارع كما لو أن عدواً يطاردهم. ربما اقترب منك شخص من هذا النوع وطلب منك مساعدته في عبور الشارع. هؤلاء ليسوا معاقين! يمكنهم المشي بسهولة، وعادةً ما يكونون أصحاباً، ولكن في مواجهة أي صعوبة بسيطة، يصابون بالقلق والخوف. أحياناً يبدأ قلقهم وانعدام الأمن لديهم لحظة مغادرتهم المنزل.

رهاب الخلاء، أو الخوف من الأماكن المفتوحة، ظاهرة مثيرة للاهتمام. لا يستطيع المصابون به التخلص من شعورهم بأنهم ضحايا اضطهاد خبيث. يعتقدون أن هناك ما يميزهم عن الآخرين. الخوف من السقوط (الذي يشير ببساطة إلى أنهم يبالغون في تقدير أنفسهم) هو أحد أعراض هذا الموقف. في الأشكال المرضية للخوف، قد تظهر نفس أهداف القوة والتفوق.

بالنسبة للكثيرين، يُعدّ القلق وسيلة واضحة لإجبار الآخرين على التقرب منهم ورعايتهم. في مثل هذه الظروف، لا يُمكن لأحد مغادرة الغرفة خشية عودة القلق! يجب على الجميع التكاتف. وبهذه الطريقة، يؤثر قلق شخصٍ ما على الآخرين. على الجميع



اللجوء إلى هؤلاء المصابين، الذين بدورهم لا يحتاجون إلى الذهاب إلى أحد، فيصبحون بذلك مُسيطرين على كل ما يُحيط بهم. السبيل الوحيد للتغلب على الخوف من الآخرين هو تعزيز الروابط التي تربط الأفراد بالبشرية. فقط عندما نُدرك انتمائنا إلى العائلة الإنسانية الواحدة، يُمكننا أن نعيش حياةً خاليةً من القلق.

لُنُضِفَ مثلاً شيئاً من أيام ثورة ١٩١٨ في النمسا. في ذلك الوقت، أعلن عدد من المرضى فجأةً عدم قدرتهم على حضور استشاراتهم. وعند سؤالهم عن أسبابهم، قالوا: "هذه أوقاتٌ غامضةٌ للغاية؛ لا يُمكنك التنبؤ بنوعية الأشخاص الذين ستقابلهم. إذا كنتَ ترتدي ملابس أفضل من الآخرين، فلا يُمكنك التنبؤ بما سيحدث".

كانت تلك أوقاتاً عصيبة، لكن اللافت للنظر أن أفراداً معينين فقط هم من توصلوا إلى هذه الاستنتاجات. لماذا كانوا الوحيدين الذين فعلوا ذلك؟ لم يحدث هذا مصادفةً. كان خوفهم نابغاً من عدم تواصلهم مع البشر. لذلك شعروا بعدم الأمان في ظل الظروف السياسية غير الاعتيادية، بينما لم يشعر آخرون، ممن شعروا بالانتماء للمجتمع، بأي قلق، وواصلوا حياتهم كالمعتاد.

الخجل شكلٌ أخفّ من القلق، ولكنه جديرٌ بالملاحظة بنفس القدر؛ وما ذكرناه عن القلق ينطبق عليه أيضاً. مهما كانت العلاقات التي تُوضع فيها الأطفال الخجولون، فإن خجلهم قد يُمكنهم من تجنّب التواصل، أو قطعه عند إقامته. إن مشاعر النقص، والشعور بالاختلاف عن الآخرين، يمنع هؤلاء الأطفال من إيجاد أي متعة في بناء علاقات جديدة.

الخجل سمةٌ من سمات من يشعرون بصعوبة كل مهمةٍ تواجههم، ومن لا يثقون بقدرتهم على تحقيق أي شيء. وعادةً ما تتجلى هذه السمة في بطء الحركة، والتردد في التعامل

مع اختبارٍ أو مهمة، أو حتى في الاقتراب منها أصلاً. وينتمي إلى هذه الفئة من يجدون أنفسهم في مهمةٍ عاجلةٍ في مكانٍ آخر، بينما يتوجب عليهم التركيز على حل مشكلةٍ معينة. فيكتشف هؤلاء الأفراد فجأةً أنهم غير مؤهلين تمامًا للمهنة التي اختاروها، أو يختلقون شتى أنواع الاعتراضات السخيفة على ممارستها. وإلى جانب البطء، يتجلى الخجل أيضًا في الانشغال المفرط بالسلامة والاستعداد، وهي أنشطةٌ تهدف فقط إلى التهرب من أي مسؤولية.

أطلق علم النفس الفردي على مجموعة الأسئلة المحيطة بهذه الظاهرة واسعة الانتشار اسم "مشكلة المسافة". وقد أوجد هذا العلم منظورًا يُحكم من خلاله على البشر ويُقيّم مدى بُعدهم عن حل مشكلات الحياة الثلاث الكبرى. أول هذه المشكلات، أو "مهام الحياة"، هي مسألة المسؤوليات الاجتماعية، والعلاقة بين "الأنا" و"الأنت"، ومسألة ما إذا كانوا قد ساعدوا أو أعاقوا التواصل بينهم وبين إخوانهم البشر. المشكلة الثانية هي مشكلة المهنة أو العمل، والثالثة هي مشكلة الحب والزواج. من خلال دراسة مدى بُعد الناس عن حل هذه المشكلات، يُمكننا استخلاص استنتاجات بعيدة المدى حول شخصياتهم. وفي الوقت نفسه، يُمكننا استخدام البيانات التي جمعناها بهذه الطريقة لمساعدتنا في فهمنا للطبيعة البشرية.

قد يكون سبب أنواع الخجل الموصوفة أعلاه رغبة الأفراد في فصل أنفسهم عن مهام حياتهم. ومع ذلك، هناك جانبٌ أكثر إشراقًا للتشائم المظلم الذي وصفناه. قد نفترض أن الأفراد اختاروا مناصبهم فقط بسبب جاذبية هذا الجانب المشرق. يكمن ذلك في حقيقة أنه إذا أقدموا على مهمة غير مستعدين لها جيدًا، فستكون هناك ظروفٌ مخففةٌ في حال فشلهم، وسيظل غرورهم وثقتهم بأنفسهم على حالهما. يصبح الوضع أكثر أمانًا؛ فهم مثل السائرين على حبل مشدود يعلمون أن هناك شبكة أمانٍ تحتها تحميهم من السقوط.

وبناءً على ذلك، إذا فشلوا في مهمتهم بسبب عدم كفاية التحضير، فإن ثقتهم بأنفسهم في مأمن، إذ يمكنهم التدرع بسلسلة من الأعذار لتبرير فشلهم. لو لم يتأخروا، أو لو كانوا أفضل استعدادًا، لكان النجاح حتميًا. وهكذا، لا يكون العيب الشخصي هو المسؤول، بل ظرف تافه لا يُتوقع منهم تحمل مسؤوليته.

لكن إذا نجحوا، يكون نجاحهم أكثر تألقًا. فمن يؤدي واجباته بضمير حي، لا يُفاجأ أحدٌ ببلوغه هدفه؛ إذ يبدو نجاحه حتميًا. أما إذا بدأ متأخرًا، أو عمل قليلًا، أو كان غير مستعد تمامًا، ومع ذلك حلّ مشكلته، فإنه يظهر في صورة مختلفة تمامًا. يصبحون عباقرة يفعلون بيد واحدة ما لا يفعله الآخرون إلا باليدين!

## متلازمة الانحراف

تلك السمات الشخصية التي لا تُظهر عداءً صريحًا تجاه البشرية، ولكنها تُوحى بعزلةٍ عدائية، يمكن تصنيفها ضمن السمات الشخصية غير العدوانية. يبدو أن تيار العداء قد انحرف، فنشعر وكأن هناك تحويلة نفسية. هنا نجد أفرادًا لا يؤذون أحدًا قط، لكنهم ينسحبون من المجتمع، ويتجنبون كل اتصال، ويفشلون بسبب عزلتهم في التعاون مع إخوانهم البشر. ومع ذلك، لا يمكن إنجاز مهام الحياة في معظمها إلا بالعمل الجماعي. قد يُشتبه في أن الأفراد الذين يعزلون أنفسهم يحملون نفس العداء الذي يُظنّ بمن يشنون حربًا علنية ومباشرة على المجتمع. وهنا يفتح المجال أمام بحث واسع، وسنفحص بمزيد من التفصيل عددًا من سماته البارزة. وأول ما يجب أن نتوقف عنده هو الخجل والانسحاب.

يظهر الانطواء والعزلة بأشكال متنوعة. فالمنعزلون عن المجتمع إمّا قليلو الكلام، أو صامتون تمامًا، ولا ينظرون إلى الآخرين في أعينهم، ولا يكثرثون عند التحدث إليهم.

حتى في أبسط العلاقات الاجتماعية، يُبدون برودةً تُبعدهم عن الآخرين. تتجلى هذه البرودة في تصرفاتهم وسلوكياتهم، وفي طريقة مصافحتهم، وفي نبرة أصواتهم، وفي طريقة تحيتهم أو رفضهم لتحية الآخرين. مع كل حركة، يبدو أنهم يُعدون أنفسهم عن بقية العالم.

في كل آليات العزلة هذه، نجد تيارًا مستترًا من الطموح والغرور. يحاول هؤلاء الناس رفع أنفسهم فوق الآخرين من خلال إبراز الفوارق بينهم وبين بقية المجتمع؛ لكن أقصى ما يحققونه هو مجد وهمي. ويظهر عداؤهم وعدواني واضح في موقف هؤلاء المنفيين اجتماعيًا، الذين قد يبدو غير مؤذنين.

وقد تكون العزلة سمةً لا للأفراد فقط، بل لجماعات كبيرة أيضًا. فالجميع يعرف عائلات بأكملها، حياتها مغلقة بإحكام في وجه أي محاولات خارجية. عداؤهم وغرورهم وإيمانهم بتفوقهم أمرٌ لا لبس فيه. وقد تكون العزلة سمةً للطبقات أو الأديان أو الأعراق أو الأمم، وأحيانًا تكون تجربةً بالغة الدلالة أن نتجول في مدينة غريبة ونرى كيف أن البنية العمرانية للمنازل والأحياء نفسها تُجسد عزل طبقات اجتماعية بأكملها عن سواها.

هناك نزعة راسخة في ثقافتنا تدفع البشر إلى الانغلاق ضمن أمم ومذاهب وطبقات. والنتيجة الحتمية لذلك هي الصراع، الذي يتجسد في تقاليد بالية عاجزة. كما أن هذه النزعة تمكّن بعض الأفراد من استغلال الانقسامات الكامنة لإثارة الخلافات بين الجماعات، إشباعًا لغرورهم الشخصي. والفرد أو الطبقة التي تنغلق على ذاتها ترى نفسها متميزةً بشكل خاص، وتُعلي من شأن خصائصها، وتستغرق في إبراز عيوب الآخرين.

أولئك الذين يبذلون جهدًا كبيرًا لتأكيد الفوارق بين الطبقات أو الأمم إنما يفعلون ذلك في جوهره لتعزيز غرورهم. فإذا ما وقعت أحداث كارثية، كالحروب العالمية وما تبعها من مأس، فسيكون هؤلاء أبعد الناس عن تحمّل مسؤولية استفزازهم. إذ يطاردتهم شعورهم بعدم الأمان، فيحاولون أن يثبتوا تفوقًا واستقلالًا على حساب الآخرين. وفي عالمهم الصغير المغلق، يجدون مصيرهم المؤسف؛ وغني عن القول إنهم غير قادرين على المساهمة أو التقدم في مسيرة حضارتنا.

كثيرًا ما يشكو كارهو البشر من القلق. وهذا القلق سمة شائعة جدًّا؛ إذ يلازم الأفراد من الطفولة المبكرة حتى الشيخوخة. يعكّر صفو حياتهم إلى حدّ بعيد، ويبعدهم عن جميع الروابط الإنسانية، ويؤدّد أي أمل في أن ينعموا بحياة سلمية أو يقدّموا إسهامًا مثمرًا للعالم. ويمكن للخوف أن يطبع كل نشاط بشري. فقد يخشى المرء العالم الخارجي، أو يخشى عالمه الداخلي.

قد يتجنب شخصٌ ما المجتمع خوفًا منه، فيما يخشى آخر الوحدة. وبين القلقين نجد أيضًا أفرادًا يُعرفون بأنهم يفكرون بأنفسهم أكثر مما يفكرون بغيرهم. فما إن يتبنى أحدهم قناعة بوجوب تجنب صعوبات الحياة حتى يزرع القلق في نفسه، وما إن يستشعر القلق حتى يعزز وجوده فيه. وهناك أشخاصٌ يكون القلق ردّ فعلهم الأول تجاه أيّ أمر جديد، سواء أكان مجرد الانتقال إلى منزل جديد، أم فراق رفيق، أم بدء عمل، أم الوقوع في الحب. إنهم منفصلون عن الحياة وعن أقرانهم انفصالًا يجعل كل تغيير في ظروفهم سببًا مباشرًا للخوف.

هذه السمة تعيق نمو شخصياتهم وقدرتهم على المساهمة في رفاها المشترك على نحو واضح. والقلق لا يعني بالضرورة ارتجافًا أو فرارًا، بل قد يتمثل في التردد أمام مواجهة

مشكلة، أو التعامل مع موقف بتردد، أو البحث عن ذريعة للتهرب منه. وغالبًا لا يدرك الخائفون أن قلقهم يتجدد في كل مرة يقابلون فيها موقفًا جديدًا.

ومن اللافت أن بعض الناس يعيشون في انشغال دائم بالماضي أو بالموت. والتفكير في الماضي وسيلة شائعة لكبح النفس. أما الخوف من الموت أو المرض فهو سمة مميزة لأولئك الذين يبحثون عن ذريعة يتفادون بها كل الواجبات والالتزامات. يعلنون بصوت مرتفع أن الحياة قصيرة، وأن كل شيء باطل، وأن المستقبل مجهول. وكما رأينا، فإن هؤلاء يتجنبون أي اختبار لأن كبرياءهم يحول دون الخضوع لامتحان يكشف عن قيمتهم الحقيقية.

ولعزاء الجنة والآخرة الأثر ذاته تقريبًا. فمن يجعل هدفه في الآخرة، يرى حياة الدنيا صراعًا لا قيمة له، ومرحلة تافهة من مراحل الوجود. ومثل هؤلاء الذين لا ينتمون إلى عالم الحياة، نجد أن الإله ذاته، وهدف التفوق على الآخرين، هما غايتهم. الكبرياء والطموح المتغطرس يجعلانهم غير مؤهلين للعيش.

يظهر القلق في بداياته البدائية عند الأطفال الذين يرتعبون إذا تركوا وحدهم. وما يشغلهم ليس مجرد حضور أحدٍ إليهم، بل استخدام نفوذهم. فإذا غابت الأم عن طفلها القلق، فإنه يستدعيها بقلق ظاهر. وهذه الإشارة تكشف أن شيئًا لم يتغير؛ فالأمر لا يتعلق بوجود الأم أو غيابها، بل برغبتهم في جعلها في خدمتهم. إنها علامة على أن هؤلاء الأطفال لم يُمنحوا استقلالًا، بل اعتادوا، نتيجةً لتنشئة خاطئة، أن يطالبوا بالخدمة من الآخرين.

وتعابير قلق الطفولة معروفة على نطاق واسع. وتتجلى خصوصًا في الخوف من الظلام الذي يعزل الطفل عن العالم. وصرخة قلقه تربطه من جديد بالعالم. فإذا أسرع إليه أحد شعر بالسعادة، لأنه استعاد إحساسه بالقوة. إنه يريد النور، ويريد من يجلس معه، ويريد

من يلعب معه. وما دام مطاعًا، يتلاشى قلقه، ولكن ما إن يُهدد شعوره بالتفوق حتى يعود القلق، ويستخدمه لتعزيز مكانته.

وهناك ظواهر مشابهة في حياة الراشدين. فبعضهم لا يحب الخروج بمفرده. ويمكن تمييزهم في الشارع من خلال حركاتهم المتوترة ونظراتهم القلقة. بعضهم يتوقف فجأة، وبعضهم يهرول كمن يطارده عدو. وقد يقترب أحد هؤلاء من شخص آخر طالبًا منه أن يساعده في عبور الطريق. وهم في العادة أصحاب جسدًا، لكنهم في مواجهة أي صعوبة صغيرة يُستبدّ بهم القلق والخوف. أحيانًا يبدأ قلقهم بمجرد أن يخطوا خارج منازلهم.

ورهاب الخلاء، أي الخوف من الأماكن المفتوحة، ظاهرة مثيرة. فالمصابون به يشعرون أنهم ضحايا اضطهاد خفي، وأن فيهم ما يميزهم عن الآخرين. والخوف من السقوط (الذي يشير إلى المبالغة في تقدير الذات) أحد أعراض هذا الموقف. وفي الأشكال المرضية للقلق، تظهر بوضوح ذات الأهداف المتعلقة بالقوة والتفوق.

ولدى كثيرين، يُصبح القلق وسيلةً لإجبار الآخرين على الاقتراب منهم ورعايتهم. ففي هذه الحال، لا يستطيع أحد أن يغادر الغرفة خشية عودة القلق. وهكذا يُسيطر القلق على محيطه، إذ يفرض على الجميع التزامًا نحوه. والوسيلة الوحيدة للتغلب على هذا الخوف من الآخرين هي بتقوية الروابط الإنسانية. فحين ندرك أننا جزء من العائلة الإنسانية، نصبح قادرين على أن نعيش حياة خالية من القلق.

ولنصف مثالًا من أيام ثورة عام ١٩١٨ في النمسا. في ذلك الوقت، أعلن بعض المرضى فجأةً عدم قدرتهم على حضور جلسات الاستشارة. ولما سُئلوا عن الأسباب قالوا: "هذه أيام غامضة؛ لا يمكن التنبؤ بمن ستلتقي. فإذا كنت ترتدي ثيابًا أفضل من الآخرين، لا يمكنك أن تدري ما سيحدث". كانت أيامًا عصيبة حقًا، لكن المثير أن أفرادًا محددين

وحدهم هم من بلغوا هذه النتيجة. لم يكن الأمر مصادفة. فخوفهم كان ثمرة عزلتهم عن الآخرين. ولهذا شعروا بعدم الأمان تحت الظروف السياسية الطارئة، بينما واصل غيرهم حياتهم كالمعتاد دون خوف.

الخجل صورة أخف من القلق، ولكنه لا يقل أهمية. وما قلناه عن القلق ينطبق عليه أيضًا. فأيًا كانت البيئة التي يوضع فيها الطفل الخجول، فإن خجله يمكنه من تجنب التواصل أو قطعه بعد أن يبدأ. إن مشاعر النقص والإحساس بالاختلاف عن الآخرين تمنعه من أن يجد متعة في بناء علاقات جديدة.

والخجل سمة من سمات من يرون كل مهمة صعبة، ومن لا يثقون بقدرتهم على الإنجاز. وغالبًا ما يظهر هذا في بطء حركتهم، وترددهم أمام مهمة أو امتحان، أو حتى في الإحجام عن الإقدام عليه أصلاً. وينتمي إلى هذه الفئة من ينصرف إلى شؤون أخرى طارئة بينما تتطلب منه مهمته تركيزًا جادًا. وقد يكتشف فجأة أنه غير مؤهل لمهنته، أو يختلق اعتراضات واهية على ممارستها. ومع البطء، يتجلى الخجل أيضًا في انشغال مفرط بوسائل الأمان والاستعدادات المبالغ فيها، وهي في جوهرها وسائل للتهرب من أي مسؤولية.

وقد أطلق علم النفس الفردي على مجموعة هذه الأسئلة اسم "مشكلة المسافة". ومن خلالها نحكم على الناس ونقيس مدى ابتعادهم عن مواجهة مشكلات الحياة الثلاث الكبرى. الأولى هي مشكلة المسؤوليات الاجتماعية وعلاقتها بالـ "أنا" والـ "أنت"، وما إذا كان المرء قد أعان أو أعاق اتصاله بالآخرين. والثانية هي مشكلة المهنة والعمل. والثالثة هي مشكلة الحب والزواج. ومن خلال دراسة مدى بعد الناس عن مواجهة هذه القضايا،



يمكننا أن نستخلص استنتاجات بعيدة المدى عن شخصياتهم. وفي الوقت نفسه، نستطيع أن نوظف البيانات التي نجمعها لفهم أعمق للطبيعة البشرية.

وقد يكون سبب الخجل الذي وصفناه رغبة الأفراد في إبعاد أنفسهم عن مهام الحياة. لكن هناك جانبًا أكثر إشراقًا لهذا التشاؤم المظلم. فقد يبدو أن بعضهم اختار موقفه بدافع من جاذبية هذا الجانب المشرق. إذ إذا أقدموا على مهمة وهم غير مستعدين لها، فسيجدون لأنفسهم ظروفًا مخففة إذا فشلوا، ويظل غرورهم وثقتهم بأنفسهم في مأمن. إنهم مثل السائرين على حبل مشدود يطمنون إلى أن تحتهم شبكة أمان.

فإذا فشلوا بسبب ضعف التحضير، وجدوا العذر في أنهم لم يُمنحوا وقتًا كافيًا أو لم يحظوا بالاستعداد اللازم، فيبقى تقديرهم لذواتهم سليمًا. أما إذا نجحوا رغم كل ذلك، بدا نجاحهم مضاعفًا. فالنجاح بالنسبة لمن أعدّ عدته أمر طبيعي لا يثير الدهشة. أما من قصر ثم أفلح، فيبدو عبقرًا يأتي بما لا يأتي به الآخرون إلا بأقصى الجهد.

## غياب اللياقة الاجتماعية

هناك أشخاص يُظهرون سمةً شخصية يمكن وصفها بالميل إلى سلوك سيء أو غير متحضر؛ فأولئك الذين يعتادون قضم أظافرهم، أو خدش أنوفهم، أو التهام طعامهم بنهم، ينتمون إلى هذه الفئة. وتبدو أهمية هذه العادات أوضح عندما نلاحظ الجشعين؛ إنهم آكلون نهمون، صاخبون إلى حدٍّ مزعج، يلتهمون لقيماتٍ ضخمة من الطعام دفعة واحدة، وكأنهم يرمونها في حفر لا قعر لها. لقد رأينا جميعًا أشخاصًا لا يشعرون بالرضا ولا يجدون السعادة إلا حينما يجلسون إلى المائدة.

ومن مظاهر هذا النقص في التهذيب القذارة والفوضى، ولا نقصد هنا اللاجديّة العابرة لدى أولئك الذين ينهكون أنفسهم بالعمل، أو الفوضى الطبيعية التي تصاحب الاجتهاد

الصادق أحياناً، بل نتحدث عن أشخاص لا يقومون إلا بالقليل من العمل النافع، وتحيط بهم دائماً الفوضى والقدارة. إنهم أفراد يبدو وكأنهم يتلذذون بالاتساع والعشوائية، حتى ليصعب أن نتخيلهم في حالٍ تخلو من هذه السمات المميزة.

وهذه ليست سوى نماذج من سمات البشر غير المتحضرين، التي تُظهر لنا بوضوح أنهم لا يلتزمون بقواعد الحياة المشتركة، وأنهم يفضلون عزل أنفسهم عن الآخرين. ومن ينغمس في هذه الأفعال وغيرها من التصرفات غير اللائقة، يُوحى لنا بأنه لا يُقدّر إخوانه من البشر حق التقدير. ومعظم هذه السلوكيات تبدأ في الطفولة، إذ نادراً ما يسير نمو الأطفال في خط مستقيم نحو التهذيب، وبعض الراشدين لا يتغلبون أبداً على هذه السمات الطفولية.

وفي أساس هذه المظاهر من السلوك غير المتحضر يكمن نفورٌ واضح، بدرجةٍ أو بأخرى، من التواصل مع الآخرين؛ فالأشخاص غير المتحضرين يسعون إلى خلق مسافة بينهم وبين الحياة، ويبدون عزوفاً عن التعاون. ومن السهل إدراك سبب عدم استجابتهم للنصائح حسنة النية التي تدعوهم إلى التخلي عن أساليبهم غير اللائقة؛ فعندما يرفض الناس أن يلعبوا لعبة الحياة وفقاً لقواعدها، فإنهم في الحقيقة يتصرفون بمنطقية تامة، إذ لم يجدوا وسيلة أنسب لإبعاد الآخرين عنهم من قضم الأظافر أو ارتداء الثياب الملوخة. وهذا السلوك المعادي للمجتمع يحميهم فعلياً من الانخراط في أدوار أو مناصب تُعرضهم للنقد والمنافسة وأحكام الآخرين. فما أفضل وسيلة يجدونها للانسحاب من الحب أو الزواج غير أن يُظهروا وجهاً غير جذاب للعالم؟ وهكذا يخسرون المنافسة بطبيعة الحال، لكنهم يحتفظون بعذر جاهز دائماً يُرجعونه إلى افتقارهم للكياسة الاجتماعية، فيقولون جهراً: "ما الذي كان بوسعي أن أفعله لو لم تكن لدي هذه العادة السيئة؟"، ثم يتهامسون في أنفسهم: "للأسف، إنها عادتي!".

ولننظر في حالة واحدة تحولت فيها العادة السيئة إلى أداة للدفاع عن النفس واستُخدمت وسيلة للسيطرة على الآخرين. إنها حالة امرأة في الثانية والعشرين من عمرها كانت تُبلل فراشها. كانت الطفلة قبل الأخيرة في أسرتها، ولأنها وُلدت ضعيفة مريضة، فقد حظيت برعاية خاصة من والدتها التي أصبحت تعتمد عليها اعتمادًا مفرطًا. استطاعت هذه الفتاة أن تُقيد أمها بها ليلاً ونهارًا، عبر نوبات القلق نهارًا والكوابيس والتبول اللاإرادي ليلاً. في البداية، لا بد أن هذا كان انتصارًا لها وبلسمًا لغورها؛ إذ نجحت بسلوكها السيئ في احتكار أمها على حساب إخوتها وأخواتها.

وكانت هذه الشابة استثنائية أيضًا في رفضها تكوين صداقات أو الذهاب إلى المدرسة، وكانت يساورها قلق بالغ كلما اضطرت لمغادرة البيت. وحتى حينما كبرت واضطرت إلى قضاء بعض المهمات مساءً، كان مجرد السير في الشوارع بعد حلول الظلام يسبب لها عذابًا شديدًا، فتعود إلى البيت منهكة، متوترة، وتروي قصصًا مروعة عن المخاطر التي واجهتها. ومن الواضح أن جميع هذه السمات كانت تشير إلى غاية واحدة: البقاء دائمًا بجوار والدتها. لكن، بما أن الظروف المادية للأسرة لم تسمح، كان لا بد من إيجاد عمل لها. وبعد كثير من الإقناع، قبلت وظيفة، لكنها لم تصمد أكثر من يومين، إذ عادت إليها مشكلة التبول اللاإرادي، فاضطرت لتركها. وعندما وبختها الأم بشدة، حاولت الفتاة الانتحار، فأدخلت المستشفى، ثم أقسمت الأم ألا تفارقها مرة أخرى.

كل تلك الظواهر – تبولها اللاإرادي، وخوفها من الظلام، ورعبها من الوحدة، ومحاولتها الانتحار – كانت موجهة نحو هدف واحد، هو إعلانها بلغة سلوكها: "يجب أن أبقى قرب أمي" أو "يجب أن تظل أمي توليني عنايتها الدائمة". وهكذا، يكتسب سلوك التبول اللاإرادي غير المقبول اجتماعيًا معنى صحيحًا إذا ما فهم في سياقه. ومن هنا ندرك أن

البشر يمكن تحليلهم على أساس عاداتهم السيئة، وأن هذا السلوك غير اللائق لا يمكن تصحيحه إلا عندما نفهم المرضى فهمًا كاملاً ونضعهم في إطارهم الاجتماعي.

وعلى وجه العموم، نجد أن عادات الطفولة السيئة غالبًا ما تُوجَّه إلى جذب انتباه الكبار. فالأطفال الذين يتوقون إلى لعب دور مهم، أو إلى إظهار ضعفهم وعجزهم للكبار، يستغلون مثل هذه العادات. وللعادة الشائعة المتمثلة في سوء السلوك أمام الضيوف معنى مشابه؛ فكثيرًا ما يبدو الأطفال الذين يُعدّون الأكثر هدوءًا والتزامًا وكأن الشيطان تلبّسهم بمجرد دخول ضيف إلى البيت، إذ يتوقون إلى لفت الأنظار وإلى أداء دور ما، ولا يتوقفون عن محاولاتهم حتى يُحققوا غايتهم بطريقة يظنونها مرضية لهم. وعندما يكبرون، قد يلجأون إلى سلوك مشابه للتهرب من متطلبات المجتمع، أو لإفشال المصلحة العامة من خلال تعطيل الجماعة.

ويختبئ وراء جميع هذه المظاهر غرور متغطرس وطموح جامح، ولا يحجب عنا وضوح السبب سوى تنوع أشكالها وقدرتها على التخفي.

## تعبيرات أخرى عن الشخصية

### المزاج والطباع

يُخطئ علماء النفس إذا اعتقدوا أن البشر الذين يعتمد موقفهم من الحياة ومهامها اعتمادًا كبيرًا على مزاجهم أو طباعهم، يدينون بهذه الصفة للوراثة؛ فالميل إلى التقلب المزاجي ليس أمرًا موروثًا، بل هو خاصية توجد لدى أصحاب الطموح المفرط والحساسية المفرطة، الذين يُعبّرون عن استيائهم من الحياة بطرق متعددة، ويشبه فرط حساسيتهم مجسًا ممتدًا يختبرون به كل موقف جديد قبل أن يُقدّموا عليه.

ويبدو أن هناك من يتمتعون دائماً بمزاج مرح للغاية، يبذلون قصارى جهدهم ليعيشوا حياتهم في جو من السعادة، مسلطين الضوء على الجانب المشرق من الوجود، وتختلف درجة هذه البهجة باختلاف الأشخاص، فبعضهم يحتفظ دوماً بروح مرحة عفوية، تكاد حماستهم الطفولية أن تكون مؤثرة، ولا يتهربون من مهامهم، بل يتعاملون معها بخفة ظل وشبابية واضحة، كأنهم يتناولون مشكلاتهم كما لو كانت ألعاباً أو ألغازاً، ولعله لا يوجد شخص أكثر جاذبية وسحرًا من مثل هذا الفرد في طريقته للتعامل مع الحياة.

غير أنّ هناك من يُبالغون في بهجتهم ويواجهون حتى المواقف الجادة بنفس الأسلوب الطفولي؛ وهذا النهج يكون أحياناً غير مناسب لجدية الحياة لدرجة أنه يُصبح مُقلقاً، إذ يبدو هؤلاء في عملهم أشخاصاً غير مسؤولين لا يأخذون المواقف الصعبة على محمل الجد، ونتيجة لذلك يُمنعون غالباً من تكليفهم بالمهام الثقيلة، التي يميلون أصلاً إلى تجنبها طواعية.

ومع ذلك، لا يمكن الحديث عن هذا النوع المفرط في التفاؤل من دون التنويه بجانب إيجابي فيه، إذ إنهم أشخاص يضيفون على أجواء العمل متعة وبهجة، ويُشكلون تبايناً مُرحباً به مع أولئك الذين يتجولون بوجوه عابسة، كما أنهم أسهل قرباً وأيسر ودًا من المتشائمين الساخطين الذين لا يرون سوى الظلال القاتمة في كل موقف يواجهونه. ولقد سبق أن أشرنا إلى أنّ من السهل قياس مقدار الشعور الاجتماعي لدى الأفراد من خلال استعدادهم لخدمة الآخرين وإسعادهم، فموهبة إدخال السرور على النفوس تجعل الإنسان جديرًا باهتمامنا. ومن يُحسنون إسعاد الناس يعاملوننا بيسرٍ، ونحسبهم أكثر تعاطفًا.

ويبدو أننا نستشعر غريزيًا أن المزاج البشوش، متى لم يُدفع إلى المبالغة، يُمثل علامة على شعور اجتماعي متطور، فهناك أشخاص يحافظون على تفاؤلهم، ولا يبدو قلقين أو مهمومين، ولا يُحمّلون كل غريب يصادفونه أعباء همومهم، بل يملكون القدرة الكاملة على نشر هذه البهجة في صحبة الآخرين، فيجعلون الحياة أكثر جمالًا ومعنى، بحيث نحسّ أنهم بشر طيبون، ليس فقط في أفعالهم، بل كذلك في طريقتهم في التعامل، وفي كلامهم، واهتمامهم بمصالحنا، وفي مظهرهم الخارجي، وملابسهم، وحركاتهم، وضحكاتهم التي تفيض مرحًا.

وقد عبّر دوستوفسكي، ببصيرته النفاذة، عن هذه الحقيقة بقوله: "نستطيع الحكم على شخصية الإنسان من خلال ضحكه أفضل بكثير من أي فحص نفسي ممل". فالضحك قادر على أن يُنشئ الروابط كما قد يكون سببًا في كسرها؛ وقد سمعنا جميعًا الضحك العدواني لأولئك الذين يجدون المتعة في مصائب الآخرين، كما عرفنا بعض الأشخاص الذين لا يستطيعون الضحك على الإطلاق، لأنهم بعيدون تمامًا عن تلك الرابطة الطبيعية التي تصل بين البشر، حتى ليعجزون عن منح المتعة أو تلقيها. وهناك فئة أخرى صغيرة من الناس لا تملك القدرة على إدخال البهجة في قلوب الآخرين، إذ لا همّ لهم سوى إفساد كل لقاء، يعيشون حياتهم كما لو أنهم يريدون إطفاء كل نور؛ فلا يضحكون إلا حين يُجبرون على ذلك أو حين يبتغون تكمّص مظهر من مظاهر السرور.

وهكذا يتضح سر مشاعر التعاطف والنفور؛ فعلى الضفة الأخرى من النوع المتعاطف يقف مفسدو البهجة المزمنون، الذين يرون العالم واديًا للحزن والألم، ويعيش بعضهم وكأنهم يحملون أثقالًا لا تُطاق، يبالغون في أهمية كل عقبة صغيرة، ويتوقعون مستقبلًا لا يُبشّر إلا بالسواد، فلا يفوتون مناسبة يكون فيها الآخرون سعداء حتى يُسارعوا إلى إطلاق نبوءاتٍ كئيبة عن الخراب والهلاك. إنهم متشائمون بامتياز، ليس لأنفسهم وحدهم، بل

للجميع، فإذا رأوا أحدًا في محيطهم سعيدًا، انتابهم القلق وسعوا جاهدين إلى العثور على جانب قاتم للوضع، يفعلون ذلك لا بمجرد أقوالهم، بل بأفعال مقلقة تجعلهم يحولون بين الآخرين وبين العيش في سعادة والتمتع بصحبة إنسانية مُشرقة.

## طريقة الكلام

قد تترك أساليب تفكير بعض الناس وطرائق تعبيرهم أثرًا لا يُمحي، وتكشف لنا جانبًا عميقًا من شخصياتهم. ففي كل ثقافة كلمات وتعبيرات يُنظر إليها على أنها غير مقبولة في مجتمع مهذب، ويكفي أن تتردد على الألسنة حتى يشيع صداها الخشن، محدثًا انطباعًا منفّرًا لدى السامعين، بل وقد يُثير النفور حتى في نفوس المتكلمين أنفسهم. مثل هذا النوع من اللغة يعكس ضيق الخيال، وافتقار صاحبه إلى الذكاء واللباقة.

وعلى الضد من ذلك، نجد أناسًا لا يكادون يتجاوزون حدود الشعارات والأمثال الرائجة، فيفكرون ويتحدثون ضمن أفقٍ ضيق، يمكن التنبؤ بما سيقولونه مسبقًا، إذ يأتي كلامهم مكرورًا باهتًا، أقرب إلى سطورٍ مبتذلة في روايات رخيصة، أو عباراتٍ مقتبسة من صحف صفراء وأفلامٍ سطحية. هؤلاء يميلون إلى الإكثار من المصطلحات العامية، ويُجيبون على كل سؤال بعبارته المهالكة أو تعبير مبتذل، مما يكشف عن ضعف تعاطفهم مع الآخرين، ويُظهر عجزهم عن التفكير بأسلوب أصيل. ومن المؤسف أن هذه الطريقة في الكلام شائعة بين أناسٍ لا يعرفون غيرها، فتدل على قصورٍ واضح في النمو النفسي.

## سلوك الفصل الدراسي

كثيرًا ما نصادف أشخاصًا يبدو وكأن نموهم قد توقّف عند مرحلة معينة من مسيرتهم الدراسية، فلم يتجاوزوا أجواء "الصف الابتدائي". في المنزل أو في العمل أو في المجتمع، تراهم يتصرفون كما لو كانوا تلاميذ في مدرسة: يصغون بشغف، ومنتظرون

بلهفة الفرصة التي تُمكنهم من التعبير عن أنفسهم. يحرصون دائماً على أن يكون لهم جواب لأي سؤال يُطرح في أي مجلس، وكأنهم في سباقٍ لإثبات تفوقهم، أو سعياً وراء تقريرٍ مدرسي جيد يمنحهم الاطمئنان والرضا.

يكن سرّ هؤلاء في أنهم لا يشعرون بالأمان إلا في المواقف المنظّمة التي تُذكّرهم بجوّ المدرسة. وما إن يجدوا أنفسهم أمام وضعٍ غير مألوف، أو سلوكٍ لا ينسجم مع قواعد "الصف"، حتى يستولي عليهم القلق ويغشاهم شعور بالانعدام في الأمن. وهذه السمة لا تقتصر على مستوى فكري معين، بل تتجلى على جميع المستويات. وفي أشد صورها سلبيةً، يبدو الفرد جافاً، متصلباً، صعب المراس، أو يتظاهر بمظهر العارف بكل شيء، فيوحي بأنه يدرك الأمور فوراً من دون جهد، أو يسعى إلى إخضاع كل ما حوله لقواعد صارمة وصيغٍ محددة مسبقاً.

## التحذلق والتحيز

من الأمثلة اللافتة على هذا النمط المدرسي أولئك الذين يحاولون تصنيف كل نشاط وكل حدث وفقاً لمبدأ جامد لا يتزحزح، يؤمنون به إيماناً مطلقاً، ولا يقبلون العدول عنه، ولا يهدأ لهم بال إذا واجهوا أمراً لا يمكن تفسيره ضمن قواعده. إنهم متشددون جادون، يعطون انطباعاً بأن شعوراً عميقاً بعدم الأمان يسيطر عليهم، فيلجؤون إلى حشر كل تفاصيل الحياة في قفص ضيق من القواعد والصيغ، خشية أن تطغى عليهم. يتجنبون المواقف التي لا تسعفهم فيها قاعدة أو صيغة، ويشعرون بالإهانة والاستياء إن وُضعوا أمام لعبة لا يعرفون قوانينها. وغني عن القول إن هذه الطريقة تمنح صاحبها سلطة واسعة، كما نرى في حالات كثيرة من "المعترضين الضميريين" المعادين للمجتمع، الذين نعلم أن ما يحركهم ليس الضمير وحده، بل الغرور المفرط والرغبة الجامحة في الهيمنة.



حتى لو كانوا عمالاً جيدين، يبقى موقف المتشدد واضحاً؛ فهم لا يُبدون أي مبادرة، وتضييق اهتماماتهم شيئاً فشيئاً، ويغرقون في نزوات عبثية قد تبلغ حدّ الطقوس اليومية؛ كأن يحرص أحدهم على السير دائماً بمحاذاة حافة الرصيف الخارجية، أو يتجنب شقوق الطريق، أو يرفض العدول عن مسار مألوف مهما كان الثمن. هؤلاء يفتقرون إلى التعاطف مع قضايا الحياة الحقيقية، ويهدرون في ترتيب قواعدهم وصيغهم وقتاً وجهداً هائلين، ثم ما يلبثون أن يفقدوا انسجامهم مع أنفسهم ومع بيئتهم. فإذا ما صادفتهم مشكلة غير مألوفة، فشلوا تماماً، لأنهم غير مؤهلين للتعامل مع ما لا يخضع لقواعدهم. هم يعتقدون أن لا شيء يمكن إنجازه من دون صيغ سحرية، ويتجنبون أي تغيير كما لو كان خطيئة.

يبدو من الصعب عليهم أن يتأقلموا حتى مع أبسط مظاهر التجدد؛ فإذا أطلّ الربيع بعد طول شتاء، ثقلت عليهم دعوته إلى الانفتاح على الناس، وشعروا بالانقباض من احتمال اضطرابهم إلى تكوين علاقات جديدة. هؤلاء هم الذين يشكون من اعتلال صحتهم في الربيع، لأن أي تبدل في إيقاع الحياة يربكهم. ولأن قدرتهم على التكيف محدودة، نجدهم غالباً في وظائف لا تتطلب مبادرة، ولا يضعهم أصحاب العمل في غيرها. هذه المظاهر ليست وراثية ولا قدرية، بل تنبع من موقف مضلل تجاه الحياة، رسخ في نفوسهم حتى طبع شخصياتهم كلها، فلم يعودوا قادرين على التحرر من تحيزاتهم الخاصة.

ومن هنا يتصل الحديث عن النقيض: فالأشخاص الذين يتسمون بالخضوع الطبيعي لا ينجحون في الوظائف التي تتطلب مبادرة، إذ لا يجدون الراحة إلا في طاعة أوامر الآخرين. يعيشون وفق قواعد غيرهم، ويسعون إلى الخضوع كأنه قانون للحياة. ويمكن تبين ذلك في سلوكياتهم، فهم منحنون دائماً في حضور الآخرين، متدمرون بعض

الشيء، يصغون بجدية لا ليفكروا فيما يسمعون، بل لينفذوا الأوامر ويرددوا المشاعر. يرون في الطاعة شرفاً، ويجدون لذة في إذلال أنفسهم، حتى لتكاد تبلغ حدًا لا يُصدق.

ومن الظلم أن نعتبر مَنْ يطلب السيطرة في كل الأحوال مثالاً أعلى، ولكن من الضروري أيضًا أن نكشف الجوانب السلبية في حياة أولئك الذين يجدون في الخضوع حلًا شاملًا لمشكلاتهم. فبيننا اليوم كثيرون يرون في خضوع المرأة "قانونًا أبدياً"؛ اعتقادًا زائفًا رسخته خرافات قديمة، سممت وأفسدت علاقات إنسانية لا حصر لها. بل إن بعض النساء أنفسهن يعتنقن هذا الرأي كأنه عقيدة، فيعشن أسيرات له، وكأن طاعته قدر محتوم. ومع أن هذه النظرة لم تنفع أحدًا، إلا أن أثرها ظل مدمرًا، إذ تحولت المرأة الخاضعة تدريجيًا إلى كائن تابع، طفيلية اجتماعيًا، تفقد استقلالها شيئًا فشيئًا، حتى تصبح مجرد آلة للخدمة.

هذا الموقف لا يقتصر على العلاقة بين الجنسين، فقد بُنيت حضارات كاملة على مؤسسة العبودية، وجعلت العمل من نصيب العبيد، بينما بقيت الطبقات الحاكمة في برج من سلطة زائفة سُميت "أرستقراطية"، أي حكم "الأفضل"، مع أن معيار الأفضلية كان القوة وحدها. وقد تسربت إلينا آثار هذا التاريخ، حتى نرى اليوم من لا يشعر بالراحة إلا إذا كان خاضعًا أو ممتنًا للآخرين، متنازلًا عن ذاته، معتذرًا عن وجوده. هؤلاء لا يفعلون ذلك بسرور، بل في الغالب بتعاسة دفينية.

وعلى الضفة الأخرى، نجد المتسلطين الذين لا يهدأ لهم بال إلا إذا كانوا في موقع القيادة، يتقدمون دائمًا، يتحدثون دائمًا، يبحثون عن كل فرصة لإثبات تفوقهم، ويتململون بمجرد أن يُطلب منهم الخضوع. قد يكون في هذا النمط جانب نافع حين تقتضي الظروف قادة ومنظمين، كما في أوقات الاضطراب، لكنه في أزمنة الرخاء كثيرًا

ما ينقلب إلى مصدر نزاع وإرباك، إذ يسعى المتسلط لإثبات أهميته، ويتذمر إذا رأى نفسه ضحية سوء حظ، كما لو أن قوى الطبيعة تترصده وحده. وغالبًا ما يغلف غروره هذا الادعاء، فيعيش حياته كلها محاطًا بإحساس مبالغ فيه بالأهمية، سواء عبر التفاخر بالمصائب التي تحل به، أو عبر إلقاء اللوم على قوى خارقة أو على إله يتصور أنه خصص نفسه لمراقبته وحده.

وقد تتخذ هذه المبالغات لبوسًا دينيًا، فيتصور صاحبها أن الطقوس أو الأدعية تجعل الله مسؤولاً مباشرة عن مصيره، أو أن بإمكانه التحكم بالعالم من خلال عباداته، فيقع في نوع من الغرور الروحي الذي يُضلّه عن جوهر الدين. وقد رأينا حالات لأشخاصٍ انساقوا وراء هذا الشعور حتى ظنوا أنفسهم حكامًا على الفضيلة والرذيلة، والنقاء والفساد، والخير والشر، مدفوعين فقط بغرورٍ جامح وطموحٍ يختبئ خلف ستار التقوى.

## المشاعر والعواطف

المشاعر والعواطف هي مظاهر لما سبق أن وصفناه بالسّمات الشخصية. فهي تنبثق فجأة تحت ضغط ضرورة واعية أو غير واعية، وتمتلك، مثل السمات، هدفًا واتجاهًا محددين. يمكن النظر إليها كتطورات نفسية تجري ضمن إطار زمني قصير. وهي ليست ظواهر غامضة عصية على التفسير، بل تنشأ حيثما وجدت مناسبة لأسلوب حياة بعينه أو لنمط سلوك مهياً مسبقًا للفرد. غايتها دائمًا تعديل وضع الفرد بما يحقق له فائدة. إنها حركات حادة ومكثفة تنشأ لدى أشخاص تخلوا عن وسائل أخرى لتحقيق غاياتهم أو فقدوا الثقة بها، فيلجؤون إلى هذه الانفعالات كخيار أخير.

نحن نتعامل هنا مع أفراد يثقلهم شعور بالنقص والعجز، فيجبرهم هذا الشعور على استنفار قواهم وبذل جهد يفوق الحاجة. ومن خلال هذا الجهد المفرط، يظنون أنهم

قادرون على الوصول إلى الضوء وإثبات تفوقهم. فلا يمكن أن يوجد غضب بلا عدو، ولا يمكن أن نتصور الغضب إلا بوصفه اندفاعاً هدفه التغلب على خصم. وفي ثقافتنا ما زال ممكناً بلوغ بعض الأهداف عبر هذا السلوك المبالغ فيه، ولولا ذلك لكانت نوبات الغضب أقل شيوعاً بكثير.

الأفراد الذين لا يملكون ثقة كافية بقدرتهم على الوصول إلى غاياتهم، لا يتخلون عنها بدافع شعورهم بعدم الأمان، بل يضاعفون السعي إليها مدفوعين بتيار من المشاعر والانفعالات الإضافية. وهكذا، يستجمع من تلسعهم عقدة النقص كل ما في وسعهم، ويحاولون بلوغ غايتهم في صورة تُذكرنا باندفاع الوحشي غير المتمدن.

وبما أن المشاعر والعواطف متصلة اتصالاً وثيقاً بجوهر الشخصية، فهي ليست خصائص محصورة في قلة من الناس، بل هي سمة يشترك فيها البشر جميعاً. كل فرد قادر على إظهار انفعال معين إذا وُضع في ظرف يستدعيه، وهذه القدرة يمكن أن نطلق عليها اسم "ملكة العاطفة". إن العواطف جزء لا يتجزأ من الحياة الإنسانية، إلى حد أننا جميعاً قادرون على اختبارها.

وحين نفهم الإنسان فهماً كافياً، يمكننا أن نتخيل مشاعره المعتادة حتى دون أن نراها مباشرة. ومن الطبيعي أن يكون لهذه الظاهرة الراسخة أثر على الجسد، إذ إن العقل والجسم مرتبطان أوثق ارتباط. ولهذا تتجلى المصاحبات الجسدية للمشاعر في تبدلات ملموسة في الدورة الدموية والتنفس: كالأحمرار أو الشحوب، وتسارع النبض، وتغير إيقاع التنفس.

## العواطف الفردية

الغضب هو الشعور الذي يُجسّد السعي وراء السلطة والسيطرة. غايته التدمير السريع والحاسم لكل عقبة تعترض طريق الشخص الغاضب. وقد أظهرت لنا الأبحاث السابقة أن الأفراد الغاضبين هم أولئك الذين يسعون إلى التفوق بكل ما أوتوا من قوة. ويتحول السعي وراء التقدير أحياناً إلى جنون حقيقي بالسلطة. وعندما يحدث هذا، نتوقع أن نجد أفراداً يستجيبون بعنف لأي حادث تافه يُشعرهم بانتقاص هيبتهم أو مكانتهم. وهم يعتقدون - ربما بناءً على خبراتهم السابقة - أن هذه هي الطريقة الأنجع لتحقيق رغباتهم وقهر خصومهم. هذا السلوك لا يقوم على مستوى فكري رفيع، لكنه مع ذلك ينجح في كثير من الأحيان. وليس عسيراً على معظم الناس أن يتذكروا كيف استعادوا هيبتهم أو نالوا ما يريدون من خلال نوبة غضب عارضة.

وقد تكون هناك حالات يبرّر فيها الغضب إلى حد كبير، لكننا لا نعني هذه الحالات هنا. ما نتحدث عنه هو أولئك الأفراد الذين صار الغضب عندهم عادة مألوفة واستجابة جاهزة، يستخدمونها على نحو منهجي لأغراضهم الخاصة، لافتقارهم إلى وسيلة أخرى للتعامل مع المشكلات. هؤلاء في العادة أشخاص متغطرسون، شديدو الحساسية، لا يطيقون أن يعلوهم أحد أو حتى أن يساويهم، بل لا يرضون إلا بأن يكونوا هم فوق الجميع. ومن ثم فهم دائماً على أهبة الاستعداد للانفجار، إن اقترب أحد منهم أكثر مما ينبغي أو لم يقدرهم التقدير الكافي. وانعدام الثقة هو السمة الأبرز الملازمة لهذه الحساسية؛ إذ يجدون من المستحيل أن يثقوا بالآخرين.

ويرافق غضبهم وحساسيتهم وانعدام ثقتهم سمات أخرى مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً. ففي الحالات القصوى، قد نجد مثلاً أشخاصاً طموحين إلى حد بعيد، لكنهم يفرون من كل

مهمة جدية، عاجزين عن التكيف مع المجتمع. وإذا حُرِّموا من شيء، لم يعرفوا وسيلة غير الاحتجاج المؤذي للآخرين. قد يحطمون مرآة، أو يكسرون مزهريّة ثمينة. ومن العبث قبول اعتذارهم حين يزعمون أنهم لم يكونوا على وعي بما فعلوه، إذ إن نيتهم واضحة، فهم لا يحطمون أشياء تافهة، بل دائماً أشياء ثمينة، الأمر الذي يكشف عن خطة مبيتة وراء أفعالهم.

ومع أن هذه الوسيلة قد تحقق نجاحاً محدوداً، إلا أنها سرعان ما تفقد فعاليتها حين تتسع دائرتها. وعندئذ يجد هؤلاء الغاضبون أنفسهم في صراع مع العالم بأسره. والعلامات الخارجية للغضب شائعة إلى حد أننا لا نحتاج إلا إلى كلمة "الغضب الشديد" لنستحضر صورة ذهنية لشخص سريع الانفعال. إن موقفهم العدائي من العالم واضح تماماً، والغضب في جوهره إنكار شبه كامل للشعور الاجتماعي. ويتجلى التعبير عن السعي إلى السيطرة بمرارة بالغة، حتى إن قتل الخصم لا يعد أمراً عسيراً عليهم.

والمشاعر والعواطف هي أوضح مؤشرات الشخصية. لذا، ينبغي أن نصنف جميع من يتميزون بسرعة الغضب أو المرارة أو الحدة المفرطة كأعداء للمجتمع وأعداء للحياة. وينبغي ألا نغفل حقيقة أن سعيهم إلى السيطرة متجذر في شعورهم بالنقص؛ إذ لا يحتاج إنسان واثق بنفسه إلى ردود فعل وإيماءات عدوانية. في نوبات الغضب ينكشف كامل النمط النفسي المتمثل في ثنائية النقص والتفوق بوضوح شديد. إنها حيلة رخيصة يُرفع بها تقدير الذات على حساب الآخرين.

ومن المثير أن الكحول من أقوى محفزات الغضب والانفعال. فكميات قليلة منه تكفي غالباً لإحداث هذا الأثر، لأنه يضعف الكوابح التي تفرضها الحضارة. فيتصرف السكير كما لو لم يكن متحضراً قط، ويفقد السيطرة على نفسه وعلى أي اعتبار للآخرين. وحين

يكون صاحباً قد يفلح . بجهد جهيد . في إخفاء عداته للبشرية، لكن السكر يكشف شخصيته الحقيقية. وليس مصادفة أن من لا ينسجمون مع الحياة يلجؤون كثيراً إلى الكحول؛ يجدون فيه عزاءً مؤقتاً ونسياناً، فضلاً عن عذر لفشلهم.

أما الأطفال، فنوبات الغضب أكثر شيوعاً عندهم منها عند الكبار. وأحياناً يكفي حادث تافه لإشعال نوبة هياج، ناشئة من شعور متزايد بالنقص وقلة خبرة، فتبدو مساعيهم للسلطة أكثر شفافية. فهم يسعون إلى الاعتراف لأن كل عقبة تواجههم تلوح لهم بالغة الصعوبة.

غير أن الغضب الشديد، حين يتجاوز السلوك المعتاد من صراخ وسباب، قد يسبب أذى نفسياً وجسدياً للغاضب نفسه. وهنا يحسن التذكير بالصلة الوثيقة بين الغضب والانتحار؛ فكثيراً ما يكون الانتحار محاولة لإيذاء الأقارب أو الأصدقاء، أو للانتقام من هزيمة متخيلة.

أما الحزن، فينشأ حين يعجز المرء عن تعزية نفسه لفقدان أو حرمان. وهو، كسائر الانفعالات، تعويض عن تجربة استياء أو ضعف، ومحاولة للظفر بما هو أفضل. وبذلك تتطابق قيمته مع قيمة الغضب، وإن اختلفت وسائله. فبينما يُستخدم الغضب لرفع تقدير الذات وإذلال الخصم، فإن الحزن يمثل انكماشاً مؤقتاً في الأفق النفسي، تمهيداً لتوسع لاحق يبلغ فيه الفرد رفعة ورضا ذاتيين. والحزن، مثل الغضب، رد فعل على البيئة الاجتماعية، وإن اتخذ أسلوباً مختلفاً، إذ يعبر أصحابه عن شكواهم، ويعلنون معارضتهم، والمبالغة فيه علامة عداء للمجتمع.

وما يرفع الفرد المكلم هو موقف من حوله، إذ يخفف الآخرون وطأة حزنه، ويواسونه ويشجعونه. ولذا، فإن البكاء يجلب راحة لأنه يحقق له نوعاً من السمو، بجعله مدعيًا

على النظام القائم. وكلما عظمت مطالبته لبيئته بسبب حزنه، ازدادت وضوحًا. وهكذا، يصبح الحزن وسيلة لتجنب الشعور بالعجز والدونية، والسعي إلى الاحتفاظ بالمكانة.

أما الاشمئزاز، فرغم أن أثره أقل حدة من الغضب أو الحزن، إلا أنه يؤثر في المجتمع أيضًا. ففيزيولوجيًا، يظهر حين يُثير منظر أو رائحة كريهة انقباضًا في المعدة. ونفسيًا، هو محاولة لطرد مادة من النفس، تجسيدًا لشعور النفور. وتدل تجهماته على ازدياد كل شيء، ومحاولة لحل الموقف بإشارة رفض. ومن السهل إساءة استخدام هذا الانفعال، إذ يمكن اتخاذه ذريعة للهروب من موقف غير مرغوب فيه. ولا شيء أيسر من اصطناع الغثيان، حتى يتسنى الانسحاب.

وأما الخوف، فهو من أعظم الظواهر أثرًا في حياة البشر. وهو أعقد من مجرد شعور عابر، إذ قد يخلق - كما الحزن - رابطة من طرف واحد بالآخرين. فالطفل يهرب من موقف مخيف ويلجأ إلى حماية غيره. وللوهلة الأولى يبدو الخوف إشارة إلى الهزيمة، إلى تصغير الذات. لكن فيه أيضًا تعطشًا للتفوق؛ فالمذعور يهرب ليقوي نفسه بعون الآخرين، حتى يستعيد الثقة بقدرته على مواجهة الأخطار.

والخوف في جذوره انعكاس لرهبة بدائية تسيطر على الكائنات جميعًا. والبشر أضعف الكائنات وأقلها أمنًا في مواجهة الطبيعة، لذا يُعانون منه أكثر. ومعرفتهم الفطرية بصعوبات الحياة محدودة، بحيث لا يستطيع الأطفال مواجهتها وحدهم، فيلزم تدخل الآخرين لتعويض نقصهم. فإذا عجزوا عن ذلك، تطور لديهم نزوع تشاؤمي، وغدت أهم خصائصهم الحاجة إلى عون واهتمام مستمر. وكلما ابتعدوا عن مهام الحياة، ازداد حذرهم. وإن أُجبروا على الاعتماد على أنفسهم، كانوا دومًا على أهبة الفرار، حتى صار الخوف سمتهم الأوضح.



وفي التعبير عن الخوف، نرى البدايات الأولى للمواجهة، وإن جاءت غير مباشرة. وفي الحالات المرضية، تنكشف آلياته بجلاء، إذ يمد الخائفون أيديهم طلبًا للعون، ساعين إلى جذب الآخرين وإخضاعهم. وهكذا تصبح علاقتهم بالآخرين أشبه بعلاقة السيد بالعبد. وقد فقدوا استقلالهم إلى حد أنهم يطالبون بامتيازات استثنائية بالحاح، ويسعون إلى صحبة الآخرين لكنهم يفتقرون إلى الشعور الاجتماعي الحق. إنهم يستغلون الخوف أداةً للتهرب من التزامات الحياة، وإخضاع من حولهم.

### سوء استخدام العاطفة

لم يفهم أحد معنى وقيمة المشاعر والعواطف حتى اكتُشف أنها أدوات قيّمة للتغلب على مشاعر النقص والارتقاء بالشخصية ونيل التقدير. لقدرة التعبير عن المشاعر تطبيق واسع في حياة النفس. عندما يشعر الأطفال بالإهمال، ويتعلمون أنهم قادرون على استبداد بيئتهم بالغضب أو البكاء أو الخوف، فإنهم سيختبرون هذه الطريقة للسيطرة مرارًا وتكرارًا. بهذه الطريقة، سيقعون بسهولة في نمط سلوكي يسمح لهم بالتفاعل مع المحفزات التافهة بردود أفعالهم العاطفية المعتادة. يستخدمون عواطفهم متى ما دعت الحاجة. الانشغال بالعواطف عادة سيئة قد تتحول أحيانًا إلى مرض. عندما تتطور هذه العادة في الطفولة، نجد البالغين يسيئون استعمال العواطف باستمرار. هؤلاء الأفراد يستغلون الغضب والحزن وجميع المشاعر الأخرى بطريقة درامية، كما لو كانوا يؤدون أدوارًا على مسرح. هذا السلوك عديم القيمة، وغالبًا ما يكون مزعجًا، يسلب العواطف قيمتها الحقيقية. يصبح التلاعب بالعواطف استجابةً اعتيادية كلما حُرِم هؤلاء الأفراد من أي شيء أو كلما هُددت هيمنة شخصيتهم. قد يُعبّر عن الحزن بعنفٍ شديدٍ حتى يصبح

مُتَقَزِّزًا: صاخبًا جدًّا، مُبهرجًا جدًّا، ومُبالغًا في التمثيل. لقد رأينا أشخاصًا يُعطون انطباعًا بأنهم يُنافسون الجميع في مقدار الحزن الذي يُمكنهم إظهاره.

يمكن إساءة استعمال المرافقات الجسدية للعاطفة بنفس الطريقة. من المعروف أن هناك من يسمحون لغضبهم بالتأثير بقوة على أجهزتهم الهضمية لدرجة أنهم يتقيأون عند الغضب. هذه الآلية تُعبّر عن عدائهم بوضوح أكبر. وبالمثل، يرتبط شعور الحزن برفض تناول الطعام، مما يجعل الشخص الحزين يفقد وزنه بالفعل ويبدو في صورة "الحزن الحقيقي".

لا يمكننا تجاهل هذه الأنواع من سوء الاستعمال، لأنها تؤثر على الآخرين. بمجرد أن يُعرب الجار عن قلقه على المصاب، تتلاشى ردود الفعل العنيفة التي وصفناها سابقًا. ومع ذلك، هناك أفراد يتوقون إلى تعبير الآخرين عن ودهم لدرجة أنهم يُيقنون على حزنهم أو خوفهم إلى أجل غير مسمى، لأنهم في هذه الحالة يشعرون بتقدير أكبر لذواتهم، بفضل تعبيرات الصداقة والتعاطف الكثيرة من أصدقائهم وجيرانهم.

رغم أنها تُثير تعاطفنا بدرجات متفاوتة، إلا أن الغضب والحزن والاشمئزاز والخوف مشاعر مُدمرة. إنها لا تُقرب الناس من بعضهم البعض، بل تُفترقهم بتدمير مشاعرهم الاجتماعية. صحيح أن الحزن قد يُقرب الناس من بعضهم البعض، لكن هذا الاتحاد لا يتطور بشكل طبيعي إذا لم يُساهم كلا الطرفين بالتساوي. إنه يعكس تشوُّهاً في المشاعر الاجتماعية، عندما يُضطر المُعزّي، عاجلاً أم آجلاً، إلى المساهمة بنصيب أكبر.

## مشاعر الألفة

الفرح هو الشعور الذي يعمل على تقريب المسافات بين الناس بفاعلية، إذ إن الفرحة لا تسمح بالعزلة، بل يمدّ الجسور بين الأفراد. فتعايير السعادة، كما نراها في البحث عن

رفيق، أو في معانقة حارة، أو أي مظاهر أخرى من التقارب الإنساني، تنشأ لدى البشر الذين يحملون في داخلهم رغبةً في الاجتماع معاً، أو في الاستمتاع بشيءٍ على نحوٍ مشترك. إنه شعور متصل، بمعنى أنه حركة نحو الوحدة، وبمثابة مدِّ يدٍ إلى الغير، وإشعاع من الدفء ينعكس على من يحيط بالإنسان.

وقد يحاول بعض الأفراد التغلب على إحساسهم بعدم الرضا أو شعورهم بالوحدة عبر البحث عن الفرح، فيجعلون منه وسيلةً للتعويض. وقد يُستخدم الضحك في هذا السياق، فيتحول أحياناً إلى أداةٍ للتغطية على الضعف أو وسيلة للسيطرة على الآخرين وجذب الانتباه.

غير أنّ الضحك والسعادة قد يُساء توظيفهما لأغراض شخصية لا تمت بصلةٍ إلى روح الترابط. فهناك مثلاً مريض كان يخشى أن يُظهر ما في داخله من عجزٍ أو إحساس بعدم الأهمية، فإذا به يُظهر علامات من الفرح عند سماعه خبر زلزال خطير. وعندما كان يواجه الحزن، شعر بالعجز، فرفض الانغماس فيه، وحاول اللجوء إلى نقيضه، أي الفرح المصطنع. ومن صور إساءة استخدام السعادة أيضاً الشماتة، أي التعبير عن الفرح عند مصائب الآخرين وآلامهم. فالفرح الذي ينشأ في غير وقته أو مكانه، ويتعارض مع الشعور الاجتماعي، ليس فرحاً خالصاً، بل شعوراً مشتتاً يوظف كأداة للانتصار على الغير.

ويُعدّ التعاطف أنقى تعبير عن الشعور الاجتماعي وأصفي أشكاله. إذ إننا حينما نجد لدى إنسانٍ ما تعاطفاً حقيقياً، نكاد نتيقن أنه شخص ناضج يتمتع بوعي اجتماعي سليم، لأن التعاطف معيار صادق لقدرة الفرد على التماهي مع الآخرين.

ومع ذلك، فإن أكثر ما نلاحظه في حياتنا ليس التعاطف الصادق، بل إساءة استغلاله في صورٍ متكررة. فقد نرى من يتظاهرون بحماس مفرط تجاه قضايا الرأي العام، أو من

يبالغون في إظهار تعاطفهم مع الضحايا والمصابين، لا بدافع المساعدة، بل سعيًا وراء الشهرة في الصحف أو لجذب الانتباه. ونرى آخرين يهرعون إلى موقع الكارثة لا لنجدة المحتاجين، بل ليستمتعوا بمشاهدة معاناة المنكوبين. ومثل هؤلاء لا يتخلون بسهولة عن ممارساتهم، لأنهم في حقيقتهم لا يبنون سوى شعور زائف بالتفوق على الضحايا والفقراء الذين يدعون نصرتهم. وكما قال لاروشفوكو، القاضي الثاقب في شؤون النفس البشرية: «بإمكاننا دائمًا أن نجد قدرًا من الرضا في مصائب أصدقائنا».

وقد حاول بعض الباحثين أن يربطوا خطأً بين استمتاع الناس بالدراما المأساوية وبين هذه الظاهرة، فقالوا إن المشاهد يجد في المسرح متعة التفوق على الشخصيات المأساوية، غير أن هذا التفسير لا يصح على معظم الناس، إذ إن اهتمامنا بالمسرح التراجيدي إنما ينبع غالبًا من رغبة في فهم الذات وتعليمها، ولا نغفل في الوقت نفسه أن ما نراه مجرد مسرحية. فنحن نستفيد من التجربة ونستخلص منها زخمًا إضافيًا يعيننا على مواجهة مشكلات الحياة.

أما التواضع، فهو شعور ذو وجهين: متصل ومتقطع في آن واحد. وهو كذلك جزء أصيل من علاقتنا بالعالم من حولنا، ومن ثم لا ينفصل عن بنيتنا النفسية. ولا يقوم المجتمع البشري من غير قدرٍ كافٍ من التواضع والحياء، إذ هما اللذان يُشعراننا بضرورة التعاون وأهميته.

ويظهر التواضع عندما يستشعر الإنسان أن قيمة خصاله الشخصية مهددة أو أن ثقته بنفسه على وشك الاهتزاز. وهذا الشعور ينتقل مباشرة إلى الجسد، فينعكس في توسع الشعيرات الدموية الطرفية. وغالبًا ما يظهر الاحتقان في الوجه، على هيئة احمرارٍ واضح، مع أن هناك من يحمرّ جسمه بأكمله.

وقد يتخذ التواضع صورة سلوكٍ انطوائي يرافقه اكتئاب طفيف، وهو ما يُترجم في الغالب إلى استعداد للهرب من المواقف المهددة. وتدلّ العيون المُطأطأة والخجل على هذا الاستعداد للانسحاب، مما يكشف أن التواضع، كغيره من المشاعر، قد يتحول إلى شعورٍ مشتّت إذا أُسيء استعماله.

وهناك من يُصابون بالحرص بسهولة مفرطة، حتى تفسد هذه الصفة كل علاقاتهم بالآخرين. ومن ثمّ تظهر أهميتها كوسيلة من وسائل العزلة حين تبلغ حدّ المبالغة.

### ملاحظات عامة حول تربية الأطفال والتعليم

وأخيراً، لا بد أن نضيف بعض الملاحظات حول موضوعٍ سبق أن تطرقنا إليه في سياق تأملاتنا، وهو أثر التربية والتعليم في نمو النفس، سواء داخل البيت أو في المدرسة، أو في الحياة العامة عموماً.

إن الأسرة الحديثة، بكل ما فيها من مزايا، كثيراً ما تُنمّي لدى الأطفال نزعة السعي إلى السلطة وتغذي الغرور المفرط. ويمكن لكل إنسان أن يستحضر من تجربته الشخصية ما يشهد بذلك. ولا ريب أن الأسرة، بوصفها مؤسسة، تُعدّ أنسب بيئة لرعاية الطفل والعناية به، خصوصاً في حالات المرض، ويصعب تخيّل بديل يؤدي هذا الدور على الوجه الأكمل. فإذا كان الوالدان يمتلكان بصيرة صائبة، وقدرة على إدراك ما يطرأ على أبنائهما من عيوب منذ بدايتها، ثم أحسنا التوجيه والعلاج في حينه، جاز لنا القول إن الأسرة لا يُضاهيها أي إطار آخر في إعداد طفل سليم.

لكن الحقيقة أن معظم الآباء ليسوا علماء نفس ولا معلمين مؤهلين، بل إن قدرًا من الأنانية الأسرية المرضية يطبع التربية اليوم. وهذه الأنانية تجعل الآباء يبالغون في تقدير أبنائهم على حساب غيرهم من الأطفال، فينشأ الصغار على وهم أنهم أفضل من

الآخرين جميعًا. ومن هنا يتولد أخطر خطأ تربوي، إذ يترسخ في أذهانهم تصور زائف بأن تفوقهم على الغير أمر مفروغ منه.

إن النمط السائد في الأسرة يقوم على سلطة الأب وهيمنته، وهنا تبدأ مواطن الخطر، لأن هذه السلطة لا ترتبط ارتباطاً حقيقياً بالشعور الاجتماعي أو بروح الجماعة الإنسانية، بل إنها تدفع الطفل في الغالب إلى التمرد، علناً أو سراً، على هذا النموذج السلطوي. والخطر الأكبر في هذه التربية الاستبدادية أنها تُقدّم للأطفال مثلاً حياً على مزايا السلطة وثمارها، فيشبون متعطشين لها، مغرورين، متطلعين دائماً إلى أن يكونوا في القمة. ولأنهم شهدوا خضوع الأسرة لأبيهم، فإنهم بدورهم يطلبون لاحقاً الاحترام والطاعة من الجميع. هكذا يصبح موقفهم العدائي تجاه الوالدين، ومن ثم تجاه العالم، نتيجة حتمية لهذا التصور الخاطئ.

ولذلك نكاد نقول إن من المستحيل أن يكبر الأطفال في مثل هذه الأجواء دون أن ينصبّ تفكيرهم على هدف التفوق. ونرى ملامح هذا بوضوح في رغبة الصغار في اللعب مع الكبار كأنداد، ثم في المراحل اللاحقة من حياتهم، حيث يتعاملون مع المجتمع كله وكأنه امتداد لأسرتهم الأولى. فإذا لم تُشبع رغباتهم، انسحبوا من العالم ورفضوه.

ومع أن الأسرة قادرة كذلك على تنمية الشعور الاجتماعي في الطفل، فإن أثرها في هذا المجال يظل محدوداً مقارنة بما تغذّيه من نزعة إلى السلطة. ولعل التجربة الأولى للطفل مع الحب والحنان، وهي علاقته بأمه، تمثل أعظم محطة في هذا النمو. ففيها يكتشف لأول مرة أن هناك "آخر" يمكن الوثوق به كلياً، ويتعلم الفرق بين "أنا" و"أنت". وقد أوجز نيتشه هذه الفكرة بقوله إن صورة المحبوب التي يحملها كل إنسان إنما تُستمد من علاقته بأمه. وأوضح بيستالوتسي المرّبي السويسري أن الأم هي المثل الأعلى الذي يوجّه

علاقات الطفل المستقبلية بالعالم. ومن ثم، فإن العلاقة بالأم تحدد اتجاه جميع أنشطة الطفل اللاحقة.

إن وظيفة الأم إذن هي غرس بذور الشعور الاجتماعي، لكن إذا كانت العلاقة بها مشوبة بالقصور، نشأت عنها عيوب في النمو. وأبرز الأخطاء شيوعاً نوعان: أولهما أن تُهمل الأم أداء دورها الأمومي، فلا تُنمّي لدى الطفل أي إحساس اجتماعي، فينشأ غريباً عن محيطه كما لو كان في بلد أجنبي. والطريقة الوحيدة لمساعدته هي أن نعيد، بصورة ما، تمثيل دور الأم المفقود في حياته حتى يغدو إنساناً صالحاً. أما الخطأ الثاني فهو أن تكون الأم أمومية على نحو مفرط، فتحيط الطفل بحب مفرط، فلا يتجاوز تعلقه بها إلى سواها، فينشأ طفلاً يفتقر إلى أي أساس للشعور الاجتماعي.

وهناك أيضاً عوامل أخرى لا تقل أثراً، كالسعادة في سنوات الطفولة الأولى، فهي التي تمنح الطفل القدرة على التكيف مع العالم. غير أن قليلين فقط هم من ينعمون بطفولة سعيدة، إذ يولد كثيرون مرضى أو يلاقون منذ البداية الألم والبؤس، ولا يُهيأ لهم عالم ودود يستقبلهم. ومن هنا نفهم لماذا لا يُصبح إلا عدد ضئيل من الأطفال متقبلاً للحياة، ولماذا لا يتحرك إلا النادر منهم بدافع شعور اجتماعي أصيل.

ويزيد من خطورة الأمر ما يقع فيه الآباء من أخطاء تربوية جسيمة. فالتربية الصارمة القاسية قد تقتل في الطفل كل ميل طبيعي إلى الفرح، في حين أن التربية الدافئة المفرطة التي تزيل كل عقبة من طريقه تؤهله لحياة مدللة لا يقوى فيها على مواجهة التحديات. فإذا خرج إلى العالم، صُدم ببرودته، وعجز عن التكيف.

أما المدرسة، فهي المؤسسة التي يُفترض أن تُعوض هذه النقائص، وأن تساعد الطفل على الاندماج في المجتمع، لكنها - في صورتها الراهنة - عاجزة في الغالب عن أداء هذا

الدور. فالمعلمون لا يتوفر لهم الوقت ولا العدة لتمييز الصعوبات العاطفية للتلاميذ ومعالجتها، بل إنهم ملزمون بمناهج محددة لا تترك لهم حرية الاهتمام بجوانب النمو النفسي. وتزيد كثافة الفصول من صعوبة المهمة.

قد يُقال إن الحياة نفسها هي المدرسة الكبرى التي تُصلح ما أفسدته التربية، غير أن الحياة في حقيقتها لا تُغير الإنسان جذريًا. فهي لا تراعي أحدًا ولا تحذره، بل ترفضه إذا أخطأ وتتركه يهلك. فليس في الحياة معلمٌ رحيم يصحح أخطاءنا. لذلك تبقى المدرسة هي المؤسسة الوحيدة التي يُمكن أن نعلق عليها الأمل في الإصلاح، إذا ما حررت من إساءة الاستخدام، وإذا ما غدت قائمة على أسس تربوية صحيحة.

لكن، للأسف، لطالما استُغلت المدرسة وسيلةً لتحقيق أغراض طموحة أو سلطوية، حتى بات بعضهم اليوم ينادي بإعادة النظام الاستبدادي القديم إليها. فهل أثبت ذلك النظام يومًا أنه نافع؟ كيف يمكن لنهج استبدادي ضار أن يتحول فجأة إلى وسيلة للتقويم؟ وإذا كان الاستبداد في البيت قد أفضى دائمًا إلى التمرد، فكيف يُرجى من استبداد المدرسة أن يثمر غير ذلك؟

إن أي سلطة لا تنبع من الداخل، بل تُفرض من الخارج، هي سلطة زائفة. وحده الانضباط الذاتي، القائم على الشعور الاجتماعي، هو الانضباط الحق. وقد يدخل الطفل إلى المدرسة وهو يرى في معلميه مجرد موظفين، فإذا فُرضت عليه سلطة صارمة، جاءت النتيجة كارثية على نموه. فالطريق إلى التربية السليمة لا يكون بالمواجهة ولا بالقسر، بل بمعاملة الطفل كذاتٍ إنسانية ناضجة، على قدم المساواة مع المربي، بحيث لا يشعر بأنه مهدد أو مُهمل، ولا يضطر إلى اتخاذ موقف عدائي من معلميه. فإذا تحقق ذلك،



أمكننا أن نجنب أنفسنا هذا الطموح الزائف الذي ميّز حضارتنا وأسهم في فساد تفكيرنا وسلوكنا.

إن المدرسة، بوصفها المؤسسة التي يمرّ بها جميع الأطفال في سياق نموهم، يجب أن تُكيف على نحوٍ يليبي احتياجات نموهم النفسي. والمدرسة الصالحة هي وحدها التي تراعي هذه الاحتياجات، وهي وحدها التي تُقدّم تعليمًا يهيئ للحياة الاجتماعية.

لقد حاولنا في هذا الكتاب أن نُبيّن أن النفس لا يحددها عامل الوراثة، بل إن نموها مشروطٌ كليًا بالعوامل الاجتماعية. فمن جهة، لا بد من تلبية حاجات الكائن الحي، ومن جهة أخرى لا بد من تلبية متطلبات المجتمع. وفي هذا الإطار وحده تتطور النفس وتنمو.

وقد تتبعنا هذا التطور بتفصيل، فدرسنا الإدراك والذاكرة والمشاعر والتفكير، ثم تناولنا سمات الشخصية والعواطف. ورأينا كيف أن جميع هذه الظواهر مرتبطة ببعضها ارتباطًا لا ينفصم، فهي من جهة تخضع لقوانين الحياة الجماعية، ومن جهة أخرى تتأثر بالسعي الفردي نحو السلطة والتفوق. وهاتان القوتان تعملان معًا في نفسية كل إنسان، وتُحددان اتجاه نموه، وتجدان تعبيرهما في أسلوبه الفريد في الحياة. ورأينا كيف أن غاية التفوق، المعدلة بالشعور الاجتماعي، هي التي تُنشئ السمات الفردية للشخصية. وهذه السمات ليست وراثية بحال، وإنما تتشكل وفق النمط الخاص لتطور كل فرد، وتتجه في خط ثابت نحو الهدف الذي يحمله دائمًا في وعيه أو في لا وعيه.

وقد عرضنا عددًا من هذه السمات والانفعالات بوصفها مؤشرات ثمينة لفهم الطبيعة البشرية، وأوضحنا كيف أن الطموح والغرور يتجليان بدرجات متفاوتة في كل إنسان، وكيف يمكن من خلالهما أن نتبين بوضوح صراع الفرد من أجل التفوق. كما رأينا كيف

أن الإفراط فيهما يُعطل نمو الشعور الاجتماعي أو يقضي عليه تمامًا، ويدفع بصاحبهما إلى طريق التدمير الذاتي.

إن هذا القانون في التطور النفسي يبدو لنا قاطعًا، وهو بمثابة دليل لكل إنسان يريد أن يُحدد مصيره بوعي وانفتاح، بدلًا من أن يكون أسيرًا لقوى غامضة لا يفهمها. وبذلك يتخذ بحثنا هذا شكل تجربة في "علم الطبيعة البشرية"، وهو علم لا يُمكن تعلّمه أو ترسيخه إلا بمثل هذا النحو. ويبدو لنا أن فهم الإنسان لطبيعته الخاصة هو أمر لا غنى عنه، وأن دراسة هذا العلم هي من أشرف ما يمكن للعقل البشري أن ينصرف إليه.

## الخاتمة

لقد حاولنا في هذا العمل أن نُظهر أن فهم الطبيعة البشرية لا يمكن أن يقوم على عوامل وراثية جامدة أو على حتميات بيولوجية محضة، بل إن مسار النفس يتحدد في المقام الأول من خلال العلاقات الاجتماعية ومن خلال الطريقة التي يتعامل بها الفرد مع مهام الحياة الثلاث الكبرى: المجتمع، والعمل، والحب.

تبيّن لنا أن كل فرد، بوعيه أو بغير وعيه، يسعى إلى هدف يسميه علم النفس الفردي "السعي نحو التفوق". هذا الهدف ليس في ذاته شرّاً أو خيراً، بل إن قيمته تتحدد بمدى ارتباطه بالشعور الاجتماعي. فحيثما يسير الفرد في طريق التعاون والاندماج مع إخوانه البشر، يتطور سلوكه في اتجاه بناء؛ وحيثما يسلك سبيل الأنانية والعداء، يفسد تطوره ويُعيق نفسه ومجتمعه.

لقد عالجتنا بعض السمات والظواهر – كالمزاج، والعواطف، والغرور، والقلق، وغير ذلك – بوصفها تعبيرات جزئية عن هذا الصراع الداخلي بين الشعور الاجتماعي من جهة، والنزوع الفردي نحو السلطة من جهة أخرى. ومن خلال هذه الأمثلة، أردنا أن نُبيّن أن جميع الصفات الإنسانية، مهما بدت متفرقة أو غامضة، يمكن فهمها ضمن هذا الإطار الموحد.

إن علم النفس الفردي ليس نظرية أكاديمية فحسب، بل هو أداة عملية لفهم الإنسان، يمكن أن يستفيد منها الآباء والمربون والأطباء وكل من يهتم بتنشئة جيل قادر على المشاركة الإيجابية في بناء حضارتنا.

لقد صار واضحًا لنا أن دراسة الطبيعة البشرية ليست ترفًا فكريًا، بل هي أهم مهمة للعقل  
الإنساني، إذ بدونها سنبقى أسرى قوى نفسية غير مفهومة، ونُعرض أنفسنا ومجتمعنا  
للضياح. أما إذا وعيناها، فإننا نملك الوسيلة لتشكيل مصيرنا عن قصد وبصيرة.

## السيرة الذاتية للمؤلف

### حياته ونشأته

- الاسم: ألفرد أدلر (Alfred Adler)
- الميلاد: 7 فبراير 1870 – فيينا، النمسا.
- الوفاة: 28 مايو 1937 – أبردين، اسكتلندا.
- المهنة: طبيب وعالم نفس نمساوي.
- المكانة العلمية: مؤسس علم النفس الفردي (Individual Psychology)، وأحد أبرز أعلام علم النفس في القرن العشرين.

نشأ أدلر في أسرة متوسطة الحال، وأصيب في طفولته بأمراض خطيرة جعلته يتأمل مبكراً في معنى القوة والضعف عند الإنسان. درس الطب بجامعة فيينا، وتخصص في طب العيون ثم الأمراض الداخلية، قبل أن يتجه إلى الطب النفسي.

كان من الأعضاء الأوائل في حلقة فيينا التي أسسها فرويد، لكنه انفصل عنها عام 1911 بسبب اختلافات جوهرية في الرؤى النظرية، وأسس مدرسته الخاصة: علم النفس الفردي، الذي يركّز على وحدة الشخصية والاهتمام الاجتماعي.

## إسهاماته وأفكاره الرئيسية

1. الكلية (**Holism**): الإنسان وحدة متكاملة، لا يمكن فهمه عبر تفكيك أجزائه النفسية أو الجسدية.
2. عقدة النقص (**Inferiority Complex**): شعور النقص طبيعي، لكنه قد يتحول إلى عقدة إذا قاد لتعويض سلبي.
3. الاهتمام الاجتماعي (**Social Interest**): الصحة النفسية تُقاس بقدرة الفرد على التعاون والسعي للمصلحة العامة.
4. ترتيب الميلاد (**Birth Order**): له أثر في تكوين الشخصية (البكر، الأوسط، الأصغر).
5. أسلوب الحياة (**Lifestyle**): الفرد يصوغ منذ طفولته قصة داخلية توجه إدراكه وقراراته.
6. التربية الديمقراطية: نبت الاستبداد في الأسرة وتربية الطفل بروح المساواة.
7. العلاقات بين الجنسين: شدّد على أهمية فهم ديناميات القوة بين الرجل والمرأة لتحليل الشخصية الإنسانية.

## إنجازاته العملية

- أسس بعد الحرب العالمية الأولى شبكة من عيادات إرشاد الأطفال في النمسا وألمانيا وسويسرا.

- شارك في تدريب المعلمين والأطباء والأخصائيين الاجتماعيين.
- انتقل عام 1935 إلى الولايات المتحدة، حيث حاضر في جامعات كبرى.
- ترك إرثاً يضم أكثر من 300 دراسة ومقال وكتاب.

## أهم مؤلفاته

- فهم الطبيعة الإنسانية (*Understanding Human Nature, 1927*).
- فهم الحياة (*Understanding Life*).
- ماذا يمكن أن تعني لك الحياة (*What Life Could Mean to You, 1931*).
- الاهتمام الاجتماعي (*Social Interest: A Challenge to Mankind, 1933*).
- الممارسة والنظرية في علم النفس الفردي (*The Practice and Theory of Individual Psychology, 1927*).